

أشبهاء
فتيات

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: أشباه فتيات

التأليف: بيامي صفا

ترجمة: عبد الرحمن دردير، ريهام محمود صالح

موضوع الكتاب: أدب مترجم

عدد الصفحات: ٣٨٤ صفحة

عدد الملازم: ٢٤ ملزمة

مقاس الكتاب: ٢٠ x ١٤

عدد الطبعات: الطبعة الأولى ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٤ / ٣٢٠١٣

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٩٦٧٩-٠٨-٢

القاهرة - جمهورية مصر العربية

٠١٠١٢٣٥٥٧١٤

٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار النشر



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار النشر للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر.

تذكار

Ennahdha

رواية
تركية

أشباه فتيات

تأليف

بيامي صفا

ترجمة

عبد الرحمن دردير

ريهام محمود صالح

دار البشير

في حي بنغالتي، تبقى دقائق على منتصف الليل، كانت
 عربية جميلة بفرسين أسودين قوين يلمع جلدهما تقف عند
 باب السينما. كان الحوذي الذي نفذ صبره يداعب ذيلي فرسيه
 منتظرًا انتهاء السينما. ومن وقت إلى آخر ينظر إلى الساعة في
 مدخل السينما بحزن: تمام الثانية عشرة مساء. هناك بعض
 الناس في الشارع الخاوي الذي تضيئه المصابيح الضخمة، فلا
 أثر لصخب الناس الذين ملؤوا الرصيف قبل بضع ساعات.
 أصوات شاحبة لبائعين جائلين، والصفارات الأخيرة للقطار
 الآتية من بعيد كانت كدوي عميق ينبعث من تحت الأرض
 في شريط القطار.. هكذا كل ما في الأمر. نظر الحوذي الجازع
 خلفه، وسار تجاه سيارة أجرة أتت لتوها، فنادى سائقها وقال
 له: "جئت في العاشرة والنصف، أنتظر منذ ساعة ونصف
 الساعة. ألا تنتهي هذه المسرحية المملة الكارثية؟ أما كان
 يخرج الرجل وزوجه متشابكي الأذرع الساعة الحادية عشرة
 والنصف؟ ما الذي حدث الليلة إذن؟ هز سائق الأجرة رأسه
 بتوكل وقال:

- توجد سلسلة شرائط الليلة، تستمر طويلاً، أنا أعلم؛
 ولذلك جئت متأخراً. ثمانية أجزاء يا رجل، أنتهي هكذا
 بسهولة؟

أشار إلى رسمة كبيرة على الباب تملأ الجدار بألوان فظة لرأس امرأة نصفها ممزق وضحك قائلاً:

- آه.. هذه المرأة إذن.. تمثل هذه المسرحية.. أهى مسرحية باي نامه كيل أم باينامه كلي^(١).. هذا أمر مزر.. منذ أن بدأت مسرحية هذه السيدة والرجال والنساء يجوبون شيشلي^(٢) بكاملها حتى ألتين بقال^(٣) ويأتون إلى هنا.. مسرحيات هذه السيدة القذرة سبعة أو ثمانية أجزاء على الأقل تجعلك تنتظر كثيراً. فسأله:

- تستمر نصف ساعة أخرى، إلى الواحدة أم ماذا؟

أجابه:

- لا.. ستنتهي الآن، فهي لا تستغرق سوى خمس عشرة دقيقة. حوذي أي منطقة أنت؟
- لست حوذيًا لمكان ما؛ أنا أعمل في كوناك.

عندما كان الحوذي وسائق الأجرة يتحدثان ظهرت امرأة من ناحية السينما واقتربت من سائق الأجرة على استحياء. توجه السائق نحو السيدة على الفور، وسألها:

(١) اسم المسرحية.

(٢) مكان في تركيا.

(٣) مكان في تركيا.

- هل أوصلك يا سيدتي؟

أجابه السيدة بردائها الممزق بصوت متعب ومتعكر بنظرات
رامقة من تحت برقع رقيق باستحياء:

- لا. سأسألك عن عنوان ربما تعرفه؛ عنوان السيد نافع.

كانت تقول هذا برقة وبراءة وطهر. وبينما كان السائق يتذكر
أين يمكث السيد نافع، نظر بتمعن إلى السيدة بعين تعرف هذا
الرجل. وقد كان يتألاً القوام المشوق للفتاة الشابة، واللمعان
القائم في عينيها السوداوين، وساقها البيضاءوان في الضوء الحاد
المنبعث من مصابيح السينما الضخمة.

ترك حوذي كوناك الحديث وبدأ يركز مع الفتاة أيضاً.
أشار سائق الأجرة بإصبعه ذات الجلد الميت إلى نهاية شارع
بنغالتي وقال:

- السيد نافع مستشار السفارة، أليس كذلك؟ حسناً..
هو في حي شيشلي.. الجانب الآخر.. عند إصطبلات القطار أو
أبعد قليلاً.. يبعد عنه قليلاً.

ضمت الفتاة شفيتها بملل وقالت:

- ألا تصفه لي أكثر؟

قال لها:

- اركبي العربة، نصل في عشر دقائق.

فكرت الفتاة ولم تجب عندما رأت إصرار السائق، وقالت بصوت مرتعش:

- حسنًا لكن.. غير ممكن. أنا في الشارع قبل أن يحل الليل.. علمت أنه انتقل إلى شيشلي.. دائماً أتجول سيرًا.

- ماذا يكون السيد نافع لك؟

- هو ليس من معارفي هو أحد أقاربي.

- هيا، اركبي السيارة وسأحصل على الأجرة من القصر.

- وإن لم يعطوك؟

ضحك السائق بخبث وقال:

- أنتِ إنسانة أيضًا، وسنستوفي حقوقنا.

لم تجبه الفتاة الشابة، لكنها حاولت أن تصحح كلامه، فقالت:

- نتسامح يا أخي؟

قال لها:

- انتظري هنا قليلاً، ستفرغ السينما الآن.. إن لم يأت زبون سأوصلك. لديّ إصطبل هناك أيضاً. إن حصلت على النقود من القصر الصغير فهذا جيد، وإن لم أحصل ندعه إلى الغد، إلى يوم آخر ويكون ديناً عليك.

انحنت الفتاة بضعف تفكر وتفكر، فقالت بصوت منهك: "حسناً"، وانتظرت بجانب السيارة. انتظرت كثيراً. انتهت السينما عندما انتصف الليل وفُتحت الستائر الحمراء للباب الداخلي؛ حشد كثيف، نساء ورجال وأطفال ملؤوا مدخل السينما فجأة، وبعدها السلم، ثم الشارع كله. تنظر الأسر حولها بأعينهم المغمضة لاصطدامها بالنور فجأة، كان بعضهم يبحث عن بعض بنظرات ناعسة شاردة. امتلأ السلم بخشخشة الملابس الحريرية للنساء، والروائح التي تغطي الناس، المنبعثة من انحناءات أجسادهن الخفية ومحادثات قليلة متقطعة حماسية. كان معظمهن هائيات في سرور إثر نشوة الفيلم الذي شاهدنه، حتى إن بعضهن تعلقن بأذرع أزواجهن أو أقاربهن ونزلن السلم بخطوات متعثرة واختفوا جميعاً عن الأنظار في ظلمات الشوارع المقابلة. ركبت فتاة في عربة وهي تمسك طفلاً في يدها يرتدي ملابس مهندمة، ومعها رجل سمين ارتخت أجفانه من النوم،

متورمة حدوده. وأخذت الأحصنة تهز رقابها الطويلة في الهواء كالمعتاد، واتجهوا إلى وجهتهم. كانوا يجرون العربـة سريعاً دون جلبـة كأنهم يجرون كومة قش وانطفأ مصباح السـينا فالتفت سائق الأجرة إلى الفتاة.

وقال لها بصوت حزين:

- اركبي لنذهب.

فركب العربـة قفزاً. ووجّه فرسيه. أوقف العربـة أمام منزل على الطريق بعد أن تجاوز موقف القطار وكان مكوناً من ثلاثة طوابق من الطوب، مدهوناً باللون الوردى، التفت السائق برأسه إلى الفتاة المنزوية داخل العربـة وقال لها:

- ها نحن ذا وصلنا.. هذا هو منزل السيد نافع.

نزلت الفتاة وسارت نحو القصر الصغير.. وقفت طويلاً أمام الباب.. كلما مدت يدها إلى الجرس سحبتها.. رفعت رأسها إلى أعلى، فنظرت إلى شرفة القصر الصغير المظلمة؛ فلا يوجد أي مصدر للضوء في أي غرفة. كان زجاج النوافذ يلمع كمرآة مظلمة بانعكاس ضوء الشارع. الغرف جميعها هادئة. ولأن الجميع ناموا شعرت الفتاة المسكينة بريية عميقة؛ فلم تشجع على طرق الباب. نظرت حولها بخوف، تخشى أن تمر بوضع مزرٍ.

فقال السائق كأنه يأمرها:

- هيا، اقرعى الباب، لا تجعلينى أنتظر أكثر.

مدت الفتاة يدها المرتعشة إلى الجرس بشجاعة لحظية،
ومررت أصابعها بحركات متوترة. سرى صوت الجرس في
فراغ الشارع المظلم بعيداً. وبعدها خيم صمت عميق مجدداً.
لا يوجد أي مصدر صوت في القصر الصغير. نظرت الفتاة إلى
السائق بآس، وقالت له:

- على الأرجح غير موجودين.

قال لها:

- رني الجرس لنرى!

دوى صوت الجرس المتقطع، وحل الهدوء مجدداً، فلم يصدر صوت أى حركة فى القصر الصغير.

نزل السائق على الأرض وجاء أمام الباب، فاقرب بعينه الشاحبتين المتورمتين البيضاوين اللتين أطفأ بريقهما الخمر من وجه الفتاة وهمس إليها بغلظة وسخرية قائلاً:

- هذا مفهوم يا سيدي، سنعود مرة أخرى، لن تبقي في الشارع.. لنذهب إلى منزلي.

هزت الفتاة كتفيها المرهقتين الضعيفتين، وفضلت على الفور أن تبيت في مخفر الشرطة. وبينما كان يحول بخاطرها احتمالات غريبة، مدت أصابعها إلى الجرس بأمل أخير وحيد، لكن هذه المرة مررت أصابعها عدة مرات متتالية بقوة، ثم انتظرت، فسمعت صوت باب يُفتح من بعيد محدثاً صوتاً من الداخل وضجيجاً خفياً مبهماً يقترب، وصوتاً منخفضاً غير واضح لاحتكاك حذاء بالأرض. وضعت قدمها على عتبة الباب ويدها على صدرها الذي يصعد ويهبط من الخوف. استدار مفتاح بأزيز منقطع خلف الباب الكبير. سُحب الترباس.. اهتزت نافذة الباب، وفُتح الباب ببطء كأبواب الكهوف في الأساطير، فظهرت أمام الفتاة خادمة عجوز مسيحية، شعرها مبعثر، وجفونها منتفخة، وشفاهها متدلّتان، تنظر إليها بغضب وترقب.. نظرت إلى الفتاة والسائق والعربة آملة أن تطرد الظلام عن عينيها اللتين تجعدتا من النوم، فسألت بحدة ودهشة:

- من تريدان؟

- السيدة.

- أي سيدة؟

- السيدة نظمية.

- السيدة غير موجودة.
- أليست هنا؟
- بلى.
- أخفت السيدة جسدها خلف النافذة بعد أن وارت الباب.
- مدت رقبتها وسألت بحدة أكثر:
- فيمَ تريدونها؟
- جئت من بعيد، السيدة نظمية تقرب لي، جئت لتضيفني.
- فتحت السيدة الباب قليلاً، وقالت:
- الهانم الكبيرة غير موجودة، لكن الهانم الصغيرة هنا.
- لم تفهم الفتاة، فسألت:
- أي سيدة؟
- السيدة نيفين.
- حسنًا، جيد، ترى هل هي نائمة؟
- نامت منذ وقت طويل.
- تمالكت الفتاة نفسها بالثقة التي تنزل على الإنسان فجأة في
- الأزمات فأمرتها بثقة:

- أيقظيها!

نظرت الخادمة إليها بفضول، وقررت بعدها أن تغلق الباب في وجهها، فسمعت صوت حذاء. انتظرت الفتاة والسائق متبادلين النظرات بمشاعر مختلطة. مرت على ذلك دقائق كثيرة. سمعا أصوات أقدام تحدث جلبة ممتزجة من الداخل، فانفتح الباب بعدها مباشرة. ظهرت فتاة جميلة شقراء، تمسك بقميصها الداخلي في يدها، تحاول ستر صدرها العاري، ففتحت عينها بعد أن مسحت جفونها المكتحلة، ونظرت إلى ضيف منتصف الليل. ظلت واقفة.. يبدو أنها لم تعرف الفتاة.

حاولت أن تشرح لها مبدية الخجل:

- ألم تعرفيني؟ أنا مبرورة؛ ابنة السيد إحسان بائع لوازم التطريز.

رفعت حاجبيها الرفيعين محاولة أن تحيي ذاكرتها الميتة، وفي النهاية فتحت عينها فجأة وهممت قائلة:

- آه.. نعم.

هزت رأسها ورجعت إلى الخلف وقالت لها:

- تفضلي.

دخلت مبرورة، لكن السائق ينتظر في ظلام الشارع بظله المعوج الأحذب. التفتت مبرورة إليه وقالت:

- ليتك تمر علي غداً.

فهمت نيفين الأمر على الفور، فقدمت إلى الباب وقالت له:

- لا، الآن.. انتظر.

وأرسلت الخادمة إلى الأعلى.

صعدت نيفين مع مبرورة إلى الطابق الثاني، وفتحت باباً مجاوراً الغرفة نومها وقالت لها:

- ادخلي.

ودخلا معاً. أضاءت نيفين النور.. كانت غرفة نوم مفروشة حديثاً جميلة. من أول نظرة تخطف الأنظار لوحتان كبيرتان على الجدار. الأولى للواء يرتدي بدلة رسمية في مجلس، والأخرى لرأس مرسوم بألوان زيتية! سارت مبرورة إلى منتصف الغرفة بخطوات هادئة ممتزجة بدهشة وخجل، ثم عادت.. التفتت إلى نيفين بعين تفيض بالامتنان وشكرتها.. بعدها لم تخف دهشتها، وقالت:

- إلى هذه الدرجة كبرت؟ على الأغلب أصبحت سيدة ناضجة.. أنت سيدة جميلة.

- ماذا عنكِ؟ أنتِ أيضًا كبرتِ.

أغلقت مبرورة عينها عدة ثوانٍ وفتحتها وقالت:

- كم أن الحياة غريبة! كنا صديقتين جيدتين في صغرنا.

تراجعت نيفين بهدوء وتفاخر وضحكت بابتسامة متصنعة،
وأشارت إلى سرير واسع، وقالت:

- استلقي؛ أنتِ متعبة.. نامي جيدًا.. لن يزعجك أحد..
أراك غداً.

وسألتها كأنها تذكرت فجأة:

- جئتِ إلى إسطنبول للتو؟

أجابتها:

- نعم.. الليلة.. كان بحثي عن منزل في الأساس هو
سبب تأخري. أعلم أنكِ كنتِ في تقسيم، ولكنك انتقلتِ إلى
هنا. بحثت كثيراً عن منزل، كثيراً.

كانت مبرورة مرهقة جسدياً وحسياً وفكرياً، فوضعت
نفسها على أحد الكراسي محطمة منهكة، لم تستطع أن تكمل
الجملة. سارت نيفين للباب وقالت لها مجدداً:

- غداً.. أراك غداً، أراك على خير.

وخرجت من الغرفة. عندما بقيت مبرورة بمفردها مالت برأسها ووضعت كفيها على وجهها.. ارتعشت ذراعها، واهتزت كتفها، وانساب شعرها حتى ركبتيها وأخذت تبكي، خلعت ملابسها محدثة نفسها بصوت مرتفع، وقالت:

- كم أنني سيئة الحظ.

وذهبت إلى السرير وغطت في نوم عميق على الفور. في اليوم التالي فتحت عينيها قرب الصباح، وكانت الشمس بدأت تشرق.. نزع غطاءها وجلست على السرير ونظرت حولها بدهشة، وبعدها استلقت مجدداً، مدركة أنها لن تقوى على النهوض. كانت تشعر بألم في جسدها بالكامل؛ عروقهها ومفاصلها، وبفتور وتراخ وكأنه سيغشى عليها. كانت في أمس الحاجة إلى النوم فنامت. عندما استيقظت للمرة الثانية كان النهار قد حل. استمر التراخي في جسدها، لكن لم يعد لديها حاجة إلى النوم، فأسقف الغرفة المزخرفة، وأثاثها الجميل، ونومها الهنيء لأول مرة منذ سنتين، فضلاً عن السرير الواسع، والأغطية البيضاء النظيفة، وشكل الوسادة، وكل تلك الأشياء التي تبعث البهجة كانت تحيها. استعدت من جديد لتعيش حياة جيدة بحثاً عن السعادة برغبة وقوة الكفاح. نهضت من السرير وارتدت حذاءها.. فتحت إحدى نوافذ الغرفة المطلة

على الحديقة.. استنشقت نسائم الصباح المنعشة كأنها ترتوي
بشراب إلهي.. جلست قرابة الساعة أمام النافذة حيث أشجار
الصنوبر العالية الناضجة.. كان كلب جميل ذو بقعة بيضاء
يستلقي تحت الظل الواسع البني لإحداها. راقها متابعة النوم
الهنيء بلا كدر لهذا الحيوان وهو نائم على وجهه ملقياً رأسه
على التراب وذيله معوج.. كان ذا مهابة وهدوء كنمر منهك
عاد لتوه من صراع مُضن. لم تدم هذه الراحة طويلاً.. برز
صوت رقيق من داخل الحديقة ينادي: "نابليون!"، فانتفض
الكلب كأن ماء مغلياً سُكب على رأسه. وقف على قدميه دافعاً
قدميه الخلفيتين إلى الوراء، ساحباً عضلاته المدهشة، ومد رأسه
الذي يشبه رأس الذئب إلى الأمام، وفتح ذراعيه انتظاراً للشابة
صاحبه التي بدت من بين أشجار الصنوبر. ظهرت من
أحد طرق الحديقة المتعرجة برداء نومها الحريري الأبيض الذي
كان يغطي جسدها كالضباب، اقتربت من الكلب فداعبت
وجهه بيدها الصغيرة، وبعد ذلك وهي مستمرة في طريقها
رفعت رأسها إلى أعلى لتسلم برأسها على مبرورة التي تجلس
أمام النافذة، وهمست بشفتيها قائلة: "صباح الخير" فور
أن رأت مبرورة نيفين عادت من عالمها الخيالي الذي كانت
فيه، وبدأت تفكر فيما ستفعله اليوم وغداً، ولمن تلجأ، وأين
ستمكث. لو كانت الهانم في القصر الصغير لأصرت على بقائها

عدة أيام، لكن لأن لها معرفة سابقة بنيفين في صغرها، لم تكن تعرف كيف ستعاملها. دُق باب الغرفة وسط هذه الأفكار، فدخلت الخادمة العجوز ومعها سلة ملابس، ووضعتها على أحد الكراسي وشرحت لها:

- ربما تحتاجين إليها، أرسلت لكِ الهانم الصغيرة بعض من الملابس.

لم تستطع مبرورة سوى قول: "آه"، وظل فمها مفتوحاً، فخرجت الخادمة على الفور من الغرفة. لم تستطع الفتاة الشابة التحرك من جديد.. فمساعدة الصبح هذه كأنها أصابتها بالشلل. أما كانت هذه السلة الحرير الزرقاء القابعة فوق ذاك الكرسي تنزلها منزل القريب أكثر من كونها ضيفة؟ أيمنها قبول هذه المساعدة من نيفين على الرغم من عدم وجود ود بينهما؟ اقتربت من سلة الملابس بتردد.. نظرت إليها قليلاً في البداية، وبعدها مررت أصابعها على قماشها ببطء وفتحتها.. أول ما لفت انتباهها "روب" وردي من القطن الرقيق غير مزخرف، مهلهل قليلاً، على الأرجح هو جديد ومكوي، وبعد ذلك قميص نوم حرير أزرق، ثم فستان مكشوف من الأعلى من الموسلين (نسيج قطني رقيق)، وقميص داخلي ذو شرائط برتقالية من الحرير الصيني، وزوج من الجوارب الحرير السوداء،

وبضعة أشياء أخرى. كانت مبرورة تنظر إلى هذه الملابس النظيفة الجميلة التي شوقتها لنضارة جسدها منذ ستين برغبة حرمتها عليها عزة نفسها. أتقبلها؟ لكنها لن تستطيع الوفاء بنظير هذه المساعدة، شيء مؤسف. من الممكن ردها، لكن لا بد من البحث عن حجة؛ كقول إنها أشياء غير ضرورية لأنها سترحل على الفور، أو أن تشكرها في عجالته، أو أن تذهب وتدع الشك.. رفض المساعدة في حين الحاجة إليها درب من الحماقة! دُق الباب وهي تفكر في هذا، ودخلت الخادمة مجدداً، وقالت:

- الهانم الصغيرة تقول: "مبرورة هانم كأختي، ولتعلم أن القصر الصغير منزلها ولا تحمل همًّا، إن لزم الأمر أعد لك الحمام لتستحمي".. مبرورة في حيرة من أمرها.

أسهبت الخادمة وقالت:

- أنتِ أخت في الرضاعة لزوج الهانم المتوفى، لكنه لم يرد الحديث عنك في القصر الصغير.

أرادت مبرورة التخلص من شفقة العجوز فقالت:

- أعدّي الحمام!

عندما خرجت الخادمة ظلت واقفة أمام الصورة الكبيرة على الجدار.. كانت صورة فايق باشا، شقيق السيد نافع

للسففة، المتشردة المغتربة. حصلت على الراحة التي اشتاق إليها جسدها، والنظافة والجمال اللذين يرغب فيهما ذوقها. بشرتها الشقراء وعيناها السوداء وان ذواتا الرموش الطويلة المنثورة بأحلام مرهقة داخل وجهها البيضاوي قليلاً مع شعرها الأسود الناعم اللمع المنساب كالماء، كان ذلك يعطي لملمحها تناغماً رائعاً. وأنفها الرفيع المعقوف قليلاً يعطيها جاذبية مع كبرياء. ازداد جسد مبرورة باستدارات مثيرة داخل حرير ملابس نيفين لأنها أرفع منها، وأظهر "الروب" صدرها البارز، وخصرها النحيف، وأردافها المتناسقة. ارتدت الحذاء الذي أحضرته لها الخادمة بعد الحمام، وبعد هذا الحمام المغيث ضحت بكبرياء جمالها وخرجت إلى الحديقة، فقابلت نيفين، ويبدو أن الراعية الشابة لم تلاحظ حمام مبرورة. وبالطبع أشارت لمبرورة بلطف هادئ، بقليل من الازدراء، إلى الأريكة في الحديقة.

وقالت لها:

- قلقت كثيراً منذ وقت طويل.. مرّ أكثر من سنة ولم أسمع عنكِ شيئاً.. كانت أُمي تتحدث عنكِ سابقاً، وكانت تقول: ماذا حدث للمساكين هؤلاء؟ وعلمنا أنكِ لست في مانيسا.

أخذت مبرورة نفسًا عميقًا وأجابت:

- نعم، بعدما جاء اليونانيون أرادوا القبض على أبي
بتهمة التجسس، لكنه عندما سمع بذلك ذهب دون أن يخبرنا،
وتركني ومتجره لأحد أصدقائه، ومع ذلك قبض اليونانيون
على صديق أبي أيضًا واستولوا على متجرنا، وكادوا يعتقلونني،
لكنني هربت وذهبت إلى بورصة بشق الأنفس.. مكثت عند
خال أُمي المتوفية غير الشقيق السيد حسين، والسيد حسين
أيضًا.

بينما كانت مبرورة تتحدث وقفت نيفين.. أشارت بذراعها
إلى زاوية في الحديقة وصاحت:

- نابليون! نابليون! ابقَ هادئًا!

عادت إلى مبرورة وهممت بغضب مدلل:

- انتبهت له منذ يومين.. الكلب الوغد يقرض الصنوبر!
إن استمر على هذا فسيقضي على الصنوبر كله في سنة؛ كلب
متمرد!

رأت مبرورة الكلب الكبير وقد وضع رأسه على الأرض،
وهزّ ذيله تحت غصن الصنوبر الناضج بعدما أكل الخبز
واللحم من نيفين. غضبت نيفين وقالت:

- آه، تسألين عن كم التضحيات التي أقدمها لهذا الكلب.. الكافر لا يشبعه اللحم فقط، يشرب اللبن بدلاً من الماء، ويأكل الشكولاتة كالإنسان، ويغضب عندما أنشغل عنه، ويسخط ويجن جنونه. فكرت قليلاً وأضافت: "يفعل ما يفعل.. أنا أحبه.. أحضرته من فينينا".

سكتت مبرورة، فسألت صاحبة القصر الصغير الشابة دون أن تبعد ناظريها عن الكلب:

- هذا يعني أنكِ جئتِ من مانيسا؟

احمرت خدود مبرورة وقالت:

- لا، جئت من باندرومة.

قطعت نيفين حديثها وقامت وقالت بحاجبين مقطبين:

- هذا الوقت من اليوم لا أحبه حتى يحل وقت الطعام. إن أردتِ ندخل لنعزف قليلاً على البيانو.

وقفت مبرورة أيضاً ودخلا إلى زاوية من الحجارة مغطاة ومحاطة بزجاج مغبش وملون. كان المدخل جميلاً، به طاولة حديقة، وكراسي، وعلى الجانبين أصيص النخيل الطويل المنحني، ومضارب تنس معلقة على الحائط.. قالت نيفين وهي تصعد السلم:

- هذا شغف بهيج بالتنس، فهو لاعب تنس ماهر في شيشلي.

ثم وقفت وقالت:

- لا تعرفين بهيج، أليس كذلك؟ أجابتها مبرورة:

- أتذكره عندما كان صغيراً.

- ألم تري صورة له أو ما شابه؟

- لا.

- أوه.. فأنكِ رؤية شاب وسيم!

عندما دخلا الصالون بحثت فوق البيانو وقالت:

- كان يوجد صورة هنا، لكن كنت سأعطيها لجوزيده،

كانت ترغب فيها منذ وقت طويل

وجلست أمام البيانو المفتوح.. وضعت أصابعها ذات الأظافر الرفيعة اللامعة الحادة بأطرافها الوردية التي هرب منها الدم على مفاتيح البيانو.. مدت رأسها إلى الأمام.. فكرت وتمتعت وهمست بملل:

- ماذا أعزف؟ ثم سألت مبرورة بهدوء:

- أتعرفين البيانو؟

أجابتها

- قليلاً.

- أين تعلمتِ؟

- في مدرستي الأمريكية

- أي مدرسة أمريكية هذه؟

- في أزمير.

- يعني كنتِ في أزمير؟

- درست ست سنوات هناك

سحبت نيفين يدها عن البيانو وقالت:

- هيا اعزفي أنتِ إذن.

انحنى مبرورة بكتفيها إلى الأمام واعتذرت:

- لم أعزف منذ سنتين، توقفت أصابعي عن العزف. وأنتِ

أيضاً تعرفين المقطوعات الموسيقية الحديثة. كنا في المدرسة دائماً

ما نعزف المقطوعات التقليدية.

وضعت نيفين أصابعها على مفاتيح البيانو، ومالت إلى

الأمم تجاه النوتة وقالت:

اعترضت مبرورة بصوت متقطع:

- لست رفيعة.

- لا.. أنا رفيعة.. رفيعة.. يروق للبعض هذا الرفع، فهذا الجسد مناسب للرقص، لكن على أي حال أريد أن أزيد في الوزن قليلاً.
نظرت إلى مبرورة وقالت:

- أنت جميلة هكذا، كم أنك جميلة.. ذراعاك وصدرك وأردافك رائعة. هكذا الأمر، وكذلك جسدك الملفوف المتناسق داخل الجوارب الحريرية الواصلة إلى ركبتيك المختلفتين أسفل التنورة عندما تضعين قدمًا على قدم.. كيف أقول لك..
فاتريان (تعني مغرية جدًا بالتركية).

اقترب صوت رجل من الباب:

- نيفين.. أنت في الصالون؟

دخل شاب ووقف عند عتبة الباب، ونظر إلى وجهي الفتاتين المحمرين خجلاً، ثم دخل، متوسط القامة، أشقر، له رأس صغير مدور. كان وجهه دون شارب، وبه تجاعيد من قلة النوم، مع إرهاق ممتع عذب في عينيه الزرقاوين، ويبدو استعداده للكبرياء والتحكم في فكه المستدير الممتد نحو حلقه. سلّم على مبرورة بانحناءات متقطعة وفجائية، وهمس إليها

بكلام لم تسمعه، ونظر على الفور إلى نيفين وقال بصوت مزكوم:

- أتعلمين؟ لعبت البوكر أمس مع سيرات وخسرتِ
وقلتِ له: سأرسل لك صندوق حلوى مع بهيج. أتى سيرات
لي في النادي وقال لي: أين الحلوى؟ لم أهتم، لكن ليت ديني
للمقامرين كان عبارة عن صندوق حلوى، خسرت أمس مئة
ليرة، وأصبحت مديناً بثلاثين.

ضمت نيفين شفيتها مشيرة إلى مبرورة وسألته:

- أتعرف هذه الفتاة؟

مال بهيج نحو مبرورة قليلاً وقال في عجالة:

- لا بد للمرء أن ينظر إليها بتمعن كي يعرفها، ولا بد أن
يفتش في ذاكرته كي يعرفها أيضاً.

وسار بخطوات مضطربة نحو البيانو سريعاً وقال:

- نيفين، ليس لديّ وقت.. أريد نقوداً لأسدد ذلك
الدين، فقد وعدت بذلك.

أجابته نيفين:

- هناك خمس وعشرون ليرة في حقبتني الفضية في غرفة
نومي.. خذها، لا يمكنني إعطاؤك أكثر من ذلك.

- هذا يكفي

قبل أن يخرج بهيج من الغرفة نظر إلى مبرورة وقال:

- ألا نتعرف؟

أجابت مبرورة بابتسامة مرتعشة:

- كنا نلعب لعبة الطبيب معًا ونحن صغار، كنت أنت الطبيب.

- إذن أنتِ المريضة! إن لم أخطئ ابنة عمي غير الشقيق.

أكملت نيفين:

- مبرورة ابنة السيد إحسان، أحسنت، لقد عرفت.

رجع بهيج نصف خطوة إلى الوراء، وقال:

- لكن من أين أتيت.. كيف هذا؟ أ جاء والدك أيضًا؟

أغلقت جفניה، وارتعش صوتها من الكدر: لا، لم يأت، جئت مع المهاجرين من باندرومة.. قبض اليونانيون على والدي في مانيسا.. هربت إلى السيد حسين في بورصة، ولا أعرف أهو محبوس أم قتلوه رميًا بالرصاص أو أطلقوا سراحه؟ احتل اليونانيون المدينة عندما كنت في بورصة، وعند السيد حسين في قونيا.

قاطعها بهيج بسرعة: ليس لديك أخبار عن والدك؟ وماذا عن متجره؟

- استولى اليونانيون عليه!

- وماذا فعلت؟

- قضيت شهوراً عجيبة حتى جئت إلى هنا ليلة أمس، منتصف الليل، وشرحتُ لنيفين هانم وضعي.

- هل يمكن أن يعدموا السيد إحسان؟ مستحيل.. لا توجد أي أخبار عنه.. شيء غريب.. ألم تسألني عنه في الأناضول؟ لم تفعل ذلك؟

- الأناضول مختلطة.. إن ذهبت إلى أي مدينة أو حي تجده مملوءاً بالمهاجرين.. شيء غريب.. ربما إدارة الهجرة بإسطنبول لديها معلومات.. ربما هرب إلى إسطنبول.

كرر بهيج بانفعال: ربما.. ربما.. نعم هذا أمر غريب حقاً.. ربما هرب إلى إسطنبول..

- سأذهب إلى مكتب شئون المهاجرين اليوم وأسأل عنه، يقتلني القلق.. آه، ليتني في إسطنبول!

- نعم.. حتماً..

- نظر إلى أخته: أين يوجد الكيس الفضي في غرفة النوم؟
- أجابته: ابحث عنها، إما في الدولاب ذي المرأة وإما فوق الكرسي.

همس بهيج مجدداً بكلمات اعتراض مختلطة، وخرج من الغرفة سريعاً. نظرت نيفين بأعين هائمة خلف أخيها: مقامر سفیه! وقفت مبرورة، ثم سارت نحو المرأة بسجيتها وقالت فجأة وهي تلامس شعرها بأصابعها بصوت صادق من القلب: آه، كم سأكون سعيدة لو أن أبي في إسطنبول!

وذهبت إلى نيفين وانحنت برأسها: ما رأيك؟ وضعي سيئ، أليس كذلك؟ ليس لديّ سوى أبي في هذه الدنيا ولا أعرف ما به، أيعذبه اليونانيون في جبل سحيق أم أعدموه رمياً بالرصاص؟ آاه

أغمضت عينيها طويلاً وضمت شفتيها ثم فتحت عينيها كأنها استفاقت من حلم: ربما.. ربما هو في إسطنبول.. أو أراد المجيء إلى هنا، لكن لم يجد منزلاً.. ربما هو في خيم المهاجرين الذي يبعد مئة متر عنا.. تخيلي كم أنني قلقة! ضحيت كثيراً فقط لأتحسس أخباره، عانيت الكثير في بورصة، شهرين.. أف.. غريب جداً.

- حدث معكِ شيء ما؟ أتعرضت لاعتداء؟

تشنج وجهها ورقبتها بشدة، ودافعت: لا.. أبداً، لكنني عايشة فقدان أبي، ولا أعرف ما به، واستيلاءهم على متجرنا، كذلك ما عانيت من فقر وعوز ومرض ويأس، ووضع المدينة الكوارث التي لاحقت الأتراك، الصراخ والدموع في كل مدينة وقرية، والكثير، كيف لي أن أحكي؟

تماكنت مبرورة نفسها لكيلا تبكي.. دخلت الخادمة وقالت بصوت مرتفع: الطعام جاهز يا سيدتي.. كانت مبرورة منشغلة أكثر بالطعام.. لم تكن تأكل على الرغم من نقص وزنها في الأيام الأخيرة وكانت تتحدث قليلاً، فهي غالباً أمعنت النظر في المائدة، وأسرعت إلى غرفة نومها وارتدت عباءتها ووجدت نيفين في الحديقة.. عاتبت نيفين مبرورة عندما رأتهما بهذه العباءة: آه نسيت أن أخبركِ، كنت سأعطيكِ عباءتي الرمادية، حكمتها قبل عشرين يوماً ولم ارتدها، اخلعي هذه العباءة وارتدي عباءتي.. ما زالت جديدة.

أجابتها: شكرًا، فاض كرمكِ عليّ.. لست أهلاً لهذا الكرم، وأيضاً أود الذهاب إلى المهاجرين سريعاً، لكيلا أتأخر، أنا قلقة جداً.

- حسناً.. تردينها يوماً آخر.. لا داعي للتعجل، أنا أيضاً أود أن تذهبي وتعودي سريعاً. أنا أيضاً قلقة بشأن السيد

إحسان، وستقلق أُمي إن سمعت هذا.. أحضري لنا الأخبار سريعاً وإن شاء الله ستأتينا بالبشارات.

- آه إن شاء الله. إن علمت أن أبي في إسطنبول سأجن من هذه البشارة!

سارت الفتاة نحو باب الحديقة، وكانت نيفين تنظر إلى سيرها بدقة.. نظرت مبرورة إلى الخلف: ماذا أفعل؟ أحب أبي.. أحبه كثيراً.. وبعدها غاب أحبته حد الموت.

هزت الأخرى رأسها برود: لديك حق، في النهاية هو أب.. وبعدها وضعت ظرفاً مطوياً في يدها الصغيرة لمبرورة وقالت لها بتودد: "أقبل هذا.. لا شك ستحتاجين إليه، اعتبري كل هذا ديناً! وستردينه يوماً ما بعد شهر، أو سنة، أو عشر سنوات.. فهذا لا يهم".

اهتزت يد مبرورة التي تمسك النقود كأنها عاجزة، واهمر وجهها، وارتعشت شفتاها، ولم ترفض، ولم تشكرها، ولم تستطع أن تنفوه ببنت شفة، وخرجت إلى الشارع دون أن تسلم على نيفين أو تصافحها، وركضت بخطوات مسرعة كأن أحداً يطاردها.. لم تكذ تعرف أين إدارة المهاجرين وحزنت لأنها لم تسأل نيفين، لكن كيف لها أن تتذكر في ظل هذا القلق؟ عندما خرجت إلى الشارع نظرت حولها مستغربة صخب المدينة الذي نسيته.

ولأنها لم ترَ إسطنبول منذ زمن؛ سألت عن أي عربة في قطار
الأحصنة تركب، وركبت القطار.

لم تعانِ للوصول إلى إدارة المهاجرين.. أشاروا لها إلى بناء
حجري عند ناصية الشارع مكون من ثلاثة طوابق شاحبة
كوجه مهاجر. وقفت سيارة أمام سياج بابه الكبير، فكان هناك
أناس بملابس رثة، متفرقون، اعتادوا الانتظار وقتًا لا يمر،
جالسون بجوار الجدار في الحديقة التي مروا بها قبل الوصول
إلى واجهة الباب، فكان أغلبهم نساء، وبعضهم رجال يرتدون
بناطيل محلية، وعمامة لجؤوا إلى أسوار هذا المبنى الحجري
المنقذ لتناول لقيمات، وسد جوع معدتهم الصغيرة بحجم
قبضة اليد بعد أن تجاوزوا الجبال الوعرة والهضاب المنحدرة كأن
ظل تنين يطارد هم، وشاهدت النساء قتل أزواجهن، وموت
أولادهن من الجوع، وهدم بيوتهن. ذلك البناء يتكفل بمد يد
العون ليس فقط لمن لجؤوا إلى أسواره؛ بل لمن هم أبعد الذين
ضلوا سبلهم وسط الجبال والبحار أيضًا.. مع هذا، فهناك
تناقض فيما يقدمه من عمل بوجهته الباردة النائية كالقبر!
عندما دخلت مبرورة وجدت نفسها وسط أناس متفرقين غير
مكثرين بوجودهم معًا كحال من هم منتظرون في الشارع، ألا

يوجد مسؤول عن هذه الإدارة، أو حاجب، أو حتى بواب؟ وإن كان هناك، فأيهم؟ الوضع مشتبك لمن تبث همها وتحكيه.. اقتربت من أحد الرجال الواقفين أمام باب غرفة على اليمين اجتمع أمامها الناس وسألته: أنت الحاجب؟ هز الرجل رأسه راقماً مبرورة بنظرة جريئة، وقال: من تريدن؟

- كنت سأسأل عن أمر ما.

- عمّ تسألين؟

- أبي كان في مانيسا.. أعدمه اليونانيون على الأرجح.. أو أنه..

- قسم التحقيق في الكوارث في الأعلى؛ اصعدي إلى هناك، فإذا أعدموه ربما تعلمين هناك.

صعدت مبرورة الدرج ركضاً.. انتهت بها الدرج يساراً، فدخلت غرفة عشوائية.. اقتربت من أحد الموظفين وحكت له همها.. فكر الموظف الشاب قليلاً بعدما أنصت إليها وقال لها بصوت رقيق عذب: في البداية أنتِ سألتِ في قسم التحقيق في الحوادث.. لو كان سؤالك ما إن كان أبوك معروفاً في مانيسا وحدثت له واقعة كهذه، فستجدين معلومات هنا، ولكن إن هرب من هناك وذهب إلى مكان آخر، لن أستطيع أخبرك بأي شيء عنه، وإن أتى إلى إسطنبول تبحثين عنه وتسألين

هنا أيضاً، فالظروف مختلفة، يصعب إيجاد.. يعني أنه مقترن بالمصادفة، ففي هذه الأيام هناك اندفاع غريب من المهاجرين إلى إسطنبول، ومن المستحيل معرفة أحوالهم جميعاً.. تقدرين ذلك. من الأفضل أن تنشري إعلاناً في إحدى الصحف.

أردف الموظف بلطف أكثر: نعطيك الإعلان، ولكن إن لم يتعبك هذا كما قلت لك فاذهبي إلى مكتب المكاتبات؛ بإمكانك الحصول على معلومات باحتمال ضئيل لا يتخطى ١٥٪.. اصعدي إلى الطابق الأعلى، ستمرين بممر ضيق، الغرفة التي على اليسار.. تسألين الحاجب.. ولتأتي إلى هنا مجدداً لنساعدكِ بما في وسعنا.

- أشكرك، شكراً جزيلاً.

صعدت مبرورة إلى مكتب المكاتبات.. حكّت قصتها بالجميل التي بدأت تحفظها من كثرة قولها في قسم التحقيق في الحوادث. نهض على الفور من مكتبه موظف أشقر وسيم جداً، يرتدي نظارة، وأخرج أظرف من خزانة زجاجية في ركن المكتب، وانشغل بالتقليب في كثير من الأوراق نصف ساعة وهمس قائلاً: لا يوجد هنا.. ولا هنا أيضاً.. إحسان، إحسان.. ها هو حرف الألف.. غير موجود.. إن شاء الله لن أجده.. لأن هذه قائمة الحوادث.. والتعذيب.. يتبقى فقط هذا الظرف.. لنر.. إحسا.. إحسا.. السيد إحسان.. حدثها بتهيدة رافعاً رأسه: غير موجود.

لمعت عين الفتاة من الفرح: هو غير موجود؟ آه... يعني أنه على قيد الحياة.

- هذا غير معروف.. لا يمكنني أن أجزم أنه حي.. لكن ما دام أنه من الأشخاص المعروفين في مانيسا وحدث له حادثة كهذه فلا بد أن يكون لدينا خبر بها بنسبة كبيرة ٦٠٪. اتبعيني الآن إذا سمحتِ لألقي نظرة على سجلات القادمين إلى إسطنبول.

تبعته مبرورة نزولاً إلى الطابق الأسفل، وسارا معاً إلى المكتب الذي دخلته في البداية.. عندما رأى الموظف الفتاة نهض من مكانه: لم تجدوه في القائمة، أليس كذلك؟ عظيم.. لنبحث نحن مرة أخرى، ربما نجده في أحد السجلات.. ذهب عدة موظفين في المكتب إلى دفتر كبير بشغف معرفة ما ستؤول إليه هذه القصة التي أسقطتهم في شغف مع مرور الوقت. كل منهم يلقي نظرة على صفحة دفتر مختلف، وكان الترتيب في هذه السجلات وفق التاريخ.. سألوا الفتاة: هل مرت سنة كاملة على اعتقال اليونانيين لأبيك؟

- أجابتهم: اليوم مر على اعتقاله سنة وثلاثة أشهر. سمعت على الفور صوت تقليب أوراق الدفتر، قلبوا في صفحاته بأصابع متوترة: إحسان.. إحسان.. إحسان.. قال أحدهم: يوجد هنا ثلاثة إحسان. اثنان منهم أتيا من أزمير.. وثالثهما من بورنوف.. ربما والدك من بورنوف!

- لا، أبي من إسطنبول، وبعدها ذهب إلى مانيسا.

استمر البحث.. لم تستطع الفتاة الجلوس على الكرسي الذي أشاروا لها أن تجلس عليه. كانت تجول بين الدفاتر كأنها تنتظر خبراً سعيداً.. أرادت أن تقرأ نتيجة البحث في حواسب الموظفين المقطبة، ومن أعينهم المتمعنة. قال أحدهم: يا أخي! هنا اسم أحمد موجود بكثرة، إحسان قليل جداً.. انتفض هذا الموظف فجأة وصاح: وجدته! كاد يغشى على مبرورة من الفرحة.. كان أحد الدفاتر يفيد أن هناك من يدعى إحسان من مانيسا أتى إلى إسطنبول واستقر في أكواخ داوود باشا، كم أن هذه الفتاة مرتبطة بالدها! فهذا يعني أن والدها يبعد عنها بضعة أمتار.. فهو قريب، قريب جداً. يمكنها أن تراه بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة.. سارت نحو الباب من دون أن تتحكم في حماسها.

- قلت في داوود باشا؟ سأذهب وسأخبر الموظفين أنه لا داعي للاستعجال.. كتبوا تصريحاً صغيراً لأحد موظفي داوود باشا بسرعة منقطعة النظير وأعطوه للفتاة. ركضت مبرورة فور أن أخذت الورقة، فكرت كيف ستكون إن ظهر أبوها فجأة أمامها في الطريق حتى ركبت القطار ووصلت إلى داوود باشا.. لم تسعها الفرحة، كان جسدها يرتعش، وروحها تفيض بالذكريات والآمال والرغبات. بدأت تركض في الشوارع التي

وصفوها لها فور أن نزلت من القطار إلى درجة أن البيوت والناس اختفت من حولها، فرأت ظلالاً تهتز في الفراغ.. القدرة على الركض بهذا القدر أدهشتها. أشاروا لها إلى مكان المهاجرين في داوود باشا.. سارت وهي تظهر الظرف الذي في يدها إلى كل رجل يظهر أمامها بخوف، دون أن تدرك من أين دخلت، وبماذا مرت. مرت من بين حشد مزدحم من الناس، وأصوات مختلطة صاخبة. وجدت في النهاية الموظف الذي كانت تبحث عنه.. أعطته الظرف وتوسلت إليه: أكان أبي هنا، منذ سنتين لم يرَ أحدنا الآخر، أرجوك، ادعوه لي! وأضافت: ادعوه لي وأسدِ إليَّ معروفًا، سيكون معروفًا عظيمًا.. ادعوه لي، عزيزي ادعوه لي.. أرجوك كن سريعًا قليلًا...

قرأ الموظف التصريح.. حاول أن يتذكر ببال هادئ، غير مكترث بخوف مبرورة.. همس: إحسان.. السيد إحسان، من مانيسا.. دعا رجلاً كهلاً منشغلاً بتوزيع الخبز بين المهاجرين: تعال عندي قليلًا.

عندما اقترب سأله: هل عندنا من يُدعى السيد إحسان من مانيسا؟ تردد الآخر محاولاً أن يتذكر بجهد وافر عندما رأى وجه الفتاة المتحمس: إحسان من مانيسا.. اسمح لي قليلًا أن ألقى نظرة على هؤلاء.

أتى بعد ذلك ومعه بعض الدفاتر، وقلب في أوراقه الرثة.. بحث كثيراً، ثم أغلق جميع الدفاتر ووضعها تحت إبطه وأجاب: نعم، السيد إحسان من مانيسا.. صاحت مبرورة: أهو موجود هنا؟

- لا ليس هنا، كان هنا منذ خمسة أو ستة أشهر، وبعدها..

- وبعدها ماذا؟ يا إلهي قل لي سريعاً!

- وبعدها ذهب، لكن لا أعرف إلى أين.

اهتزت مبرورة كالستار، فأمره الموظف ممسكاً الظرف في يده ببرود لم يتغير هكذا: اسأل من هم من مانيسا هنا واستفسر منهم عن السيد إحسان واعلم إلى أين ذهب، وأحضر لي الأخبار الآن.

نظر إلى مبرورة وقال: تعالي أنتِ إلى مكتبي.. انتظري قليلاً؛ ستعبين هنا.

حل المساء، وامتلأت السماء بظلال المساء الظلماء الأولى، فسارت مبرورة خلف الموظف. دخلاً مكاناً ذا أثاث بسيط مبثر كحال غرف المديرية المؤقتة كافة.. اتجه الموظف إلى المكتب وأخذ يماطل الفتاة الشابة بأسئلة غير متكلفة، ولم تستمر استفسارات الموظف الآخر طويلاً فأتى وأخبرهم:

ليس لدينا أحد من مانيسا، لكن علمت إلى أين ذهب السيد إحسان، يعمل في مصنع بزيتنبورنو.

- قلت زيتنبورنو؟ أين هي؟

- قبل أن يذهب إلى بكر كوي.. واستقر في شمندفر. بكر كوي.

- هل هو موجود الآن في شمندفر؟

ضحك الموظفان: لن يحدث شيء إن ذهبت غداً يا عزيزتي.. لا داعي للاستعجال، اطمئني إن كان يعمل في المصنع ولا تقلقي. نهضت مبرورة.. فكرت قليلاً ثم قالت: نعم، لا بد أن أذهب غداً.. وذهبت بعد أن شكرت الموظف. وعندما أحضر أحد الحجاب مصباحاً للغرفة انطلقت مبرورة إلى الشارع بخطوات متعثرة، وسارت إلى الشارع، ولم تستطع اتباع رغبتها في الركض. الشارع مزدحم. اجتمع الناس المتعبون تحت أضواء، وتفرقوا بعدها حاملين حقائبهم، وكان من بينهم أيضاً بعض الفتيات. كانت بمفردها داخل عربة النساء بالقطار. لازم صدغها ألم حاد عندما استقلت القطار المتجه من بيازيد إلى حربية مرة أخرى، وتبللت فروة رأسها بعرق دافئ، فكانت حرارتها مرتفعة. وصلت إلى منزلها في شيشلي في حدود التاسعة

والنصف، وكان من بالبيت يجلسون إلى المائدة. انتفضت نظمية هانم من مكانها، وقبلت الفتاة وأمسكتها من يدها ونادت الخادمة: أحضري الملابس سريعاً؛ فمبرورة هانم جائعة جداً.

وسألت مبرورة: أليس كذلك يا ابنتي؟

- مع الأسف لست جائعة؛ تناولت كثيراً من الطعام في الطريق.

- تعبت؟

- نعم.

جلست مبرورة إلى المائدة، وحكت مغامرتها صباح ذلك اليوم. لم يكن هناك أحد على المائدة مع نظمية هانم سوى نيفين، فأنصت الأم وابتتها إلى ما تحكيه مبرورة باهتمام. وعندما انتهت القصة قالت نظمية هانم: أوه، يا إلهي.. الأمل كبير.. نفهم من هذا أن السيد إحسان على قيد الحياة. اذهبي غداً باكراً إلى زيتنبورنو. أجابتها: يا إلهي.. بالفعل.. حتى إنني لن أتمكن من النوم الليلة.

- قلقك بهذا القدر ليس جيداً.. ليس لدي شك في أن والدك على قيد الحياة. وأنت لست غريبة هنا؛ فأنت أيضاً ابنتي.. لتمر هذه الأيام الصعبة. وانظري كم يمكنك الاستمتاع بالحياة في بيتنا. لدينا يوم في كل أسبوع لنستقبل الضيوف، تأتي

الفتيات وما شابه، يتسامرن، ويلعبن، ويرقصن، ويعزفن الموسيقى، ولن تملي. أنتِ أيضاً شابة، والمستقبل أمامكِ بعد الآن.. لا تفوتي فرصة الوجود في تجمعات كهذه، أنا وإن كنت امرأة كبيرة أستمتع بهذه المسامرات. مدت نظمية هانم أصابعها نحو كأس خمر ممتلئ نصفها بضحكة سرور.

- لا يمكنني الإقلاع عنه. ألا تشربين؟ الخمر تذهب التع.

- تصيني بالصداع.

أيدت نيفين مبرورة وقالت: خذي هذا مني، أٌشرب الخمر في وجود الشامبانيا؟ ألا تحبين الشامبانيا أيضاً مبرورة؟

- لم أشربها من قبل.

- ألم تشربها من قبل؟ أمحقة أنتِ؟ أنا لا أصدق.

- نعم.

دخل بهيج ونيفين تهز رأسها من الدهشة، فاتجه نحو المائدة وصاح: باركوا لي!

عندما رأى أن الجميع ينظر إليه باستغراب صاح مجدداً: سريعاً، باركوا لي.. لقد أصبحت رئيساً لمجلس إدارة نادي القمار.. اقترب من كرسي مبرورة ومال نحوها: مساء الخير مبرورة هانم، كيف حالك؟

- شكرًا، بخير.

- مساء أمس عندما ذهبت للنوم قبيل الصبح، خطر ببالي أن أبحث في وثنائقي القديمة، فإذا أجد بين الأوراق سيعجبك؟

- لا يمكنني أن أتوقع.

- صورتك.

قلقت مبرورة: صورة ماذا، كيف تكون؟

- صورة ونحن صغار. ظهرت فيها بملابس رجالية.

- آه.. غريب جدًا.. لا يمكنني تذكر أن لي صورة كهذه.

اندهشت نظمية هانم ونيفين قليلًا: ونحن لم نكن نعرف.

تقطب حاجبا بهيج وهو يجلس بالعكس على أحد الكراسي حول المائدة: الصورة بالأعلى؛ في غرفتي وجدتها مختبئة وسط ظرف الشهادات المدرسية التي حصلت عليها وأنا صغير.

ونظر إلى مبرورة وقال: إن أتيت إلى غرفتي بعد تناول الطعام سترين صورتك في عمر ثلاث سنوات.

لم تتفوه مبرورة بكلمة. قامت نظمية هانم وعرضت عليهم الجلوس في الحديقة، فخرجوا جميعهم فجأة. كان الجو لطيفًا وعذبًا،

وكانت الرياح العطرة التي هبت من بين أوراق الصنوبر الرفيعة تداعب وجوههم. كانت ليلة هادئة بلا أسرار، تهب السعادة أكثر من التفكير. قالت نيفين: تحدث بهيج عن الصورة فتذكرت. التقطت صورة منذ عشرة أيام ونسيت أن أخذها. لأذهب غداً ولأخذها. فلم أتصور منذ ثلاثة أشهر. ترى هل تغيرت؟ همست مبرورة كأنها تحدث نفسها: شيء غريب.. لم أكن أعرف أن هناك صورة لي في الصغر بملايس رجالية، فقلقت. قال بهيج واقفاً أمام مبرورة: إن أردتِ أظهرها لك الآن، تعالي معي.

- أحضرها أنت إلى هنا من فضلك.

- اعذريني، إن صعدت إلى غرفتي لن أنزل مرة أخرى، فأنا متعب جداً.

تدخلت نظمية هانم في الحديث: اذهبي يا مبرورة لتريها وأحضرها لنا لنراها نحن أيضاً.

- حسناً.

نهضت الفتاة ودخلت البيت مع بهيج. كانت غرفة بهيج في أعلى طابق، وتطل على الشارع. عندما دخلا ضغط بهيج على زر فأضيء مصباح كهربائي من بين أوراق مزهرية كبيرة

في زاوية الغرفة. اندثرت الغرفة بضوء أخضر عذب. لم تتفوه مبرورة بكلمة.. وقف بهيج أمام الفتاة وقال لها بلا تكلف: اجلسي! فجلسا بجوار بعضهما على أريكة.

نهضت مبرورة: عزيزي أرني تلك الصورة، أنا قلقة!

لم يحرك بهيج ساكنًا وقال: اجلسي يا عزيزتي، إن كان على الصورة، فهذا سهل، لكنني متعب جدًا.

حينما كانت الفتاة تقف في حيرة من أمرها، مد بهيج ذراعه وأمسك بيد مبرورة فجأة، وبعدها أمسك بذراعيه بجسد الفتاة، وضمها إليه، فسقطت مبرورة، التي فقدت توازنها على الفور على ركبتي بهيج بخفة. وصل بهيج سريعًا إلى شفتي الفتاة التي تمسك بها بقوة، ولكن عند ملاسته شفتيها الدافئتين هزت الفتاة رأسها. ابتعدت بجسمها بعد صدمات عنيفة لذراعيه، ونهضت، وصرخت مغطية يديها وجهها الذي احمر من التمرد: أنت إنسان سيئ، ندمت على المجيء إلى غرفتك، تصرفاتك سيئة وفاسدة وطفولية جدًا.. وأأسفاه عليك! ثم سارت نحو باب الغرفة. ركض بهيج خلفها وأراد أن يستسمحها، فقال بضع كلمات، لكن مبرورة لم تنظر خلفها وخرجت ركضًا كأنها تستغيث من أحدهم. وبينما كانت تمر بباب الحديقة التقت بنيفين التي كانت داخله مع أمها،

وقالت إنه لا يوجد صورة، واستأذنت نظمية هانم وصعدت إلى غرفتها. بعد ذلك بقليل نزل بهيج على الدرج بتوتر قليلاً، فقابل هو أيضاً أمه وأخته. نظرت نظمية إلى وجه ابنها بتمعن وقالت: بهيج، إلى أين؟

- ذاهب إلى الحديقة.

- وما السبب؟

- أشعر بالملل.

- سفيه.. يبدو أنك أزعجت مبرورة!

لم يتفوه بهيج بكلمة، فواصلت نظمية هانم مبتسمة: أول أمس مرة، واليوم مرتان، ما هذا التعجل يا بني.. هل غضبت؟

- نعم.

- أحسنت الفتاة.

استمعت نيفين إلى هذه المحادثة بعيون شيطان تلمع في الظلام متكئة على جدار الدرج، فابتسمت، فوسوست في أذن أمها: لا تقلقي، نحن أيضاً نهتم لأمر هذه الهانم الصغيرة. أسبوع فقط.. لا أكثر.. وقالت وهما يصعدان الدرج: لن يستمر حتى لأسبوع.

خرجت مبرورة باكراً صباح اليوم التالي. كانت أمام المصنع قرب الساعة العاشرة، سألت واحداً ممن ظهرُوا أمامها عن السيد إحسان من مانيسا. فكر الرجل فأجابها أنه يعرف أحدهم يُدعى إحسان، ولكن لا يعرف من أين، فسارت.. اقترب من مبرورة عامل من بعيد وسألها عما تريد، وأجابها مثل من سبقه: لدينا من يُدعى السيد إحسان، خراط، لكن لا أعرف من أين هو.

- منذ متى وهو يعمل هنا؟

- منذ اثنين وعشرين عاماً.. يئست مبرورة: ألا يوجد إحسان غيره؟ أمتأكد؟ أتعرف كل عمال هذا المصنع الكبير؟
- والله لا أعرف، إحسان الذي أعرفه خراط، لكن اسألي الكتبة بالداخل مرة أخرى.. سألت مبرورة الكتبة أيضاً، فقالوا هم أيضاً: لننظر إلى الدفاتر. لم يطل البحث في الدفاتر.. من الواضح أنه قبل عدة أشهر كان هناك من يُدعى إحسان من مانيسا قبل في التوظيف بناء على توصيات إدارة الهجرة، لكن هذا الرجل ترك المصنع منذ عشرين يوماً. كانت مبرورة تريد معرفة السيد إحسان هذا على الأقل. أهو أبوها، أم لا؟ على الأقل تعرف هذا.. قال لها الموظف: أتعرفين كم مئة عامل يعمل هنا؟ أيهم يظل شكله عالقاً بالذاكرة؟ وكذلك هذا الرجل عمل هنا قليلاً.. أتى ورحل، فهو ليس عاملاً قديماً.

- ألا يوجد من يعرف؟

- نسأل.

اختفى الموظف عن الأنظار، وبعد ربع ساعة قال لمبرورة التي تنتظر على الطريق: "يقال إنه متوسط العمر، شارب كثيف، ضرب البياض شعره". ظهر في بالها وجه أبيها كصورة. لم تذكر أن هناك بياضاً في شعره. لم ير الموظف داعياً للوقوف معها أكثر، فتركها بمفردها وذهب.

فقالت لمبرورة وهي خارجة من المصنع: ربما المصائب هي من شيت شعر أبي المسكين.. لكن إلى أين ذهب؟ في أي أركان إسطنبول يجب البحث عن السيد إحسان الغامض هذا؟ قررت على الفور الذهاب إلى إدارة المهاجرين ونشر إعلان في الصحف. عادت إلى إسطنبول وقلبها مطمئن باتخاذ هذا القرار. ذهبت إلى إدارة المهاجرين وشرحت ما توصلت إليه للموظفين الذين لطالما عاملوها بلطف. عندما عادت إلى شيشلي قالت لها نيفين: آه.. لا ترهقي نفسك.. لو والدك في إسطنبول اذهبي إلى إدارة المهاجرين وأخبريهم بهذا، لكنّ هناك أمراً مهماً الآن.. غداً يوم استقبال الضيوف، ويصادف أيضاً يوم مولدي. الأصدقاء جميعهم سيأتون.. تجهزي أنتِ أيضاً.

- ماذا أفعل؟

- سأعطيكِ ملابس لم أرتدها.

ذاك اليوم انشغلوا بتجهيز الملابس حتى المساء. بعض ملابس نيفين لاءمت مبرورة. قرب المساء خرجت نيفين لزيارة أحدهم، ونظمية هانم لم تكن في القصر الصغير. ذهبت مبرورة إلى الصالون وقضت الوقت بالتقليب في صفحات مجلات الموضة. حينئذ دخل بهيج عليها فجأة.. سار بحذر.. كان يضع يده اليمنى على خصره.. يبدو أنه متوتر: مبرورة هانم، نيفين ليست هنا؟
- لا، خرجت.

- كارثة.. التوى خصري وأنا ألعب التنس، أصيب، يؤلمني بشدة.. لا بد أن يُدلك بالكولونيا، ماذا أفعل؟
ترددت مبرورة، فأسهب: هو يؤلمني إلى درجة أنني سأبكي.
يوجد كولونيا في غرفتي، لكن من يدلّكه لي؟ ألا تسمحين؟

أمن الممكن أن تنسى مبرورة حادثة ليلة أمس؟ فطن بهيج لتردد مبرورة فحاول أن يزيل شكوكها: تأكدي أنني سأبقى مهذبًا، ترين أنني مجبر. انتقم القدر لك، فكري؛ فأكثر جزء سليم من ذراعي يؤلمني بشدة. وافقت الفتاة.. وهما يصعدان إلى الغرفة خلع بهيج سترته، وشمر عن ساعده ومدّه: هنا.. هنا.. انظري كم أنه محمر!

سكبت مبرورة بضع قطرات كولونيا على جرح يده.
 أمسكت خصر بهيج، بدأت تدلكه ببطء حتى كوعه. تنفس
 بهيج نفساً عميقاً، ومع كل نفس يرمقها ويعتصر شفثيه قائلاً:
 يا إلهي.. أنا غالباً أتحسن. آه.. دلكي.. قبضات مبرورة الدافئة
 وبشرتها تتمدد ذهاباً وإياباً على ذراعه العارية المبتلة بطبقة من
 الكولونيا السائلة. كلاهما لم يتفوه بكلمة.. بمفردهما في الغرفة..
 أنفاس بهيج القصيرة المتقطعة المضطربة مسموعة.

توقفت مبرورة قليلاً: ألا يكفي؟

توسلها بهيج: أكثر قليلاً.. أكثر قليلاً.. عادت الحياة إلى
 خصري من جديد، أشعر بالراحة.

خرجت مبرورة على الفور بعدما دلكته قليلاً. حدث نفسه
 رامقاً ظل الفتاة الهائم: لعبت جوزيده هذه اللعبة في السابق.
 لا بد للمرء أن يجعل النساء تدلك له جسده عندما يلزم الأمر.

في صباح اليوم التالي أعلنت الصحف كلها عن والد
 مبرورة، فأحضرت الفتاة الصحف جميعها إلى القصر الصغير
 وألقت النظر على كل واحدة منها بتمعن.. أخذت تقرأها في
 الحديقة مراراً نصف ساعة. لم تسطع مفارقة الصحف بحال،

وبعدها قليلاً أمسكتها نيفين التي اقتربت منها من ذراعها وأخذتها في زاوية وقالت: سئمت من الصحف، كم أنك قلقة، أنسيت أن اليوم هو يوم استقبال الضيوف، ولا بد أن أذهب إلى الحمام على الفور؟ سيحضر المدعوون بعد بضع ساعات.

أخذت مبرورة إلى غرفة نومها، وكان ستار يفصل طاولة الحمام عن غرفة النوم.

مرا أمام المرأة.. قالت نيفين: هناك أهمية للحمام في حياتكِ الجديدة هذه.. لا بد أن تعرفي تفاصيلكِ. ركزي الآن.

وبدأت تدهن وجهها حتى أذنيها بطبقة من مسحوق التجميل، ومررت أطراف أصابعها على بشرتها لتشربه، أخذت مسحوق التجميل من فوق حجر الرخام، ووضعت منه في يدها ولطخت جفونها بقوة، وبدأت توزعه بأطراف أصابعها، ودهنت جفونها، ومحاجر عينيها، ورموشها باللون الرمادي. كانت تخفف المسحوقات من الأماكن التي تراكمت فيها البقع بقطرات الكولونيا، ومررت قلم التلوين بين جفونها. تراجعت أمام المرأة، ونظرت إلى نفسها، ورفّت عينيها، وبعدها أخرجت من صندوق صغير مسحوق أبيض رقيق، ووضعت القليل بالفرشاة على الأماكن التي دهنتها وقالت لمبرورة: لو لم تضعيها عليه لن يظهر اللون طبيعيًا، جميع ممثلات أوروبا

يستخدمن هذا اللون. طحنت بأطراف أصابعها مسحوق التجميل، ووضعة على طرفي أنفها إلى نهايتها ظلاً خفيفاً غير واضح من مسحوق الوجه. وكذلك وضعت أحمر الشفاه على شفتيها وخديها، ودهنت رأسها كله من جبهتها حتى صدرها ورقبتها بطبقة خفيفة من مسحوق الوجه. وفي النهاية بللت قطنة بقليل من الكولونيا ومسحت بها الأجزاء المدهونة أكثر في وجهها، محاولة أن تخفف لونها، ووزعت بقع الألوان ومسحوق الوجه والكحل المجتمع بشكل غير طبيعي هنا وهناك. رمشت عيناها.. كانت ترمق نفسها وتميل برأسها يمينا ويسارا كرسام يشاهد لوحته على بعد خطوتين، وفي النهاية وضعت المسكرة على رموشها بالفرشاة، فجعلت رموشها منتصبه. صبت العطر على يديها وأخذت تبلل جميع أجزاء جسدها العاري من بين فستانها، وأسفل إبطها، وصدرها، وخصرها، والأجزاء السفلية حتى ركبتها. جلست على الكرسي، وأخذت تلمع أظفارها نصف ساعة. وبهذا لم يعد هناك جزء من جسد المرأة الشابة طبيعياً، لم يتعرض لهجوم الوسائل الصناعية واستحواذها. تراجعت الطبيعة في جسدها من قدمها إلى مفرق رأسها.. فقدت المساحيق لمعانها ورائحتها ولونها تحت الماء المعطر، واختفت. لم يدهش ذلك مبرورة. فكم صادفت في الشوارع نساء كهذه، كانت تنظر باشمئزاز إلى محاجر عيونهن السوداء التي

تشبه المحبرة الصغيرة، ووجوههن البيضاء كمن مسه الصرع،
وشفاههن ذات اللون الأحمر الداكن المنفر. كانت تشعر بحاجة
إلى إيقافهن في منتصف الشارع وتصرخ في وجوههن قائلة:
ترغبين في التجميل، ويا للأسف، فتظهرن بمظهر مقرف، فالنظر
في وجوهكن مُنفر!

بعدما أنهت نيفين الحمام قالت: هيا أتى دورك.. لكن حمام
مبرورة كان قصيراً وبسيطاً إلى درجة أنه عصب نيفين.. كانت
ترى هذا الوضع عدم اكتراث للجمال. ليحدث ما يحدث،
فقد حافظت مبرورة على لونها الطبيعي، ونضارة بشرتها.
وكالعادة، فإن ملابس نيفين التي لم ترتدها كثيراً ولم تعرفها
ناسبت مبرورة كثيراً.

سيبدأ استقبال الضيوف في السادسة.. تجول نيفين في الصالون
متوترة، تغير أماكن بعض المزهريات الصغيرة واللوحات
والتماثيل، فتجلب أشياء صغيرة من الغرف الأخرى؛ رغبة
منها في تغيير المشهد المعتاد للصالون، وأمرت بسحب الطاولة
الموجودة في منتصف الغرفة إلى أحد الأركان، وكذلك برفع
السجادة من على الأرض، ومسح الأرضية المؤدية إلى الحديقة
وتلميعها. كان كل شيء جاهزاً في الخامسة. أول من جاء من

المدعوين هو سيرات، خرج إلى الحديقة واضعًا ذراعه في ذراع بهيج، يدخن الهافانا، وكانت بدلته البنية غير مكوية، وملابسه غير مهندمة. قال لبهيج: "ما كنت سآتي اليوم، كنت سأذهب إلى القصر الصغير لأنام. فكنت غاضبًا من نيفين، لأنهما لم تشتري حلوى الكستناء لنا. يا عزيزي أود أن أخبرك بأمر، من الآن سئمت من عزومات الشاي، والاحتفاء بالذكرى، ومن الاحتفالات. الوجوه نفسها، والحديث ذاته، والألعاب نفسها والحمائم.. فلا يوجد إبداع جديد، ولا متعة، أو وقائع.. أوف.. أريد السفر قليلًا.. وافقه بهيج الرأي: لديك حق، فوضعي كذلك، غير أن هناك خطبًا صغيرًا؛ حدثتك عن مبرورة، أليس كذلك؟

- لا أتذكر كثيرًا.
- حسنًا.. حاولت التعرض لها مرة.
- وماذا؟
- رفضت.
- وماذا بعد؟
- جعلتها تدلكني أمس بحجة أن ذراعي تؤلمني من لعب التنس.
- وفعلت؟

- بالطبع نعم.
- وقعت إذن!
- لا يبدو أنها ستسقط بسهولة. عنيدة، لكن ممتعة.
- لنرها إذن يا صديقي.
- كانت تتجول هنا منذ قليل. ستأتي على كلِّ، ربما تتصرف معك بإذعان.
- هي تقرب لك، أليس كذلك؟
- لم أكرث. هي ابنة أخ لأمي من الرضاعة. كم أنه أمر معقد.. وأخبرتكم كيف أتت من الأناضول؟
- وأسهب بهيج ناظرًا إلى مبرورة التي بدت من خلف باب القصر الصغير: ها هي ذا ظهرت حببتنا، انظر جيدًا، الانطباع الأول الذي تتركه قوي جدًا، قل لي رأيك الآن.
- أجابه دون أن تتغير ملامحه بعدما رمق مبرورة بطرف عينيه: رائعة المظهر.. عيناها ووقفاتها جذابة. جسدها ليس سيئًا، هي ممتلئة إلى درجة أنها تغمرك في حضن.
- ستأتي إلى هنا، أود أن أعرفها بك، كن لطيفًا أكثر.. لنر ماذا ستفعل؟

اقتربت الفتاة. وكانت تبدو عليها دهشة خفيفة أقرب إلى التردد والخجل والخوف، فقالت لبهيج: تدعوك نيفين إليها.. هي حزينه لوقوفكما في الحديقة.

أشار بهيج على الفور إلى سيرات: أريد أن أعرفك بصديق عزيز: السيد سيرات من بنك المدينة.. وإن صح التعبير؛ ابنة خالي غير الشقيق مبرورة.

أتت عينا مبرورة في عين سيرات على الفور، وهزت رأسها بلطف. أخذ سيرات ناصية الحديث: يمكننا أن نقول إنني جئت لأنال شرف التعرف إليك فقط، لأنني كنت مريضاً قليلاً، فكنت سأذهب لأستريح. سمعت كلام أصدقائي يتحدثون عنك منذ بضعة أيام.

قالت الفتاة فقط: شكرًا، أنت تحب المبالغة..

وبعدها نظرت إلى بهيج: لنصعد إلى أعلى، أليس كذلك؟ فوافق الشابان، نيفين التي ما زالت تقضي وقتها في تغيير أماكن التحف في الصالون عندما رأت سيرات رفعت حاجبيها، ومدت شفتيها، وقالت بصوت رقيق مصطنع: ما شاء الله أيها السيد الصغير! عندما شرفتنا بالمجيء، ألم تشفق وتأت إليّ لتسلم عليّ، أم أنك جئت لزيارة الصنوبر في الحديقة؟

- كنت أتحدث إلى بهيج، ولكن قلبي كان معك.
- صحيح، فمك ممتلئ بالكلام، أصداغك امتلأت!
- أمسك سيرات يد نيفين مقترباً إليها.. أرد تقبيل يدها:
ساعحيني.
- قالت: تراجع يا عزيزي، أنت سيئ اليوم. انظر..
جئت لدعوتي بأي ملابس. أجيء إلى مقهى؟
- أنا مريض عزيزي، لست على ما يرام، لم أكن لآتي،
لكنني فكرت أنك ستحزنين لهذا.
- حسناً، حسناً.. هذا جيد.. نظرت نيفين خلفها.. هناك
صوت خشن، وآخر رقيق، وجلبة قادمة من الردهة.. قال
بهيج: أتى صالح وبيلا..
- دخل رجل وامرأة متحررة مدللة قليلاً، وكان كلاهما
مهندم. كانت الفتاة تسير بسرعة، تضحك، وتصفق، ومن
خلفها الشاب يهز كتفه رافعاً حاجبيه. ركضت الفتاة نحو
نيفين وارتمت في حضنها، وقبلتها من خديها، وشرحت دون أن
تضيع وقتاً للرجل بجوار نيفين: "أتعرف ماذا حل بنا؟ سرق
النشال محفظة صالح في النفق. ضحك بهيج وسيرات، وقال
بهيج: حزن النشال أكثر من صالح بهذه الفعلة؛ لأنه...

- أكمل سيرات: لأنه تعرض لخيبة أمل.

سار صالح متبايلا ويده في جيب بنطاله، ورأسه منحني، وحاجباه مرفوعان غير مكترث، اقترب وبعدهما أخرج صوت "تيسسس" .. عاضاً على أسنانه حكى قائلاً: ما قالوه صحيح، سينفجر اللص غيظاً عندما لن يجد ما لاً في محفظتي.

وكان صالح سيكمل، لكن نيفين عرفت مبرورة بالضيفين الجديدين .. حينها عرفت الفتاة أن صالح وبيلما أخوان، مع أنهما يُشعران من يراهما بأنهما زوجان .. بنطاله الثقيل الضيق، رابطة عنقه المعوجة على شكل فراشة، وربطها سريعاً دون اعتناء، وشعره الأشعث، كل هذا يعطي صالح هيئة المجدوب. تصرفاته العبيثة، وهراؤه يقوي هذا الشعور. أما بيلما فملا بسها القرمزية ووجهها المخضّب وحذاؤها ذو الكعب العالي جداً مع جسدها المتحرك دون توقف أمّنت لها أن تكون غريبة مثل أخيها.

قالت لبهيح: يبدو أنك وضعت كثيراً من مسحوق الوجه على وجهك، أقول إن وضع الرجال مسحوق الوجه يعصبني، ألا تفهم؟

تدخل صالح وقال: الرجال لا يضعون مسحوق الوجه، لكن التكحل سنة. كان هناك كاتب مات بمرض رئوي، أصدر كثيراً من الصحف تلك، ذكريني باسمه يا إلهي .. لا

أذكر.. على كل، هذا الكاتب المسكين كان يضع مسحوق الوجه من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، ويضع الكحل في عينيه، ويغطي شفتيه بأحمر الشفاه، وكان يتجول بهذه الهيئة في شارع الموضة، فقد رأته عدة مرات. تجهمت النساء.

فأسهب صالح: ألم يعجبكم؟ أصبح الرجل مثل كرة من نور. شفاته مستديرة حمراء كالتوت، لونها فج، وشاربه صغير كسمكة أنشوجة. يسقط كل يوم امرأة جديدة. لا يوجد فندق لم يدخله دون امرأة. يخرج إلى الشارع دون طربوش، لكن لا يخرج دون امرأة. طفل ماكر. دخلت نظمية هانم في هذه اللحظة من الحديث.. اقترب سيرات بضع خطوات منها وسألها: لنعرف رأيك ولو لمرة سيدتي، وضع الرجال للبودرة والكحل والأحمر أليق أم لا؟ كانت نظمية هانم جميلة، ولها جلاله داخل ملابس من الصوف الأسود بجسدها النضر المتوتر.. نظرت إلى وجوه الضيوف بعين الاستهزاء وتبسمت: انتهت مشكلاتنا الآن ولم يبقَ سوى هذا؟ ألم تجدوا حديثاً غير هذا؟

صاح من بجوارها: رأيك.. قولي رأيك!

- من رأيي أنه إن كان وضع مسحوق الوجه والكحل يليق بالرجال فلا يمكن أن يُعاب على الرجل الذي يتزين هكذا. لكن المضحك هو المرأة التي تتزين بهم ولا يليق بها.

أتعجب من الفتيات هذه الأيام، بعضهن يضع طبقات من مسحوق الوجه فتصبح بشرتهن بيضاء كالمصاب بالسل من الدرجة الثالثة.

قال بهيج: تعلمن من الروسيات!

أسهت نظمية هانم: يمكن للرجل أن يفعل أي شيء يليق به. والمرأة كذلك. لو رأيت رجلا يرتدي تنورة قصيرة وبلوزة سأنظر إن كان هذه الملابس تليق به أم لا.. إن كانت تليق به لا يمكن أن أعيبه، وإن لم تكن فساأضحك. أطلق صالح ضحكة مجلجلة: سلمت يا نظمية هانم.. هذا هو الكلام السفهية! كانت نيفين ستعترض. حينئذ دخلت فتاة محمراً وجهها، لامعة عيناها، راكضة كحمل تقفز باستحياء وشوق. نضارة وجهها، وخفة جسدها ورشاقتها، وسرعة وليونة حركاته كانت تظهر أنها فتاة ارتدت عباءة جديدة وعمرها صغير. ويوجد بعينها لمعان يوضح أنها تنظر إلى الحياة بشعور حماسة الشباب. صفق سيرات فور أن رأى الفتاة: يا إلهي.. ها هي ذا أتت جوزيده. انظروا كيف احمر وجهها كالبرقوق.. لا بد أنها تحمل لنا أخباراً. رفعت جوزيده رأسها وهزتها كأنها خرجت من الماء، وأرادت أن تلقي نظرة ذات معنى إلى سيرات.. صرخت بصوت طفل يرتعد جالسة على أحد الكراسي: لم أجلب أي أخبار.

تعقبني جندي يوناني، أتى حتى باب القصر الصغير، وقال كلمات باليونانية، ركضت لأتخلص منه، غالباً كان يخيفني. صاح صالح: يا له من غراب.. أخاف عصفوراً.. نظرت مبرورة إلى الفتاة التي أتت لتوها، لم تغض بصرها عن أي حركة لها، فسألتهَا نظمية هانم: أين والدتكِ جوزيده هانم؟

- ستأتي والدتي بعد قليل سيدي. نزلت من القطار في جالطة سراي، تركتني، لديها بعض الأعمال.. همس سيرات الذي يجلس بجوار بهيج إلى صديقه: من تنتظر أمها في جالطة ساراي؟ قل لي لأرى.

- لا يمكنني أن أتوقع.

- تتوقعني!

- لا أتعجب.. هذه السيدة أقسمت أنها لا يمكنها العيش دون رجل. بعدما أصبحت عشيقة صالح صديقنا، فهي الآن عشيقتك هيا.. اقترب صالح من الرجلين بعد أن سمعها يتها مسان باسمه: ستدبران أمرا من جديد، لكنني لم ألاحظ.

انسحب الثلاثة إلى ركن. أمسك بهيج صالحا من ذراعه دون تكلف وقال له: يا عزيزي، احك لنا أولى مغامراتك مع أم جوزيده هذه..

ضحك صالح مقهقهًا بعد أن تراجع برأسه كأن عنقه تمدد إلى ضعف حجمه: آه.. تلك المسألة.. يا عزيزي هي قصة بسيطة جدًا، أفضل النساء المسنات؛ فلا يرغبن في الهدايا، ولا يبحثن عن ملابس رائعة، ولا يعاتبن، ولا يغيرن أكثر من اللازم، فيتحملن الهجر، ويعرفن كيف يأسرن القلوب، وفوق كل ذلك لا يغضبن.. وناجية هانم خير مثال على هذا. أتت في أول دعوة لها في بيت مدام بانايوتا فتجردت من ثيابها دون معاناة، وأصبحنا صديقين حميمين.. أصبحت تمنحني من حين إلى آخر أيضًا..

فتح سيرات عينيه وسأل: ماذا تمنحك؟

- المااااا..

- وأنت فعلت.. صحيح..

- بالطبع.. كنت أحصل على ليرتين في كل لقاء، فماذا ظننت! كانت تعطيني مصاريف الطريق.. والغرفة، والسيارة، والتجول، حتى مصاريفها الشخصية كنت أتولها.. وأغرب من ذلك.. وجدت لها ذات يوم زبونا غنيا، فحصلت على عشرين ليرة عمولة!

همس سيرات: رائع.. هذا رائع. وقال: من الجيد أنني لم أذهب. اجتمع النساء حول نيفين أمام البيانو، وبدأت الفتاة

تعزف مقطوعة (رجلي) مجددا. اقترب الرجال من البيانو. أخذ بهيج بيلىما بينما صالح أخذ جوزيده ليرقصوا معا، فمال سيرات نحو مبرورة وعرض عليها، فانضما إليهم، وأخذت نيفين تعزف المقطوعة بشغف أكبر. كمثل كل مشاهد الرقص، كان الرجال أكثر توترًا وتؤدة وقوامه، في حين كانت النساء أكثر ليونة وخفة، فأحيانا تتمدد تنوراتهن من وقع الرياح، وأحيانا أخرى تعود كاللبلاب لتعانق دعائم أقدامهن الناعمة، فكن يشبهن الدمى الورقية التي تطير في الهواء مفرغة من الداخل. وبعد ذلك بقليل دخلت ناجية هانم الصالون ومعهما رجل بجوارها، لكنها جلست على الأريكة بعد أن سلمت على نظمية هانم فقط إلى أن ينتهي الرقص، ونظرت إلى من يرقصون بعين فرح وسرور. عندما انتهى الرقص سألوا عمن أتى حديثا. فنادر فقط هو من لم يأت من المدعوين، فأوقدوا المصابيح لحلول الظلام. بدأ اجتماعهم بصمت. لم يأخذ أحد مقالات حديث تجذب انتباه الجميع. التف البعض حول البيانو ببطء وناجية هانم والرجل الذي معها على الأريكة، فتفرق المدعوون إلى مجموعات في زوايا أخرى من الغرفة. تتحدث نيفين وجوزيده وبيلىما أمام البيانو، وكان صالح ونظمية هانم بجوار ناجية هانم والسيد نظام الدين. اقترب بهيج وسيرات من مبرورة التي بدا أنها تجلس بمفردها في زاوية على الكرسي

تفكر. تحدث سيرات إلى بهيج: رقص مبرورة هانم جميل جداً. يمكنني أن أقول إنه لا يوجد من يرقص جيداً مثلها بين هوانم إسطنبول. وبالطبع أخبرتهما مبرورة بتواضع معتاد أنها لا تجيد الرقص، وأنها تعلمت الرقص القديم في المدرسة، والحديث في منزل بعض صديقاتها عشوائياً.

قال بهيج: جسدك ملائم جداً للرقص. فليس رفيعاً ليسيل كالماء، وليس سميناً ليفقدك توازنك، هو متناسق تماماً!

شبكت نيفين ذراعها في ذراع سيرات.. رغبت في أن تبعده عن مبرورة، لكن لأن الشاب اعتاد الاستفادة بغلظة من لحظات ضعف النساء، لم يتحرك. ومن الناحية الأخرى شبكت بيلما ذراعها في ذراع بهيج مثل نيفين تماماً.. كانت ترغب في إبعاده عن مبرورة. تأزم وضع مبرورة ففضلت الابتعاد عن هذا الجمع لكيلا تحزن صديقتها العزيزة نيفين. سارت نظمية هانم نحو هذا الجمع. فور أن رأت ابتعاد الفتاة، رمقت بيلما سيرات بنظرات الامتناع وقالت بلهجة متعصبة غاضبة ودقيقة: ومبرورة أيضاً أم ماذا، هذه الفتاة البلهاء كالغنم تزعجني.. وأنت تصطحبها أمامك وتثرثر معها.

تدمرت بعد أن اشتمل حديثها بهيج أيضاً وقالت: أأستما رجلين.. ذوقكما وضيع.. قهقهه الرجلان. أيدت نيفين بيلما:

لديكِ حق.. ففي عليّة القوم الاجتماع حول شخص وترك باقي الضيوف عيب. تصرف سيرات بجديّة وقال: وأنتِ أيضًا يا عزيزتي لا تتجاوزي قواعد السلوك.. فقد مرت دقيقتان على حديثنا معها أو لم يمر. عرض بهيج لعبة لتجاوز هذا الحوار عديم النفع، وكان من الألعاب التي يلعبونها في الصالون أن يخرج أحدهم يكون عليه الدور، ومن بالداخل سيقولون كلمة كلمة واحدة إما له أو عليه، وتُكتب هذه الكلمات على ورقة، وتُقال عندما يدخل من عليه الدور، فإن عرف مَنْ قال كلمة من هذه الكلمات يخرج مكانه، وهكذا تستمر اللعبة. وتكمن أهمية اللعبة في أنها تظهر كيف يفكر الجميع فيمن يكون عليه الدور، ويبدو هذا ضربًا من الانتقاد والمزاح أيضًا. كل منهم قال كلمة، وكتب صالح. وكانت كالتالي:

سيرات - مزهرية

بهيج - زهرة المنغولية

نظمية هانم - ملاك

نجمية هانم - جماد

بيلما - مومياء

نيفين - عديم الحيلة

جوزيده - مجهول

صالح - بهيمة صغيرة

السيد نظام الدين - آلهة

عندما دخلت مبرورة قُرأت لها الكلمات، وعندما أتوا عند (مومياء) لم تعرف من قال الكلمات، لكن علمت أن كلمة (مومياء) قالتها بيلما فخرجت بيلما. عندما خرجت بيلما لم تكن أي من الكلمات في صالحها.. قال سيرات وبهيج كلمات بغیضة. فقد جعل صالح جميع المدعوين يكتبون كلمات سخرية. فقط كانت مبرورة لطيفة فقالت: فتاة جميلة.

استمرت اللعبة حتى تجهيز الطعام. سيتناول المدعوون جميعهم الطعام هناك، ويبقون إلى المساء، وسيخرجون في نزهة في الحديقة بعد تناول الطعام. شبك صالح ذراعاه في ذراع نظمية هانم، والسيد نظام الدين مع ناجية هانم، ومبرورة مع جوزيده، وسيرات مع بهيج، ونيفين مع بيلما. هذه الثنائيات اختلفت في طرق متنتظمة بين أشجار الصنوبر، وخلا بعضهم إلى بعض بأحاديث جانبية.

مال صالح إلى أذن نظمية هانم وقال: نلتقي هنا مساء بعد أن يخلد الجميع للنوم، يا حلوتي أيمكن هذا؟

- أجابته: أخشى ذلك.

- لن ألتهمك يا عزيزتي، وإن فعلت فسألتهم جزءاً من جسدك وأترك لك الجزء الآخر.

سارت نظمية هانم بخطوات صامتة خاضعة مائعة داخلها أحلامها. أصر صالح: ستنتظريني، أليس كذلك؟ انسلي أسفل شجرة الفستق هذه بعدما ينام الجميع. ستكون الأجواء معتمة، ولن يرانا أحد، فلا تقلقي.

أعادت عليه نظمية هانم بحكمة: قلت لك أخشى هذا.

- مم تخافين يا عزيزتي؟ ستكون الأجواء معتمة..

- لا، لا.. لنذهب غداً إلى غرفة مدام بانايوتا، هناك أفضل.

- أف.. أشعر بالحكة هناك، ألم تري حال السرير؟ بقع الدم منتشرة كابن عرس.. شيء مقزز.. دعك منه.. انزلي الليلة إلى أسفل.. أرغب في هذا، ولا تتأخري!

لم تنطق نظمية هانم ببنت شفة. ففي حين كان يظهر في عينيها إن كانت رافضة، أم موافقة أم تدل، أم خائفة حقاً، كان الظلام المخيم يبعث الظلام في عيني صالح الحادثين. وعندما أصر أكثر وعدته نظمية هانم في لمح البصر وقالت "سأتي".

دخل بهيج مع سيرات في مساومة مهمة. شبك بهيج ذراعه في ذراع صديقه بود بالغ وقال: سأحاول مرة أخرى الليلة. سأذهب إلى غرفتها الآن وأترك لها كتاباً، وبعدما يخلد الجميع إلى النوم مساء سأدخل إلى غرفتها أقول: أنسيت كتابي هنا؟ وأنقض عليها مرة أخرى.

- بنسبة كم في المئة متأكد أنك ستنجح؟

- شربت كثيراً من الخمر على الطعام، فكانت حماستي زائدة، فإن أدت هذه المحاولة بمهارة فسأنجح بنسبة تسعين في المئة. ولكن هناك كارثة!

- مثل ماذا؟

- ستنام جوزيده في غرفة مبرورة. لن يمكن القيام بهذا في وجودها.. صمت الشابان، فأسهب بهيج كأنه يفكر بصوت مرتفع: هذا لا يعني أنه لا يوجد حل. يجب مساعدتك.. فإن خدعت جوزيده ودعوتها إلى نزهة في الحديقة منتصف الليل سيكون رائعاً.. تعطلها أنت في الحديقة، فأصبح أنا بمفردي مع مبرورة.

- لنرستائي جوزيده أم لا؟

- هي تضعف أمامك، حتما ستأتي.

- هذا النوع من الفتيات يعشق الجميع.

- بالفعل، فأنا لا أعتقد عكس هذا.

جلست مبرورة مع جوزيده في الظلة على يسار الحديقة. لم نتحدثا. تنظران إلى الظل الثابت كالحجر الجامد المظلم لأشجار الصنوبر الحادة الشاهقة في السماء كالهرم. بالنسبة لهما كان اللجوء إلى هذا الهدوء والفرار من هذا الجمع ووحشة الحديقة وظلام الليل الدامس أكثر مدعاة للرعب والتفكير في آن واحد، فكل منهما ترغب في الارتقاء إلى المعنى الفلسفي للحظة التي تعيشها، فقالت مبرورة: هذه الليلة ترعبني، لدي هاجس سيئ.

- وأنا أيضاً.

- كأن سيحل بي خطب ما ليجعل من حولي مهددين لي، حتى شجر الصنوبر وشجر الدفلاق هذا الذي يطوق الظلة التي نجلس فيها يرعبني..

- وأنا كذلك.

هزت جوزيده ساقها الرفيعتين بتوتر، وكانت تطأ بقدميها الصغيرة أوراق الشجر على الأرض، فتضربها، وتسحقها، فتحدثت تحت وقع فكرة آنية: سأكون سيئة الحظ.

قربت مبرورة رأسها ونظرت إليها عن كثب، وشعرت بالحكمة التي حصلت عليها من عمرها وتجربتها، فنست نفسها وقالت: نعم، أراك في خطر. هناك من يدبر لك مكيده. انتبهت الفتاة الصغيرة وقالت: أي مكيده؟

- تقريبا مكيده. هناك بعض الناس يحاولون إسقاطك في الدنو الذي سقطوا هم فيه.

- وماذا يجب أن أفعل لأتخلص من ذلك؟

- لا تأتي إلى هذا القصر الصغير مجددا.

انتفضت جوزيده بشدة وقالت: آه..

وهمست كأنها تفشي سرا: مستحيل.

- لماذا؟

- مستحيل.. إن لم آت أمت؛ لأنني يمكنني أن (أراه) هنا.

- هو؟

همست جوزيده بتلك الكلمة كأنها ترغب في ذلك: سيرات!

هزت مبرورة رأسها وهممت بشيء، ثم قالت: أتفهم هذا؟

فتحمست جوزيده كليا، وأصبحت تجول داخل الظلة كأنها

تركض، تمد ذراعها الرفيعة قاطفة أوراق البلاب، وتقتضمها

بأسنانها وتبصقها. ظلت مبرورة فترة طويلة تراقب ما تفعله جوزيده بنظرات منفعلة، وتنظر إلى تصرفاتها البلهاء العديمة المعنى كأنها جُتت، فرمقت عينها فجأة باب الظلة، فنهضت فجأة، وتراجعت وظلت تنظر، فإذا بها ترى ظل بهيج وسيرات الثابت يقف أمام الباب، فأخذت تتابع هذا المشهد السري من الداخل. وعندما التفتت جوزيده دهشت مثل مبرورة. دعا بهيج مبرورة إلى الخارج على استحياء، فسحبها بلطف، ممسكا يدها، فبقي سيرات وجوزيده بمفردهما في الظلة. وفي حين كان بهيج يسيرها بجوار حائط الحديقة أمسك يدها وضغط عليها بقوة وقال لها: تعالي معي سأريك شجرة غريبة. بينما كان يشير بإصبعه إلى ظلمة بعيدة لا تكدرأها، حدثت جلبة جوارهما. مرت نيفين وبيلمن من طريق صغير بجوارهما كأنهما لم ترهما. هزت مبرورة يدها بشده للتخلص من قبضته المحكمة كالكلابة.

وقالت: اتركني، الناس يروننا، سأقع في مأزق. أرجوك اتركني. أقول لك اتركني، لكن بهيج أمسك بيدها الأخرى وكان يقول ويكرر بلطف جياش وصوت عذب: لا تهربي مني، فلا داع لهذا، لست سيئا بقدر ما تظنين.. توقعنا الحياة التي نعيشها في بئر من الشك، لديك حق أنا مثلك تماما أكره هذا المحيط وهؤلاء الناس، أرجو أن أملك سكين القلب.

كان لتلك الكلمات وقع عميق وقوي على مبرورة، فلانت أعضاؤها المتشنجة على الفور، وانحنى جسدها، وتضاءلت عيناها لتصبح كخط أسود رفيع بين رموشها الطويلة. لم ترغب في تصديق كلمات بهيج، لكن هذا الصوت المرتعش الصادق النابع من القلب كأنه اعتراف وصدق الأفكار وانتظامها كان يدهشها. رأت نيفين وبيلما بهيج ومبرورة معا. ولما ابتعدتا عنهما قليلاً قالت بيلما: أترين هذا.. يتغزل في مبرورة على الملأ، كل ضماناتك ذهبت سدى. ما قاله بهيج كذب، كله كذب، دائماً كذب.. ألقاني على الأرض هكذا بعدما لطخني كمنديل مهترئ، تركني وحدي بعد آلاف الوعود، والحيل، والمكائد.. ماذا عساي أفعل إن لم أتزوج بهيج؟ كان يعدني بالزواج كل يوم وليلة منذ خمس سنوات، ومع هذا كان يتعرض للنساء بشتى أصنافها أمام عيني، والآن مبرورة..

أسهبت بعد قليل من التفكير: لكنه لن يتمكن من خداع مبرورة، هذه المرة سيتعلق بها ويتركني تماماً.. وسارت بعدما مزقت المنديل في يدها تعض على شفتيها، ويزداد غضبها مع مرور الوقت. ثم وقفت فجأة: أخوك شخص حقير جداً! اشتكت نيفين أيضاً سيرات بألم بالمشاعر نفسها التي تعذب أخاها، واستخدمت عبارات حادة فثارت واحتد غضبها، وقررت الفتاتان القيام

بجولات وترفيه بدءاً من اليوم التالي للانتقام من هذين العاشقين الخائنين. جاء من بعيد صالح ونظمية هانم متشابكي الأيدي ومن خلفهما السيد نظام الدين وناجية هانم، فأرسلت نظمية هانم الخادمة لتدعو الضيوف للدخول.. بعد ذلك قليلاً اجتمع الضيوف في الصالون بالأعلى بأعين منبهة خرجت من الظلام إلى النور، وملامح مجمدة، متعبين منهكين. قال السيد نظام الدين لبيلى بنبرة مرتفعة: سيدي، سمعت أنك ممثلة رائعة. ولم أشاهد لك دوراً حتى الآن، ألا تتكرمي علينا بشيء بسيط؟ انزعجت بيلما وقالت: يا سيدي أنا متعبة جداً الآن، فلا تطلب مني طلباً شاقاً كهذا. طلب منها جميع من حولها فجأة تأدية دور. كانت هناك حاجة مشتركة إلى التسلية. فالسيد نظام الدين الذي تفرنج متجولاً بين السفارات الأوروبية تحدث عن شغفه بالمرح، فتوسل إلى بيلما. كان ولع بيلما بالتمثيل معروف. قررت أن تمثل بتأثير من سينمات شهزاده باشي قبل أن ترتدي العباءة. ومنذ ذلك اليوم أخذت تعبر عن هذه الرغبة في كل مكان بكل وسيلة، غنت المونولوج في الاجتماعات بين حين وآخر، وأدت أدواراً فردية. كان لهذه الفتاة ولع بالسينما والتمثيل إلى درجة أنها كانت تقول على رؤوس الأشهاد إنها من الممكن أن تضحي بكل ما تعرفه من مقدسات في سبيل الوصول إلى ما

تصبو إليه. نهضت ومثلت مشهدا حفظته عن (بورا). كانت آثار المشاعر تنعكس على صوتها وتصرفاتها ووجهها لما كانت فيه من حماسة. دام المشهد طويلا، لكن شاهد الجميع باهتمام بالغ. وعندما انتهى المشهد عم الصمت قليلا، وتلاه تصفيق حار. كنت التصفيق صادقا، لأنهم شعروا بالتلقائية من حماستها، ونهض الجميع احتراما. جلست بيلى منهكة في مكانها. وبينما استمرت المباركة دخل شاب جاد رصين قليلا بملابس سوداء.

هتف الحضور بسعادة: آه.. السيد نادر، السيد نادر. تجمعت ابتسامة لحظية على وجهه العابس، ولعلت عيناه. جلس الشاب على كرسي بعدما سلم عليهم واحدا واحدا بإيماء رأسه، وقال بصوت مرتفع: كلكم موجودون؟ هجم اليونانيون على بورصة.

خيم الصمت على الحضور. رفع السيد نظام الدين رأسه قلقلنا: نعم، هذه شائعة منتصف الليل. أسهب نادر بأعين تفيض بالتفكير: الخبر معلق على باب مبنى الهيئة العسكرية اليوناني بباي أوغلو. بدأت اللحظات التاريخية لهذه البلاد مجددا. نهضت مبرورة فجأة ودنت من نادر: إذا سمحت يا سيد، متى بدأ الهجوم؟

أول أمس قبل الظهر في الساعة العاشرة تحرك خمسة وعشرون من فرق المدفعية، يعني أنه هجوم كامل. صمت

الجميع. أخذت بيلما تضرب بحدائنها على الأرض بسرعة من مكانها. وأنصت نيفين باهتمام. وسار صالح إلى منتصف الغرفة وصاح: دق ناقوس الحرب. نحارب منذ خمسة عشر عامًا. فلا نخشى هجمات خادعة كهذه، فخنازير اليونان لن يأخذوا طرفة عين.. نغلبهم ويذهبون.. أقزام النور! ضحكت نيفين، ونهضت هي أيضًا، وسارت موجهة سؤالاً إلى نادر: لماذا تأخرت؟ كنا نستمتع كثيرًا منذ قليل؟ أدت بيلما دور (بورا)، وكانت مبدعة جدًّا، كان ينبغي أن تشاهد ذلك. لم ينطق نادر فأكملت نيفين: رأيت بيلما وهي تمثل دور (بورا) من قبل؟

- لا.

قال نادر (لا) تلك بحدة جعلت الصمت يخيم على الحضور من جديد. أخلت نيفين بهذا الصمت بصوتها الحاد المرتفع: سيد نادر، أحيانًا تصيبك الجدية إلى درجة أنك تصمت من حولك.. كنا نستمتع كثيرًا منذ قليل. لنترك الحديث عن هذا.. نظر إليها نادر شزرا بخليط من الاستهزاء والحدة وسألها: أي أحاديث؟

- هذه الأحاديث يا نادر؛ الحرب، والهجوم، والمدفعية، وغير ذلك من أشياء لا أعرفها.. لسنا أركان حرب.. أوجب علينا نحن حل هذا؟

- حسنا نيفين هانم، لم أقل إننا نذاكر الحركات الحربية
لنتخذ القرارات، لكنني أخبرتكم فقط بكارثة تهددنا جميعا.

- ليفكر رجال الدولة في هذا.

- ويجب علينا أيضًا.

- لا مطلقا، لماذا نتدخل في أمور لا تعيننا؟ ولا سيما أن
النساء لا يستوعبن هذه الأمور!

ضحك بهيج ضحكة مائعة من بين أسنانه البيضاء المنتظمة،
أدخل يده في جيب بنطاله وأخذ ينظر حوله بحكمة واضعا فكه
على صدره. اقتربت مبرورة من نادر ومالت نحوه وسألته: بإذا
تشعري يا سيد. سنتنصر، أليس كذلك؟ فكر نادر رامقا الفتاة التي
لم يعرفها، وكان يحلل تفاصيل تلك الملامح التي رآها حديثا في
الصالون أكثر من التفكير فيما إن كنا سنتنصر أم لا، وكان يحدث
نفسه قائلاً: فتاة جميلة، فرفع رأسه وسأل: أتريدين أن نتنصر؟

- بالطبع.

- إذن سنتنصر.

شرح رائيا دهشة مبرورة: لأننا الجانب المؤمن بالنصر في
الحروب. فما دمنا نتوق إلى النصر بهذا القدر فسنناله بالتأكيد.
انتبهت نظمية هانم لحديث مبرورة مع نادر.

اقتربت منها وقالت لهما: هل تعرفتما؟

انتعش نادر معتدلاً على كرسيه: أستعد لهذه السعادة. عرّفت نظمية هانم نادر إلى مبرورة بتلك الكلمات: السيد نادر من أحب أصدقائنا وأقربهم.. موظف في مؤسسة الدين العام.. شاب ذكي، واسع الأفق، ومثقف.. وبينما كان نادر يشكرها قدمت مبرورة له بكلمات مقتضبة وأخبرته أنها فقدت والدها في الأناضول. وعندما سمع نادر هذه القصة أراد شرحاً من الفتاة، مبدئياً اهتماماً شديداً، وأنصت باهتمام لاختفاء السيد إحسان المانيسالي في ظروف غامضة، وما تعرضت له مبرورة من مغامرات مرعبة في الأناضول، وكيف أتت في النهاية إلى إسطنبول، وكيف استُقبلت في هذا القصر الصغير، وعرف القصة، ثم فكر، فقال للفتاة: أعرف المدير العام للمهاجرين. هو شخص خدوم بالقدر الكافي، ولن يتوانى عن البحث والتقصي والعمل، فإن علم قصتك يتواصل مع المخابرات عن طريق الهلال الأحمر أو مباشرة، ويحصل على معلومات خاصة بوالدك. ارتعدت مبرورة: آه.. كم سيكون هذا جيداً!

- ليس من الصعب رؤية المدير العام، إن أردت نذهب معاً غداً.

- أكون شاكرة.

بينما كانا يتحدثان، ذهبت نيفين إلى البيانو وبدأت تعزف مقطوعة (فان ستيب). نهض الحضور الذي ضاق ذرعاً بالأحاديث. لم يتحرك صالح؛ لأن صفوه تعكر، تحدثت مبرورة ونادر عن الهجوم من جديد. دقت الساعة الثانية. قالت نظمية هانم إنها ستدل من يرغب في النوم إلى الغرف. لم يشعر أحد بالنعاس، لكن كان الجميع يرغب في النوم. سار بهيج مع سيرات وانسحبا في ركن. فهمس سيرات بهدوء: ستنزل جوزيده إلى الحديقة الآن، وستكون مبرورة بمفردها في الغرفة. يمكنك تنفيذ خطتك بلا خوف، سأشغل جوزيده أكثر من ساعة.

- وضعت الكتاب في غرفتها. لا يوجد شيء آخر لأفعله.
سأطرق بابها بعد قليل وأدخل.

- أتمنى أن تنجح.

- وأنا أيضاً.

تواعدت نظمية هانم وصالح على أن يلتقيا في ظلة الحديقة، فانسحبا إلى غرفتهما مؤقتاً. ونزل سيرات وجوزيده إلى الحديقة على الفور. وخيم الصمت على القصر الصغير فجأة. يتجول

بهيج في غرفته بتوتر، يفكر في تفاصيل خطته، يحاول أن يتذكر اعتداءاته الناجحة على بعض النساء والفتيات إلى الآن ليزيد من ثقته بنفسه. علم أن هناك مزية واحدة تعطي للرجال النجاح في أمور النساء، وهي تلك القوة العظيمة التي تخضع النساء الأكثر مقاومة، تذهب عنهن خوفهن وترددهن، فترك حساباتهن، فتحول عنادهن إلى خنوع، وكيدهن وتمنعهن إلى حيرة، وسذاجتهن إلى واقع. كل بنات حواء فرائس غافلة.. الثقة بالنفس! التسليح بها أولاً لينفذ اعتدائه؛ ولكي يتقلد ذاك السلاح لا بد أن يتدلل بنجاحاته مع النساء. عندما قدّر بهيج شجاعته وجد نفسه قويًا، ارتدى حذاءه لكيلا يحدث جلبة على السلم، نزل إلى الطابق السفلي ممسكا سيجارة بأسنانه. غرفة مبرورة بنهاية "دهليز" كبير، تطل على الحديقة، وبجوارها غرفة نوم نظمية هانم. تنام ناجية هانم مع والدتها بهيج في غرفة واحدة. ذهب بهيج إلى باب هذه الغرفة أولاً، فوضع أذنه ليتنصت فإذا بصوت سيدتين تتحدثان بصوت متقطع وجمل قصيرة. لم يرد بهيج سماع هذه المحادثة، لكن تناهت إلى مسامعه تلك الكلمات فأضحكته: شاب كالكةكة، آكله وأقرمشه! بهيج الذي سمع هذه الأحاديث الساخرة من فم أمه حدث نفسه قائلاً: قُطع لسانك.

وسار إلى باب مبرورة، قرَّب أذنيه، دهش الشاب كثيراً في البداية لأنه فهم خطأ، لكن عندما ركز قليلاً توقع أن مبرورة تقلب في صفحات كتاب. لم يستطع أن يضع يده على مقبض الباب. شعر بخفقان قلب لم يشعر به في أي من مغامراته من قبل، وانقباض في سائر جسده. انتابه الخوف. كان القصر الصغير هادئاً إلى درجة أنه إذا ألقى إبرة يسمع صوتها. أنصت، فإذا بالبيت هادئ كأن أصوات دوي الشاحنات المتسارعة في الشارع واضحة كصياح الديكة، وكذلك صخب السيارات التي تمر محدثة صخباً مدوياً، لأول مرة يتتبعه بهيج لضجيج المدينة. وضع أصابعه على الباب بعد أن فكر أنه كلما مر الوقت تتضاءل ثقته بنفسه، وطرقه ثلاث دقات خفيفة، لم تجب، فكرر ثلاث دقات مجدداً في المرة الثانية، لم تجب أيضاً. طرقه هذه المرة بدقات أقوى وأكثر غضباً، فوضع أذنه: فإذا بصوت أقدام حافية تقترب من الباب. سمع صوت مبرورة الرقيق يقول: مَنْ؟ دون أن تحرك المزلاج. فقال بهيج بحدة بقدر المستطاع: افتحي! سُحب المزلاج بعد ذلك بدقيقتين، واهتزت دلفة الباب وفتح. غطت مبرورة نفسها على عجلة بعباءة من فوق ردائها المكشوف، فظهرت بجوارب قصيرة منكمشة ارتدتها سريعاً، وبشعر مبثر قليلاً. نظرت إلى بهيج بدهشة. دخل الشاب دون أن يرى حاجة إلى الشرح وأغلق

الباب، وتجاهل غضب مبرورة الذي من الممكن أن يتحول إلى تمرد، وتقطّب حاجباها، وكذلك التواء شفيتها، قال بلهجة طبيعية متخذًا خطوتين: أزعجتكِ. جئت إلى هنا أمس على كل حال، ونسيت كتابي، ومن عاداتي قراءة الكتب عند النوم، بدأت بقراءة هذه الرواية مؤخرًا.. قلق، وجئت لآخذها. أسرعت الفتاة نحو المنضدة الصغيرة المجاورة للسريّر، فأمسكت بالكتاب، وقالت بصوت منغمس في التوتر: ها هو ذا كتابك. وعندما نظرت خلفها سارت نحو النافذة، ونظرت إلى الحديقة دون أن تنطق بكلمة. كان الكتاب مقلوبًا على وجهه ومفتوحًا. جلس بهيج على كرسي بالقرب منها وسألها: آه.. بدأتِ قراءته، لن آخذه. أجابته دون أن تحرك رأسها بإجابة حادة قصيرة: لا أقرؤه. ألقيت نظرة فقط. خذه، واذهب به.

- ألم يعجبكِ.. لكنها رواية جميلة..

- قلت لك لا أقرؤه..

نهض بهيج واقترب من النافذة ووقف مواجهًا للفتاة: أما قرأتها قط؟ نهضت مبرورة بقوة، ورفعت وجهها المحمر وأمرته بأخر قوة لديها: سيد بهيج، أرجوك اخرج من غرفتي، لا يمكنني تحمل أمور كهذه. لم يتحرك الشاب من مكانه وقال بهدوء طبيعي: مبرورة هانم، دائمًا ما تفكرين بي بسوء،

وتعتقدين أنني إنسان معتد، أنتِ مخطئة، مُنخدعة، أخطأت في حقكِ مرة، ولا أرغب في تكرار هذا الخطأ. أعرف أنك فتاة جديّة تماماً، أنأى بنفسني عن الدنيا. لم آت إلى هنا لأخذ كتابي فقط؛ كان غرضي أن أراكِ في عشكِ في الهواء المعتدل لهذه الألفة، لكن رؤيتكِ فقط ليس إلا.. وانسيابية شعرك كالماء في ظل عصبيتكِ لو مرة.. ورجفة.. وعيناك اللتان تشبهان.. ماذا أقول؟ فيهما حدة تروقني.. لكن كل ما في الأمر، أنها رغبة التطلع إلى لوحة فقط.. تسمحين لي، ائذني لي بهذا القدر البسيط. كانت مبرورة لا تتحمل هذا الضغط وبهيج يتفوه بتلك الكلمات، فجاهدت لتغطي صدرها العاري البارز من أسفل عباءتها لتظفر بحريتها، شعرت بالخجل، فلم تسطع إخفاء اضطرابها وقالت بحدة: اخرج!

- أنا خارج، سأخرج، قطعاً سأخرج، لن أبقى هنا، فأنا لست لصاً، لا أريد أن أخرج من دون محو سوء التفاهم هذا. لو كانت رغبة بهيج هي محو سوء التفاهم هذا فقط، فمن الممكن حل هذه المسألة بسهولة، كان من الممكن أن يحدثها في اليوم التالي. كررت مبرورة بهذا القلق: اخرج، اخرج لتثبت حسن نيتكِ، إن غادرت غرفتي على الفور لن يكون هناك سوء تفاهم، أنت تعظم من سوء التفاهم ببقائك هنا.

- حسنا.. أنا خارج.. ها أنا ذا آتخذ خطوتين إلى الورااء..
- لكن اسمحي لي أن أطرح عليك سؤالاً بسيطاً.
- اسأل، ولكن سريعاً.
- لن تنظري لي على أنني إنسان سيئ غير مؤتمن..
- يا عزيزي قلت لك لا..
- لا بد أن أتأكد من ذلك. مدي يدك إلي لأغادر بسلام.
- لا داع للتصافح ليلاً.
- إذن فسوء التفاهم ما زال قائماً.
- لا، لا، لا شيء يستمر، اخرج.

جلس بهيج على الكرسي وقال بيقين: لن أخرج. وضعت أصابعها على فمها وصاحت: أوه.. هذا تحرش إذن.. إن لم تخرج؛ أخرج أنا.

أسرع بهيج خلفها عندما سارت نحو الباب: قفي، لن تذهبي، حسنا.. أخرج أنا، أخرج، سأخرج. رفع حاجبيه بحركات غريبة وطفولية واضعا يده على مقبض الباب كأنه يقول جمل مفادها: حسنا.. أرضى بأي شيء لأجلك، حسنا... تأثرت مبرورة بهذا التصرف وسقطت في الرغبة في أن تشعره

أنها لم تكن ترغب في الظهور بهذه الدرجة من الفظاظة لرجل: غدا.. صباحا.. نتحدث كثيراً.

أراد بهيج الاستفادة من لحظة الضعف هذه: أخاصمك إن لم تمدّ يدك. مدت مبرورة يدها ليرجع إلى الخلف، لكن بهيج لم يمسكها وقال: ليس هكذا.. ليس هكذا.. مديها بحرية.

بدأت الفتاة تشعر بالنشوة. أخرجت ذراعها البيضاء المرتعشة من تحت عباءتها ومدت يدها. أمسك بهيج يدها بحرص شديد ولطف، وسحبها نحوه ببطء، وقال لها بشكل لا يزعج هدوءها: هكذا.. الخوف مني بهذا القدر عيب. ظلت ذراع الفتاة متراخية، كان يبدو الانفعال في وجهها المحمر خجلاً. أخذ بهيج بيدها الرقيقة بحرص دائم نحو شفتيه، فقبلها، وشعرت الفتاة برجفة في ذراعها بالكامل، فحاول مجدداً، فمرر شفتيه على ساعدها ويدها، لكن مبرورة أسرعت نحو الباب لتتقذ نفسها، ففتحت الباب وقالت مرتعشة في خوف كأنها ستبكي: اخرج، بسرعة، اخرج، لا تقف، هيا. وأخذت تتوسل. لم يعترض بهيج، أخذ كتابه من فوق الأرض وخرج من دون أن ينظر إلى وجهها. وفكر قائلاً: بداية مناسبة، سيكون الأمر أفضل في المرة الثانية.

زيارة الأمسية تلك جديرة بأن تدرج ضمن نجاحات بهيج. فكر بهيج هكذا وهو يصعد السلم الضيق الصغير المؤدي إلى غرفته، إذ رأى أن إظهار فتاة متمسكة بشرفها ودينها مثل مبرورة ضعفها هو أول إشارة واضحة لسقوطها. تعجب فور أن وطئت قدمه الغرفة، حيث بيلما جالسة على كرسي مقوَّس أمام المكتبة، واضعة قدمها الخافية على مسند القدمين، تضع رأسها إلى الوراء، تجلس في ضوء الغرفة الأخضر متماهية كظل، ساكنة هائمة. انتفضت لحظة أن رأت بهيج، نهضت، وقالت له بنظرات امتعاض وحزن: أين أنت؟ بحثت في كل مكان، الحديقة، وغرف القصر، فلم تكن هناك. جالت بخاطري الشكوك. أم كنت في غرفة تلك الفتاة البلهاء؟

سعد بهيج لوجود بيلما في غرفته، لم يكن يرغب في قضاء هذه الليلة بمفرده بعد تلك الحماسة: ما السبب؟ أكان يلزم التوهم إلى هذه الدرجة.. نفدت سجاثري، خرجت إلى الشارع. أنتِ موهومة إن كنتِ تظنين أنني منشغل بمبرورة! اسم مبرورة أرفجف بيلما. أسرعت نحو بهيج فوضعت يديها على كتفه، صاحت بتمرد لم تستطع، أو لم ترد، إخفاء ناظرة في عينيه: لست منخدعة.. أنا أعرف، كيف تخدعني ومن مثلي من الفتيات اللاتي يضعفن أمامك، وكيف تجعلهن جاريات

لك، وترغب في أن تجعل تلك الحمقاء مثلهن. أنا أعرف، تقرأ جميع الفتيات والنساء كالإعلان، ومن ثم تطويه وتلقيه! أعلم أنك تعرف نقاط ضعفنا جميعا، ومن أين ومتى وكيف تدخل منها، وتقدر أننا فقدنا عقولنا. أعلم أنك وُلدت لذلك، وتعيش لذلك، وتموت من أجله، وستبحث عمن يجونك حد الجنون إلى آخر نفس. لا تنس ما فعلته بي. لا تنس ما وعدتني به في طيش شبابي، والخطط الخادعة التي نسجتها لتستفيد مني منذ ست سنوات، ولتجعلني وسيلة للوصول إلى نجاحاتك. في النهاية تذكر أنك كنت سببا في كارثة هزت أركانِي. وأنت من أماكن متحفظة نقية مثل جراح باشا، فأسقطتني في باكورة الخسة هذه. استمع بهيج ببرود حتمي للرجال في مثل هذه الأوقات دون أن تتغير ملامح وجهه الساكنة، عندما دفعته بحركات تعصب وكره وابتعدت، تذكر أن يدخن سيجارة، فأخرج علبة بهدوء وفكر جالسا على كرسي، وأجاب بهدوء: عزيزتي، أعرف أن لديك استعدادًا للتمثيل، فما قمت به من مشهد الآن هو أحد النجاحات. تتعصبين، وتغيرين، وتتمردين، هذا جيد.. لست صادقة، ولا أقل إنكِ تكذبين، لكن ما دمت تقولين إنني أعرف النساء جيدا، فخذي في اعتبارك هذا الرأي: هناك شخصيات للنساء، يبالغن في كل شيء، ضعفهن وقوتهن وجذبهن وكبائرهن وصغائرهن تنبع من هذا الاختلال. حتى

أنتِ الآن تهوين في هذا الاختلال، وتحرفين الأحداث، تتذكرين الماضي بصورة خاطئة، وكذلك تحللين أسباب ما حدث ونتائجه. هل ستقولين لماذا؟ اسمعي: لم أعرفكِ من جراح باشا، أهنالك مكان في إسطنبول يُدعى جراح باشا؟ وإن كان فأين؟ أيذهب إليه بالقطار أم بالسيارة؟ لا أعرف. أعرف كل شوارع فيينا، وأزعم أنني حفظت أسماءها، لكنني لم أرَ أحياء إسطنبول، لم أتجول فيها. تعرفت إليك في بيت بحري شاهزاده باشي نادر، وكانت أول زيارة لي لهذا المنزل. كنتِ تشتكين حياة الأتراك، وتسأليني عدة أسئلة عن فيينا، وتسعدين بالأجوبة حد الجنون، وتسعدين بتعرفكِ على أوروبا ولو تخيلا. وكنتِ تقولين: سأصبح مثله، وأترك منزلي، أكره أسرتي، أمي، وأبي، فأخبرتكِ أنني أعرف بعض الممثلات في فيينا، وأحتفظ بصورهن، وأراسل بعضهن، توصلت لي ورجوتني، فجئنا إلى هنا، جلستِ أمام تلك المكتبة نظرين إلى هذه الصور وهذه الرسائل بإعجاب، ومنذ ذلك اليوم قررتِ أن تتعلمي اللغة والرقص، وكذلك الموسيقى؛ لتواكبي الحياة في هذا المنزل. اعترفي أنني ساندتكِ في هذا. في ذلك الوقت كنتِ أعرف ابنة معلم البيانو الخاص بنيفين. جئتِ ذات يوم إلى هذه الغرفة، بكيتِ، وصرختِ وقلتِ: لا أريد هذه الفتاة الحمقاء! وأجبتكِ: ماذا أفعل، يحتاج كل رجل إلى عشيقة. أردتِ برغبة وسعادة

أن تحلي محل (سلفيا) ولا تنسي عندما أغشي عليكِ على هذا الكرسي الطويل في هذه الغرفة، وشكرتني وقلت: بهيج، أنت من علمتني الحياة!

صمت بهيج. نظر كلاهما إلى ذلك الكرسي الطويل. لاحت كل ذكريات بيلما في الضوء الغرفة الأخضر، كانت ترى الماضي منذ ست سنوات جليا، واضحا كصورة. وكان في الواقع لهذا الكرسي الطويل كثير من الذكريات التي تجمعها بهيج. ظنت أنها قضت حياة عصرية هناك. أحيطت بجاذبية هذا الكرسي الطويل، وسارت من كرسي إلى آخر، فتركت نفسها على هذا الكرسي الطويل من جديد، ولكن هذه المرة مريضة، يائسة، حائرة، وتمددت بتوانٍ ميت، وبكت. بكت طويلا في مأتم نحيبها الصامت. وضعت يدها على وجهها، ثارت واختلجت فجأة، كانت ترفع رأسها المدفون في الوسادة وتنزله لتخرج التهنيدة المحبوسة. فكر بهيج: ها نحن ذا.. ما يعطيه هذا المشهد من انفعال لا يعطيه البوكر. اقترب من بيلما ولمس شعر الفتاة بأصابعه الطويلة، وداعبها بلطف ورقة لهذا الرأس الحزين وجهها المبلل بالدموع.

جلست مبرورة على كرسي أمام النافذة بمفردها. سرت في
 بدنهارعدة. كانت متوترة فوق العادة. كانت تهمهم بين الحين
 والآخر: ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ وضغطت على أسنانها
 وأحكمت قبضتها. الفتاة التي كانت دائماً تسيطر على أفكارها،
 وتفكر باعتدال لم تسطع هذه المرة استجماع أفكارها بحال، فلم
 تستطع تحليل الأحداث المختلطة الغامضة الأخيرة. تستحضر
 دخول بهيج للغرفة وما فعله بحجة الكتاب وما قاله مراراً،
 لم يستطع أن يفارق ذهنها، فتتشكل أمامها دائماً عينا بهيج
 الساحرتان، أطواره ذات التأثير الغريب، منغلقة على جاذبية
 هذه الأحلام أحياناً، وأحياناً أخرى تجاهد لتضفي معنى
 لما حدث. مر الكثير على إنقاذ نفسها من يد بهيج.. لم تأت
 جوزيده بعد. لم تفهم مبرورة هذا وأرادت انتظار الفتاة. عندما
 تخلصت من هذا الانفعال السابق أخذت تتحكم في وضعها
 بالهدوء وبرودة الأعصاب، فهي في أمس الحاجة إلى هذا الآن.
 فمنذ أن أتت إلى إسطنبول لم يجتمع عليها عقلها، ولم تستوعب
 ما يحدث، فلم تستطع أن تقرر كيف ستعيش في هذه الحياة
 المجحفة. ماذا ستفعل؟ هل ستظل (هنا) إلى أن تجد أباهما؟
 هل ستبقى في هذه الضيافة إلى الأبد؟ نهاية هذه الحياة غير
 واضحة، لا تستطع أن تتوقع متى، وكيف ستنتهي، أما يجب أن
 تتخذ نيفين صديقة حميمة متأقلمة مع الحياة المتهورة المجنونة

البشعة قليلاً لهذا البيت، فتهرب كقطعة من هذا التلاحم، وألا تلفت النظر إليها، أو أنه يجب عليها الرحيل بعد مكوثها عدة أيام؟ لكن إلى أين؟ المجهول.. توقف ذهن مبرورة تماماً عند مفترق الطريقين هذين. يبدو أن الطريق الثاني جرف ومسدود. الذهاب من هذا البيت بمنزلة السقوط من فوق الدرج، أو ربما أشد قسوة، ونهايته غير واضحة. أما الطريق الأول فسترضيه شاءت أو أبت، فيجب عليها أخذ الحيلة هناك. بالنسبة لمبرورة، هذا القصر الصغير يعج بالكبير والصغير، الرجل والمرأة، الصديق والغريب، السفاء والمتلذذين مخالفي المجتمع، فهم مثلهم كمثل من هم داخل سيارة مكسورة عجلة توجيهها، مقطوعة مكابحها، يسرون بأقصى سرعة إلى أسفل من فوق جرف عال منتصب لكنهم إما لا يشعرون بالكارثة، وإما يرتضونها فرحين. قالت نظمية هانم إنها مدينة بالكثير، فلا شك أن صرفها للنقود دون حساب سيضاعف ديونها هذه، ولن يقللها. نيفين تقترب من الخامسة والعشرين، لكنها تبدو سيدة أنجبت خمسة أطفال، بتجاعيدها المتعفنة حول عينيها، حتى إن هذه الفتاة لا يمكنها التفكير بمستقبلها؟ كيف لا تخشى كارثة المرض والفقر والشيخوخة؟ لاحظت مبرورة جيداً أن جميع من بالبيت اجتمعوا معاً ليتبادلوا المتعة والاستمتاع والحماسة فقط. يظنون أن كل ما هو مقدس عند

غيرهم خرافة كي يصلوا إلى مآربهم هذه، يتتهكون دون خوف. في الأساس سمعت مبرورة كثيراً عن أسر إسطنبول المقرفة هذه، لكنها لم تر عن كثب هذه الأسر، كأنها تراها بمجهر. فكرت في بهيج: أهذا هو الشاب العصري الذي يرسم كاريكاتوره في الصحف؟ لا، مع أن ملابسه ذاتها وزينته كذلك، على الرغم من طريقة حديثه، ومشيته، ونظرته، وأحواله جميعها ذاتها، لكن هذا ليس شاباً تركياً مضحكاً ممن يتصفون بمخالفتهم للمجتمع؛ لأن بهيج مخلوق يقف هكذا ولا يعرف ما يفعل.. أبله دون تجربة، لكنه فهمجيداً نقاط ضعف جميع من حوله، ويمكنه رؤية الجميع مضحكين دون معنى، واكتشف أسرار الحياة وفق رغباته. ذكي جداً، يمكنه العيش وفق عقله، فيعيش جيداً. هذا الشاب ليس كاريكاتورا، ولا شخصاً مثيراً للضحك، ربما يكون مخلوقاً مرعباً ضاراً بذكائه المدهش الخطير. كانت مبرورة تخشى هذا الإنسان، فكانت تعترف بهذا لنفسها، بهيج كذاب ومزيف، أناني وجاحد، لكنه محبوب، أو أنه يعرف جيداً كيف يبدو كذلك، هو يعرف أن مبرورة وبعض ممن يدعون مبرورة وبعض الفتيات ينخدعن ويغتررن، ومتأكد من أنهن يلقين أنفسهن في حضنه طوعاً؛ لأن بعض صديقاتها من أزمير انخدعن بشباب ساحر على شاكلته، وألقوا بأيديهن إلى التهلكة. فما سيمنع بهيج من التقرب إلى مبرورة في لحظات

ضعفها واحتياجها إلى رجل، واستغلا لها؟ مبرورة متأكدة من عفتها وشرفها، لكن تعرف أيضًا أن هناك بعض اللحظات من الضعف لكل إنسان، حيث يظل مسلوب الإرادة، بل الكثير. وكل إنسان حينذاك يشبه المريض الذي سُلِب شعوره أمام من ينومه مغناطيسيا، فهو لا يملك نفسه، لا يمكنه التفكير، وإن فكر فلا يمكنه مقاومة الاستمتاع الطبيعي، وإن قاوم لن يتصر.. أئمة امرأة لا تعرف لحظات الضعف هذه؟ لم تكن مبرورة تعرف ذلك أنه لم يعد الرجال فقط من يُدعون بأسماء قبيحة كزير النساء، يكتفون باكتشاف لحظات ضعف النساء هذه، بل ينجحون في تحفيزها عندما يرغبون في هذا، فهذا سر إغراء النساء كله. فطنت الفتاة إلى هذا من فحصها الخاص للنساء وتدقيقها، ولهذا قررت الدفاع عن نفسها. لم يكن السبب في رغبتها في مقاومة مطاردة الرجال للنساء هو تعصبها غير الملائم لشرفها فقط؛ لكنها كانت تخشى الإغواء. كانت ترغب في حكي كل هذا لجوزيده في الحديقة، جوزيده المسكينة، لكن كيف لها أن تشرح هذا الفتاة غريرة، صغيرة السن حاملة؟ كان ينبغي لجوزيده كي تشعر بالخطر أن يتزين ذكاؤها بالمصائب كمبرورة. مع أن هذه المسكينة ترعرعت بين أصدقاء أمها المنحليين مثلها، تشنت بين سبل التفكير، فخضعت المسكينة لأهوائهم المتدنية.

وفي النهاية قررت مبرورة: ستذهب صباح اليوم التالي إلى المهاجرين مع نادر للسؤال عن أبيها، فإن لم تتلق أخبارا ستعود إلى هذا المنزل مجددا، وتنغمس في هذا العالم اللاهني، يبدو في الظاهر أنه متعاون، لكنه يخوض حربا ضروسا مع كل خطر.

في صباح اليوم التالي لم تجد مبرورة ونادر إدارة المهاجرين العامة، فمرا على المكتب الذي أعطى الإعلان للصحف، مع أنهما كانا يعلمان أنه ستعود أخباره بعد الظهر. لم تأت أخبار فيما يخص الإعلان. قال نادر: ليس من العقل أن نذهب إلى شيشلي ونأتي إلى هنا بعد الظهر، الطريق طويل، والوقت يمر، ستتعين. لنذهب عندنا؛ نجلس قليلاً، ونأت إلى هنا عندما تحل الثالثة، إنني أعيش مع والدتي، أريد أن أعرفها بها، كل ابن يظن أمه رحيمة، لكن أمي امرأة عطوفة.. أتوق إلى أن أعرفك بها. ابتسمت مبرورة.

ركبا القطار من منطقة تربة. ومنزل نادر في حي شهزاده باشي. في أحد الأزقة المؤدية إلى حي وفا يقبع منزل تركي كبير قديم، ذو ثلاثة طوابق، مظلمة واجهته، واسعة نوافذه. فتح الباب، فانبعثت رائحة العفن الباردة الرطبة من الممر الحجري

الواسع الفارغ. السقف مرتفع جداً. عمودان خشبيان سميكان أحدهما على اليمين والآخر على اليسار امتدا من السقف إلى الأرض. هناك كمر نصف دائري فوق مصراعي البيت الكبير المؤديان إلى غرف المنزل. فتاة صغيرة هي من فتحت الباب. بنت متبناة. تراجعت خطوتين إلى الوراء بنظرات اعتادت الضيوف غير مكرثة، وتبسمت قليلاً. صعدا سلماً مظلماً من مدخل ضيق، فمرا بردهة. ولا يوجد بها أثاث سوى ستائر من الشمع بأهداب قديمة على نوافذها. انبعث صوت عال مخنق لدجاجة من الحديقة. فتح نادر باب غرفته. وكان بها ثلاث قطع من الأثاث لكيلا يقال إنها خاوية، وهي: طاولة مستطيلة طويلة مغطاة بالأسود في المنتصف، وفوقها مصباح من المعدن اللامع بمظلة كحلية، وأربعة كراسي، ووسادة مفلطحة في زاوية. الحجرة التي بها واجهة زجاجية بطول الحائط مملوءة بالكتب. وستائر بسيطة بيضاء من الثل وعلى الجدار لوحة لنادر مرسومة بألوان الباستل دون إطار. غرفة خاوية لكنها نظيفة، هي غرفة تريح روح تسعى إلى الأمن في الفراغ.

ابتسم نادر وأشار للفتاة إلى مكان لتجلس: لا تتعجبي من غرفتي. هناك سبب آخر لخلوها غير الفقر: فلا تعب، ففي الوقت الذي ترى العين فيه مشاهد تتغير بسرعة تجد في هذه

الغرفة سكون الأديرة. ملائمة للتفكير. لا حاجة إلى الذهاب للسريـر وغلـق العين. كان الباب مواربـا. أتت الفتاة الخادمة بفستانها الوردـي. فناداها نادر: بريهان! أخبري أمي، لتأتي" .. ذهبت الفتاة دون أن تدخل. فُتح الباب بعدها بقليل .. دخلت عجوز بتؤدة طويلة، بيضاء الشعر، شاحبة الوجه، وقالت لمبرورة: أهلا يا ابنتي. نظر نادر إلى أمه: أعرفكِ على مبرورة هانم. أخت السيد نافع في الرضاعة .. نظرت السيدة إلى مبرورة بتمعن: تشرفت بمعرفتكِ يا بنتي، ممتنة جداً، فأضاف نادر على الفور: بقدر قرابتها لهذه الأسرة فإنها لا تشبههم في الأخلاق، ولا الطبيعة.

- واضح من ملاحظها..

- لكن مبرورة هانم لديها خطب جلل.

- ما هو يا عزيزي؟

حكى نادر ما حدث للفتاة في الأناضول ووضع أبيها. أنصتت أمه خيرية هانم باهتمام إلى هذه المغامرة، وكانت تقول بين الفينة والأخرى: يا إلهي يا عزيزي يا إلهي .. كم هذا سيئ .. يا للأسف .. تأسفت خيرية هانم لهذه القصة، وأشفقت على مبرورة، وبدأت تسأل عن بعض الأشياء التي تثيرها لتعرفها: هل أنتِ من مانيسا في الأساس يا بنتي؟

- لا يا سيدتي، ولدت في بشيك طاش بإسطنبول. مكثت هناك حتى العاشرة من عمري. وأمي كانت امرأة هزيلة مريضة. ماتت. لم يرغب أبي في الزواج، بدأ يكره إسطنبول. كان لديه متجر كبير في حي محمود باشا؛ وباعه. ذهبنا إلى مانيسا مع أحد أصدقائه التجار من مانيسا، ففتح متجرًا جديدًا هناك، وأرسلني إلى أزمير لتحصيل العلم. ضحى بالكثير. ولأنني ابنته الوحيدة؛ أراد أن يحسن تربيتي. قدم لي في مدرسة داخلية أمريكية هناك، وجلب لي معلمًا خاصًا لتعلم اللغة التركية. مكثنا في أزمير سبع سنوات. أنهيت دراستي. وكانت تجارة والدي في مانيسا على ما يرام. كنا سننتقل إلى أزمير. كم كان لدينا أحلام جميلة. وفجأة احتلوا أزمير. ولم تكتمل مشروعاتنا. وبعد ذلك دخل اليونانيون مانيسا أيضًا.

- ولم تكوني ترين والدك في عندما كنت في أزمير؟

- كان يأتي مرة كل أسبوعين. كنت أذهب إلى مانيسا في أعياد الفصح، والمناسبات الدينية، والعطلات الكبرى. لم يرغب أبي أن يتزوج هناك. كان لدي حاضنة من إسطنبول تُدعى "مجبور قلفة". أخذناها معنا إلى مانيسا. كانت هي من تعتني بوالدي. اعتنت المسكينة بوالدي كأم لآخر أيامها، لكن عندما حدث هذا مرضت مجبور قلفة فلازمت الفراش، ولم تستعد صحتها، وماتت.

- أليس لديك أقارب آخرين في إسطنبول يا ابنتي؟
- كان هناك أخت لأبي. هي أيضًا ذهبت إلى طرابزون قبل سنتين. وأخذت أسرتها معها أيضًا. وكان لديها أملاك زوجها المتوفي هناك. أُمِّي شر كسبية الأصل. كانت خادمة في قصر، ولم يكن لها أحد في إسطنبول.
- أهنئك الكثير ممن يعرفونك في أزمير؟
- يا إلهي، كثيرات جدًا.. صديقات المدرسة كلهن.. أرسلت إليهم رسائل من بورصة، ولم يجيبوني، لكنهن جميعهن فتيات طيبات القلب. حتمًا أرسلن لي، لكن رسائلهن لم تصل إلي.. هزت خيرية هانم رأسها، مستدعية كل مشاهد هذه الحياة أمام عينيها: مررت بأمور جسام يا بنتي، ليكن القادم خيرًا إن شاء الله، وتجدين والدك، وإن اتبعنا الأصوات التي تأتي من داخلي، فأشعر أن والدك سليم، وسيأتي إلى إسطنبول، وسيحتضنك. رمقت مبرورة الأرض. نظرت خيرية هانم إلى نادر وقالت: كم أنه سيئ جدًا أن تكون مبرورة هانم وسط هذه العائلة في شيشلي.. كيف ترتاح الفتاة وسط هؤلاء عديمي الأخلاق؟ أكد نادر قائلاً: لا تسأليني، فهذا ما يعكر مزاجي. رفعت مبرورة كتفيها بتوكل: ماذا أفعل؟ فليس لي أقارب هنا سواهم.. لا أحد لي غيرهم. ولا أستطع توقع إلى متى ستستمر

هذه الاستضافة. وهذه الحيرة تؤثر في. فما سيحل بي في النهاية مجهول.. لم أكن أعرف أن نظمية هانم وأسرتها بشعون بهذا القدر. تناهت إلى مسامعي بعض الأقاويل عندما كنت في مانيسا، فلم أكن أصدق، ولا والذي أيضاً. لا يمكن تخيل أسرة كهذه في الأساس، فهي غريبة بهذا القدر، غريبة جداً..

ابتسمت خيرية هانم: يبدو أنك فهمتهم سريعاً. الجميع يعرفهم على حقيقتهم. عندما تقولين نظمية هانم في شيشلي، يُشار إليها بالبنان. كم أنهم أناس عديمو الأصل، دهشت. لا أُنقابل مع هذه الأسرة، ولا أذهب إليهم، نادر يحكي لي فأستمع إليه. هو يعلم جيداً. يذهب إليهم دائماً. وهم يأتون إلى هنا. يحبون نادر كثيراً. ومن لا يحب نادر؟! سألت مبرورة خيرية هانم: هل نظمية هانم تأتي إلى هنا سيديتي؟

- تأتي قليلاً.. والأصح لا تأتي إليّ؛ تأتي إلى نادر. لا يستلطف أحدنا الآخر. نهضت خيرية هانم، فدعت مبرورة إلى تناول الطعام. بينما ترددت الفتاة انتفض نادر: يا إلهي.. حتما ستتناولين الطعام. وبعد ذلك نذهب إلى إدارة المهاجرين.. تحدثوا عن جوزيده وناجية هانم إلى أن انتهى من الطعام. أخذ نادر بشرح ملاحظاته طوال تناول الطعام لكي يشرح سبب صمت أمه والفتاة. تركت خيرية هانم مبرورة ونادر بمفردهما بعد

تناول الطعام. صعدا مجددا إلى الغرفة بالأعلى. دق الباب بعدها بقليل، فإذا بصوت رجل مرتعش: أيمكنني أن أزعجكما؟

صاح نادر: آه.. أتى فخري. تفضل! دخل شاب. عندما رأى مبرورة دهش قليلاً، غضب قليلاً، سلم من مكانه، بعد هذا السلام نظر تارة إلى نادر، وأخرى إلى مبرورة. فلم يعرف ماذا يقول.. أغاثه نادر: صديقي فخري، حظه جيد.. اليوم أعرفك إلى فتاة من الأناضول، ستعجب لكثرة مزاياها. اقترب.. تبادلت مبرورة وفخري النظرات.

- صديقي الأناضولي الخالص فخري.. لكنه يعرف إسطنبول أكثر مني. غضب فخري تماماً فقاطع نادر بصوته المرتعش دائماً: لا تبالغ، سيد نادر، يا عزيزي.. وأمسك يد مبرورة التي مدت بها باحترام، فقدم نادر مبرورة أيضاً وحكى مغامراتها التي حفظها، وعندما علم فخري مغامرة الفتاة بدأ حديثه بـ "آه" .. دهشت مبرورة، فقال: آه، آه مبرورة هانم، لا تتخيلين، كم أنني أحب الأناضول. عندما أحلم ليلاً وعندما أستغرق في النوم أفكر فيها، وإن رأيت مساحات واسعة، أو أماكن ريفية، أو جبال، أو أحجار أتذكرها.. جئت من الأناضول إذن.. والله.. أقسم لك يا مبرورة هانم أنا محظوظ جداً لأنني تعرفت إليك. نظرت مبرورة إلى الشاب أمامها

بتعجب: شاب يبلغ من العمر السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، وجهه محترق، عيناه جاحظتان، جبهته مجمدة، رأسه ويداه وقدماه كبيرة، جسده مرتعش، شعره مبعثر، غير مهندم المظهر، وبنطاله غير مكوي. وهذا القدر من الحماسة في كلماته الأولى والصدق حتى عدم تكلفه، ومع كل هذا، وجهه الغاضب حين يتحدث، وصوته المرتعش، يعطيان شعورًا أنه طفل صغير. شاهد نادر دهشة مبرورة فابتسم: فخري متحمس جدًا. لا يحتمل كلمة على الأناضول. يتحمس على الفور. هو في الأساس معروف بعدم تحكمه في مشاعره. هو صادق حقًا. تبسمت مبرورة. لم تستطع عيناها مفارقة فخري. شعرت بوجوب قول شيء: شباب الأناضول صادقون. صادفت شبابًا مثلهم في مانيسا. ومحبوبون أيضًا. تحمس فخري: قضيت ستين في مانيسا. وهناك من أحب مناطق الأناضول لي. آه يا مبرورة هانم، شاهدت الغروب مرة في مانيسا ليلة خريف. لم تغرب الشمس بهذا الجمال في أفق آسيا. عندما تذكر مانيسا يحول بخاطري الغروب. مانيسا جميلة، جميلة جدًا يا مبرورة هانم، مانيسا كالحلم مبرورة هانم.. استجمع نفسه فجأة وسأل: ما اسم والدك يا سيدي؟

- إحسان.. بائع الخردة السيد إحسان.

- أعرفه..

ركزت مبرورة وخطت خطوة تجاه فخري، وصاحت بفرح: حقا؟

- نعم أعرفه، اشترت جماعتي وهي تمر من هناك بعض الأشياء من متجره، وكنت ضيفا في منزله ليلة، حتى إننا أحببنا بعضنا.. حاول الشاب أن يتذكر، فكر مقطباً وجهه ذا الرموش الطويلة وفكر: إن لم أخطئ، كنت في أزمير تدرسين في مدرسة أمريكية.

- نعم كذلك..

- أكان لديك مربية؟

- نعم.. مجبور قلقة.. المسكينة ليست على ما يرام الآن.

- حقا؟ أمانت هذه السيدة الطيبة؟ حقا كنت ضيفا في منزلكم. كنتم في أزمير، حدثني والدك عنك كثيراً. آه.. يا لها من مصادفة! تعجب نادر كثيراً وسار نحو الباب: دعنا لانتأخر على إدارة المهاجرين، لتحدث في الطريق، أنا متعجب أيضاً لهذا!

اصطحبهما فخري حتى جاغال أوغلو. كان يتبادل الأسئلة مع مبرورة وحكى ذكريات مشتركة. أدعشتها هذه المصادفات وأسعدتها في الوقت نفسه. نظر نادر إلى الصديقين الجديدين،

وضحك مقهقهها، وقال "سبحان الله"، وأبدى كلاهما رغبته في اللقاء مرة أخرى عندما ودع فخري مبرورة. قال نادر وهو يصعد سلم إدارة المهاجرين: فرحت لهذه المصادفة أيضًا. ذاك الرجل صديق رائع لك. لديه روح صادقة صافية كأنها تقطرت من الإنبيق. متحمس ومرهف المشاعر جدًا. اتصلي به في أيام حزنك.. لن تُخذلي، هو أيضًا..

- أ جاء المدير العام؟

أوماً الحاجب برأسه مصدقا: أتى منذ عشر دقائق.

- قل له السيد نادر شكيب أتى. ذهب الحاجب وبعد ذلك بقليل أخذ شاين إلى غرفة المدير العام. أصبح هم مبرورة مرتبطا أكثر بالمدير العام، فهذا الشخص التي أنصت إلى قصتها بصدق إلى النهاية سألها بعض الأسئلة، ودون ملاحظاته، وقال لها بضمان حماسته بالوعود التي أعطاها في لحظاتها الوخيمة: تأكدي أنني في خلال عشرة أيام سأوافيك بأخبار إيجابية أو سلبية عن والدك. فإن كان في إسطنبول يقرأ الإعلان المنشور في الصحف ويأتي، وإن كان تحت سيطرة اليونانيين، فمن الممكن الحصول على معلومات من الصليب الأحمر اليوناني هنا. أما إن كان في أنقرة فسأرسل برقيات إلى كل مكان في أنقرة، وسأتلقي حتما

إجابات، وتأكدي أنني سأبحث عن السيد إحسان كأنه أبي، وسأبحث عنه حتى أوافيك بجواب يطمئنك. شكرت مبرورة ونادر المدير وخرجا بشيء من راحة القلب. قالت مبرورة: وا أسفاه على الرجل.. رافقها نادر حتى منطقة تربة، ومال نحوها وهما ينتظران القطار وقال: أقول لك مجددا، سأكون صديقك المخلص. يمكنك اللجوء إليّ في أصعب لحظاتك، ولا تخطي خطوة دون أن تسأليني عن رأيي، فأنت في أصعب أيام حياتك. خطأ صغير يمكن أن يجرك إلى كارثة. وكوني حذرة لكلمة كارثة هذه، فأنا لا أبالغ مطلقا، فحقا خطأ صغير يمكن أن يجرك إلى كارثة. رجاء تذكري كلماتي هذه في أوقات كهذه. آتي لك وأراك. وأحضر معي فخري أيضا، فصدقة هذا الشاب ليست دون جدوى. يمكن أن نعطيك حماسة العيش في أوقات تشاؤمك، وأطير من الفرحة إن جئت إلى بيتي. مرّ بي عندما تأتين إلى إسطنبول. على الأقل ترين والدتي. فما دام ليس لك أم، فستقوم هي بهذه المهمة المقدسة بامتنان. آتي القطار.. اللافئة الخضراء: حربية.. وهو أيضا ليس مزدحما، حظك سعيد.. صباح الخير.. مع السلامة.. وليكن هذا حلقا في أذنك: احذري بهيج، وسيرات، ونيفين يا مبرورة هانم، وحافظي على قوتك. ضعي يدي تحت عينيك، وحافظي على جسدك وقلبك، مع السلامة..

- مع السلامة..

- سآتي غدا.. اركضي.. لكيلا يفوتك القطار.. نعم
سآتي غداً، وإن لم آت غداً ففي يوم آخر.. أوصلي سلامي إلى
هؤلاء الأوغاد.. مع السلامة..

تحرك القطار. نظرت مبرورة إلى نادر بأعين مبتسمة وهي تمد
رأسها من النافذة. عندما بقي الشاب على الرصيف بمفرده لم
يتحرك لبرهة، نظر خلف القطار وفكر: ستضم هذه الفتاة بعد
شهرين إلى مجموعة أشباه الفتيات، وستنسى والدها، وستصبح
من السلع القيمة لمنزل مدام بانايوتا في تقسيم، أيمن أن تكون
سلعة تذوق الشباب الذين يعجبون بطعم جسدها الوردى؟
أليس ذلك ممكناً؟ قرر أن يمنع حدوث هذه الكارثة بكل ما في
وسعه، ولكن لا يعرف بحال ما الذي يمكن أن يكون بوسعه.

عندما وصلت بيلما إلى منزلها في حي جراح باشا كان أذان
العصر في المسجد بالزاوية، وإذ بها ترى أخاها الصغير نور
الدين جالسا على حقيبته المدرسة أمام الباب يمضغ فئات
خبز. عندما رأى أخته لم يتحرك، ولم يتنسم، ونظر بعينين
دهشتين. مالت بيلما نحوه تداعبه على غير العادة، وسألته
وهي تمرر أصابعها في شعر الطفل المموج الأصفر: هل أتى

أحد من إخوتك نوري أو صالح؟

- لا أعرف. جئت لتوي من المدرسة. لم أصعد. خجل من أخته الكبرى، فحاول أن يخفي فتات الخبز التي في يده داخل قبضته الصغيرة. فتحت بيلما حقيبتها فوجدت ربع ليرة، فأعطتها لنور الدين وقالت: هيا، اذهب واشترِ الشكولاتة.

عندما أخذ الطفل تلك النقود كان متردداً كأنه يأخذها من غريب. استقام على قدميه النحيفتين اللتين تحملان جسده المتعب بصعوبة، وأخذ النقود، ومشى ناسيا حقيبتة عند عتبة الباب. لم تغادر عين بيلما نور الدين إلى أن عاد. ولاحظت اليوم أنها لأول مرة منذ سنوات أحبت أخاها بشفقة جعلتها تعض على أصابعها. دلفت فخطت خطوتين في الممر الحجري المظلم المتعرج ذي السقف المنخفض. تبادرت إلى أنفها رائحة زيت قوية ممتزجة بالبصل. هذا يعني أن أمها كانت في المطبخ. سارت بسرعة.. مدت رأسها من باب المطبخ الصغير، فوجدت أمها عند الموقد تقلي البصل بملعقة خشبية كبيرة في يدها، مرتدية تنورة عباءتها الشاحبة ذات "الشراريب" الحمراء. عندما رأت بيلما فعلت ما تفعله كل مرة.. رمقتها من رأسها إلى أخمص قدميها. أرادت قول شيء، لكن بيلما بادرتها: أمي، هل أتى أخي صالح؟

- في الأعلى.

بينما تسير ييلما نحو السلم نادتها أمها: خديجة.. وأبوك في الأعلى أيضًا.. غضب كثيرًا لأنك لم تأت أمس. لا تظهرى أمامه. لم تجب ييلما، صعدت السلم ببطء، ودخلت غرفة صالح. كان صالح يتجول في الغرفة بغضب، يده في جيبه، مقطب الحاجبين، ناظرًا إلى الأرض. توقف عندما رأى ييلما: أين كنت؟

- كنت أبحث عنك، ذهبت إلى المخفر.

- أكان هناك داع للبحث عني؟ ألا تعلمين أن هذه الأفعال تضرني؟

- من أين لي أن أعلم، خفت.

اقترب صالح من أخته وأمرها بصرامة: من الآن فصاعدًا لا يوجد شيشلي، ولا باي أوغلو. محرم عليك عبور جسر غلاطة، فلا يوجد بعد الآن، ولا نظمية، ولا نيفين، ولا بهيج، ولا سيرات وغيره. وإن صادفت أحدهم في الطريق لا تسلمي عليه. لا يجب أن يراك أحد بعد الآن في باي أوغلو وشيشلي. سأعاملك بسوء إن سمعت شيئًا كهذا. المرور بتجربة سيكلفك الكثير. انتبه جيدًا من الآن.. تجولي في حي صولو كولا، ولا تتجولي في باي أوغلو. اذهبي للماء العكر، لا تذهبي إلى بيت شيشلي. عودي إلى صوابك.

لم تتفوه بيلما بكلمة. لم يكن صالح غاضباً، لكنه إن شعر بثورة بسيطة في عزة نفس أخته، وبادرة تمرد صغير؛ جن جنونه. تعلم بيلما أطواره كلها. فضلاً عن الاعتراض، فلا بد أن تنفذ أوامره.

- لقد قلت لنظمية هانم ونيفين أيضاً إنني لن أذهب مجدداً أبداً.

- خيراً فعلت.. إن لم أنسف بيت الفاحشة هذا، وأجعل هؤلاء الأوغاد عبرة للناس، فلا أكون رجلاً.. وسأؤكد لهم، ولا سيما بهيج هذا، مكيدة.. أممم..

هز صالح رأسه، وعض شفتيه، وأخذ يحرك فكيه كما يفعل دائماً لإظهار حقه.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟ تقصدين أنني إن أردت فلماذا لا أفعل؟ لا تنظري إلى أنني أبدو هادئاً معظم الأحيان فاسمي دائماً معروف بـ (صالح حي جراح باشا)^(١).. الطبع يغلب التطبع.

- أستلطخ يدك بالدماء؟

(١) الحي الذي يعيش فيه.

- اصمتي الآن. هناك مشكلة. غضب أبي منا، التقيت به في الردهة، لم ينظر في وجهي، ولم يقل شيئاً، غالباً لأننا لم نأت إلى المنزل مساء أمس..

- أيجد هذا ليلة أمس فقط؟

- كيف لي أن أعرف؟ غضب الرجل وحسب.. يبدو أن صبره نفذ. بينما كان يريد أن يبدو كهلاً متحضرًا بدا طالب مدرسة بالفعل.

فكرت بيلما قليلاً: لكن لديه حق..

- بالطبع لديه حق.. لو حبسكِ في هذا البيت، ولم يخرجكِ إلى الشارع، ويرسلكِ للهو في شهباده باشي، لما حلت هذه المصائب.

- فأصبح حينها فتاة بلهاء.

- كونكِ بلهاء خير من كونكِ مجنونة.

- أنت المجنون.

- إن لم أفقد صوابي فلا يوجد أعقل مني، وإن فقدته فلا يوجد أجن مني. لن دَعِ الثروة. أنهى الكهل صلاته غالباً.. سمعت صوت قدمه في الردهة، يبدو أنه قادم إلى هنا، قولي له (أبي العزيز..) وما شابه، قبلي يديه، وابتسمي في وجهه..

تُحجّجني له بحجة ليسكت عنه غضبه. نحن في حاجة إليه، أنا وأنتِ اليوم. فأنا لا أملك شروى نقير. الوضع سيئ..

- إن كان أبي غاضباً فلا تبسم في وجهه؛ لن يكون جيداً؛ سيغضب أكثر.

- أنا لا أعرف.. أوجدي حلاً..

اقتربت أصوات الأقدام القادمة من الردهة. نظر صالح وبيلما إلى بعضهما.. فُتح باب الغرفة ببطء؛ فدخل رجل يضع لوحاً على كتفيه، وعمامته للوراء، مشمراً عن ساعديه، مداعباً لحيته الشقراء. جلس على كرسي دون أن ينظر إلى وجه ابنه أو ابنته. وكان وجه ذلك الرجل هادئاً لا يبدي استعداداً للعبس، باسم؛ ولذلك كان يحاول أن يظهر متعصباً. فنظر إلى صالح وقال: يا ولدي، جئت لأتحدث إليك جدياً. وقف صالح احتراماً لأنه قرر أن يحترم أفكار أبيه كلها مهما سمع من كلمات لاذعة.. حاوت بيلما أن تقلده.. مال رأس السيد مصطفى إلى الشمال قليلاً، فاستند إلى الكرسي أكثر، صوّب عينيه تجاه رسمة السجادة على الأرض، وبدأ في كلماته التي أعدها في البداية: أنصت إليّ كلاهما.. ما أقوله يخصكما، وقراراتي حاسمة. اقترب صالح من أبيه، وألان له الحديث قائلاً: يا أبي، أقلت شيئاً لم نفعله؟

بإدال السيد مصطفى ابنه النظر وواصل: لا داعي للدبلوماسية. هذا المنزل ليس شقة، ولا فندقاً.. نحن هنا في حي جراح باشي، وكل من يسكن هذا المنزل مسلمون ومؤمنون، فلا أحب التسكع، ولا مخالفة العادات والتقاليد، وأكره التبرج. وينبغي لمن يسكن بيتي ويأكل من طعامي ألا يخرج عن القواعد التي وضعتها.

- لمن تقول هذا يا أبي؟

- لمن سيكون؟ لك، ولها.

- ماذا فعلنا لك، أقللنا من احترامك؟

- ماذا يمكن أن تفعل أكثر من ذلك؟ لا تأتيان سوى يومين أو ثلاثة في الأسبوع، فغير معروف إلى أين تذهبان، أين تمكثان، في هذا الحي لا تُرسل الفتيات العذراوات إلى حانوت الببدال حتى، وهي لا تأتي إلى المنزل.

- حسناً يا أبي، لكن خديجة لا تفارقني..

- وما دخل هذا؟ أنت جاحد، ولا تصلي، إن قلت لك

قل الشهادة تتعجب. ليس لك سوى الراقي، والخمر، والنساء، والجنك، والموسيقى، وحدث ولا حرج عن النقود.. ها أنت ذا: أتى استدعاء من المحكمة أمس، مبعوث المحكمة يبحث عنك،

والشرطة، وإمام الحي، والحارس، والبدّال. بعضهم يرغب في استدعائك إلى المحكمة، وآخرون إلى القسم، وهناك من يرغب في أن تقضي إليهم ديونك. أنت خير رفيق لترافق خديجة؟

- أبي، أنت تبالغ!

- أنا لا أفترى كذبا.. انتظر قليلاً سيأتي الإمام مجدداً، اقترضت ليرتين ولم تردهما منذ شهرين.

- ليس ليرتين؛ وإنما مئتان وخمسة وثمانون قرشا.

- تبا لهذا.. لا يلزمني هذا. كلمتي الأخيرة لكما الآن. أين تذهبان عندما لا تأتيان إلى المنزل؟ من أين لكما بمصروفات الملابس والزينة هذه؟ أأدير أنت صالة قمار أم ملهى؟ أم أنك تعمل منادياً؟ ما شأنك والشرطة. قل لنرى.

صمت صالح. وفطن أنه لن يخدع أباه بضمان مداعبته. يبدو أنه تناهت إلى مسامع الأستاذ أمور سيئة. نظر إلى بيلما نظرة. وعندما علم أنه لا فائدة من أمله في مساندة أخته أجاب قائلاً: الكارثة أنك تصدق ما يقوله أهل المدينة وتلوم أولادك. وتعلم كم أنهم ينسجون الأقاويل في حقك.. ألم يقولوا: (لا ينجل من عمامته وينظر إلى فتيات الحي)؟ ألم يروك العام الماضي وأنت تتحدث إلى حسناء ابنة بائع الأقمشة في طريق

القطار ولم تنته أفاويلهم ستة أشهر؟ أتت الشرطة تبحث عني في أمر عادي، وأتى استدعاء من المحكمة، فماذا حدث؟ أما عن مجيء الإمام، هل أخذ منا رجل ديوث بضعة نقود؟ يأتي دائماً أمام البيت من أجل مئة قرش، سأوسع وجه نمرود الملعون ضرباً في الزاوية. ما زال الكلام الذي قيل عنك العام الماضي يتردد في أذني.. ألم يُقل: (السيد مصطفى عار على حيناً!)؟ جاء صالح لنقطة ضعف أبيه مستفيداً من كراهيته للإمام. وكان السيد مصطفى معروفاً (بأفكاره المتفتحة)، ومشهوراً بمطاردته للنساء، وتبذيره، ومعاندته.. حتى عندما كان يتحدث الإمام عن السيد مصطفى.. كان يقول: (معلم منفتح)، وهذه الكلمة تعني أنه متجدد الفكر. وكون السيد مصطفى اتحادياً متطرفاً زاد من جدارته بهذا اللقب. وبجانب هذا، فعدم اكترائه بتربية أولاده، وتركهم أحراراً، واستمتاعه بالمعازف في منزله، وعقد الحفلات، وترديده للغزل كل مساء أمام النافذة، أذاع صيته السيئ في جراح باشا لكونه معلماً منفتحاً. أكمل السيد مصطفى حديثه دون أن يحرك رأسه وعينه في الأرض: ليس هذا موضوعنا الآن.. دعنا نتحدث عن وضعكما. أعطوني جواباً نهائياً، هل ستعودان إلى المنزل مع أذان العشاء؟ أم ستسكعان مجدداً في شوارع شيشلي؟ إن حدث هذا فإما أنا وإما أنتما في هذا المنزل!

- أبي العزيز، رحيلنا عن المنزل يكون مرة أو مرتين في الشهر على الأكثر.. ونذهب إلى أسرة السيد نافع.. وهي أسرة شريفة متدينة.. وسبق أن قلت لك مرة إنه لم يُصادف في أي مكان في هذا العالم أسرة شريفة كشرف هذه الأسرة. لم تر؛ لذلك لا تعرف. ماذا لنا أن نفعل؟ نحن شباب، ودماؤنا نشطة، ودائماً ما كنت تقول إنه لا يوجد أحد في الجوار لنقابله ونتحدث إليه. وإن عزفنا في منزلنا يُقال إننا لسنا من هذا الحي. نذهب بين الحين والآخر ضيوفاً عند الناس، فماذا نفعل؟

نظر السيد مصطفى إلى ابنه متعجباً، وابتسم، فلأول مرة يسمع كلام الكبار هذا من ابنه، ترك عصيته الأولى وقال: أنت متشرد، تركت التشرد وتحدث اليوم سيداً محترماً، هزمتني على الأرجح. ابتسم صالح وبيلى ابتسامة النصر المبين. قال صالح بقليل من عدم الاكتراث: عجباً لك أبي.. معمم، لكن لست برأس غافل. مشهور بأفكارك الجهنمية. نحبك أكثر من أجل هذه المزية. تعلم ما الشباب. ليس بوسع أمي إنهاء الحديث عن مطارداتك للنساء قبل أن تطلق لحيتك. نصبت على إسطنبول، وما زلت تنظر إلى الفتيات، وهن أيضاً يعجبن بك.

ضحك السيد مصطفى: فهمنا، لكن يا سيد صالح عندما كنت شاباً لم أتمتع مثلك. ألم يعرف الجميع....

- أعرفوا ما نفعل؟
- أهنالك من لم يسمع بعد، أهنالك ما لم يقولوه بعد.
- يا رجل، هم يتحدثون عن الجميع.
- يا عزيزي، أنا لا أفهم طريقة حياتك هذه وحسب..
- الاستمتاع في زماننا كان من نوع آخر، مثلاً كنا نجهز للذهاب إلى ألما داغ يوم جمعة، فكنا ندبر مصاريقنا قبل ثلاثة أيام. نعد المحاشي في موسم الباذنجان من زيت إدرميت الخام، ونجهز الحلوى، ونستأجر سيارة مهاجرين من حيدر باشا، فيركبها عشرون، ونصطحب معنا الساحر برتقال أوغلو والراقصات، فيأتون ستة، فملاً الزجاجات بمشروب الأمورجا، ونذهب مغنين أغنية (ميمو). ندخل، ونستمع، ونفعل كل شيء. وعندما نعود إلى المنزل مساء نشرب النعناع لنغسل فمنا، ونذهب إلى المسجد مجدداً، ونقبل أيادي كبار الحي، ولا نظهر مطاردتنا للنساء.
- هذا الزمن شيء، واليوم شيء آخر..
- لماذا يختلف؟ أما عادت ألما داغ موجودة، ولا يأتي موسم الباذنجان؟ ما زال هناك زيت إدرميت. برتقال أوغلو ما زال حياً، وسيارة المهاجرين متكدسة، وهناك أمورك أيضاً، وأغنية (ميمو) لا تُنسى، الحي حي، والمسجد مسجد.

- هذا صحيح.. ها نحن ذا.. لا نفهم هذه الأذواق.

- هذا من غبائك، لكن دعك من الحديث، لدي فكرة. أريد الخروج من المنزل. اقترب صالح من أبيه واحتضنه وقال: رضي الله عنك يا أبي، لأقبل لحيتك، صح قولك، أليس كذلك؟ برم السيد مصطفى شاربه وضحك: أعجبك هذا، أليس كذلك يا متشرد!

قالت بيلما التي لم تتفوه بكلمة حتى هذه اللحظة: هذا جيد!، لكن السيد المعلم كان يرغب في قول شيء. نظر في وجه صالح، فلم يجرؤ، وقال في النهاية: نحتاج إلى ستين ليرة. أفلت صالح ذراعيه وقال: لماذا ستون ليرة يا أبي؟

- وجدت منزلاً في إسحاق باشا. إيجاره عشرون ليرة، يريد ثلاثة أشهر مقدماً، لكن سيرضى بشهرين وعشرين ليرة لزوم الانتقال.. إن وجدت هذا القدر من المال نتقل على الفور، وإلا فلن نخطو خطوة إلى مكان آخر غير هذا الحي. نظر صالح حوله. كان ما يرغب فيه منذ سنوات هو الرحيل عن هذا البيت. كان يقول دائماً: حظيرة السلطان أنظف من هذا المنزل، وكان يتعارك مع أمه وأبيه ويحفظهما على الرحيل عن هذا المنزل، وكان كثيراً ما يذكر غرفته، فكم

تحدث عن سقف الغرفة الذي لم يصلح جيداً ، فتسلل ماء المطر من جدران الغرفة، وترك بقعا سوداء، وتراكم الرطوبة، والكروت المعلقة على الجدران، وثقوب الجدران التي حاول تغطيتها بالصحف الكبيرة ذابت من الرطوبة، وأصبحت رخوة، وإذا لمسها بأصابعه تتفتت، فقد وضع رسوما ذات ألوان زاهية لجرائد البيغاء القديمة وبعض الكروت، والصور على جدران الغرفة، فكان صالح يثبت صورة في يده بمقمع على الجدار، فلم يهتم كون الصورة الجديدة غطت نصف الصور القديمة. ينظر مشمئزاً من الغرفة التي أصبحت مثل أماكن المنجمين، يضم قبضته ويقول: إن رحلنا عن هذا المنزل سأضرب هذا الجدار لأكسره.

- كرر أبوه: ستون ليرة.. نحتاج إلى ستين ليرة.

إيجاد هذا القدر من المال أمر مستحيل لصالح، لكنه لن يستطيع التصريح بهذا لأبيه، يخشى أن يثير غضب الكهل، فإن قال: أعطيك! يصبح كاذبا على الفور. لكي يجيب جوابا بين هذا وذاك قال: ليس ستين ليرة فقط إن لزم مئة وستين سأحاول إيجادها. لكنني أفكر من أين لي تدبيرها.

- إن أردت تجدها.

- فهمت، لكن هناك ركود في السوق الآن. فلا يوجد أموال.

- لا تختلق أعذارا.. إن كان أمرا للمنزل تتبرم، وإن كان أمرا لك تجد حلا سريعا.

- لم نقل إننا لن نجد، لكننا نفكر من أين سنجد. إن تضممني أخذها من الصراف فاسيل.

ضحك السيد مصطفى متعصبا: أوف.. انظر إلى الحكمة.. تأخذ أنت المال، وأنا أضمنك! ها أنت ذا الابن الحكيم للأب الأحمق! لو كنت أرغب لأخذت؟ قام السيد مصطفى ووضع لوحته على كتفيه وسار نحو الباب، ونظر إلى الأخوين شزرا، وقال: افعل ما تفعلان، دبرا هذه النقود، وإلا لا تأتيا إلى هذا المنزل.

- نبحث.

خرج المعلم المفتاح السيد مصطفى من الغرفة، وتبادل الأخوان النظر لوهلة.. فكرت بيلما قليلاً: أدبر أنا عشرين ليرة.

- من أين؟

- قلت أدبرها..

صعد صالح إلى مضجعه، وتمدد على ظهره، وشرذ ذهنه مدة، ولم يتفوه بكلمة. اعتدل على السرير بعد ذلك، وأشعل سيجارة. ونادى بيلما: اجلسي هنا.. أود أن أتحدث إليك. لدي خطة محكمة جداً. سأخبرك بها. وضعت بيلما كرسيها عند

رأس السرير، وأشعلت سيجارة أيضا، واستندت بمرفقها إلى الوسادة، وأغمضت عينيها نازرة إلى الدخان المنبعث بكثافة من فمها، وقالت: أخبرني.

عندما خرج بهيج وسيرات من القصر سارا نحو التبة. الشوارع خاوية. شبكا ذراعيهما، فحكى سيرات آخر مغامرة له مع جوزيده: شيء عجيب، كأنها لم تقاوم قط.

- كان من الواضح أنها ستسلم لك، قرأت الرغبة في نظراتها، على كل أنت الرجل عديم الحيلة الذي تخيلته.

- فهمت، لكن لم يخطر ببالي أن أعتدي عليها. أردت أن أحضنها بين ذراعي قليلاً، رأيت أنها ثارت جداً، وارتعشت، على الأرجح فقدت نفسها، آه.. ليتني وقفت عند هذا يا صديقي..

ضحكا. رفع بهيج عصا في الهواء وضرب الأحجار: لم يتسم لي الحظ مثلك. أضعت الفرص بسبب أخطاء ساذجة، وهفوات تافهة. لم يعد لدي ثقة بنجاحي في هذا الأمر بعد الآن. مبرورة مخلوقة غريبة يا عزيزي.

- ليست غريبة، أكثر جدية.. لم تنسجم مع محيطها، ولم تستغف. على الأرجح لن تمر الخطط التي تطبق على بقية النساء.

- هذا صحيح، أنا أيضاً أفكر في الأمر نفسه.
- هذا الفتاة تحتاج إلى الحب. قلبها ضعيف. أصبحت حساسة أكثر لما مر بها من مصائب. وأنتَ أمامها رجل مطارد للنساء.
- نعم، أخطأت.
- مع أنك كنت تبدي أنك بريء وذو مغزى، وهذه هي النقطة المهمة..
- لديك حق. أدهشني الاعتياد. ظننت أن مبرورة فتاة محترمة. لكن! لكن! حدث شيء مختلف تماماً.. فقدت أباهما، وذهبت إلى مدينة لا تعرفها، وأصبحت مجبورة على العيش في محيط لا تألفه.. فيمَ تفكر؟ وماذا ترغب؟ ألا يجب التخلص من هذه الحياة المضطربة قبل أي شيء؟ تعلم مبرورة جيداً أن نهاية هذه الحياة سيئة. وبناء على هذا، ترغب في التخلص منها أولاً.
- التخلص والذهاب إلى أين؟ لا شيء! ليست فتاة ناجحة وكادحة لتبحث عن عمل في المحال والأحياء وتجده.. لن تتمكن. هي مجبورة على الجلوس حيث هي.. على أمل أن تجد والدها.. وإن تلاشى هذا الأمل، ألن تكون مجبورة على مواكبة محيطها؟

- ستدافع عن نفسها.
- كم حاولت. لكن إلى متى؟
- يمكنها دائماً. لن تذهبها أمك من المنزل لكيلا تحزنك..
- يا عزيزي، أيجدث أمر بالإكراه؟ التصرف مع هذه الفتاة بالقوة خطأ. إن غضبت تذهب، تجوع، وتعيش فقيرة ولا تأتي لنا مجدداً، هذا معروف.. لكن دائماً لدى مبرورة أفكار خفية.
- مثل ماذا؟
- ألن تتتهز هذه الفرصة لإيجاد زوج مناسب لها؟ فهذه رغبة طبيعية لأي فتاة. لو كنت مكانها لبحثت عن زوج مناسب. بالنسبة لي الرغبة الأكبر لمبرورة هي إيجاد زوج.
- ممكن.
- بالتأكيد كذلك. ترغب في زوج مثلها، مهذب، مرفف، ذو قلب طيب، ويكسب قوت يومه بما يكفل أسرته..
- هذا ما ترغبه كل فتاة.
- صحيح.. الفتيات على فطرتهن يكرهن الرجال الطائشين، السفهاء، قليلي الحياء. وعندما يتزوجن أمثالهن يعلمن أنهن سيئات الحظ. لذلك لم تعجب بي من أول نظرة.

قالت وسيم لكن سفيه. عظمت هذه الفكرة مقاومتها لي. لا بد الآن من تغيير الخطة والبحث عن حل يبدو عاقلا وورصينا للفتاة. سيكون من الجيد منع ييلما وصالح من المجيء. سيكون له تأثير حسن على مبرورة، لا سيما أنها تكره الأخين هذين.

- لا أعرف. لا أتوقع أن يديك هذا أكثر تعقلا لمبرورة. مسألة تضحية بسيطة.. دور صعب..

- صعب، لكن سأقوم به! ليست مزحة، هذه الفتاة تشعل اللهب في عروقي. أشعر بالوهن في نفسي. تعبت من النساء الزائفات المخادعات في هذا المحيط. يروقني الانشغال بفتاة قليلة الخبرة، نقية، عنيدة مثلها. أما بعد فهذا شيء جميل يا عزيزي.. عندما أدخل غرفتها ليلا، وتثور للحظة بين ذراعي، تضطرب عيناها ويتناثر شعرها إلى درجة أنه لا يزول من رأسي إلى الآن، لست مستعدا للحب، لكنه أثر في يا عزيزي.

- يبدو أنك عاشق، لا يوجد مانع، لم تر مقاومة من فتاة إلى الآن بهذه الدرجة، وهذه المقاومة هي ما تضعفك.

- لا أعلم، لكن أكثر ما يسعدني الآن هو التفكير في مبرورة، أكثر ما يسعدني، دون شك، أو مبالغة.. هذا التفكير يؤنس رأسي، يغيرني، يستحوذ على ساعات من يومي، يؤرق مضجعي عدة مرات..

- صحيح، يا صديقي.. تحكي عاشقا.
- لا تجزع.. أظن أنني أثبت غير مرة أنني غير مستعد للوقوع في الحب.
- لكن هذه المرة.. تبدو أكثر استثارة.
- سار الأخوان يفكران. كان أحد أيام الخريف الذابلة. يقف الجسد الحجري العاري للنصب التذكاري في الأفق الشاحب الضبابي باهتا غير واضح. يتوارى عن الأعين خلف كومة غبار من الأرض بين الحين والآخر. لم يكن هناك أحد في الطرقات. سأل سيرات: كنت تقول منذ أن خرجنا من القصر أن مسألة السلطان بيدوسيان ستكون وبالا على صالح.
- بالتأكيد.
- لكن جال بخاطري منذ قليل، أظن إن نجا صالح من هذا الموقف ستصبح أنت في خطر محتم. أنا أخشى من صالح على نفسي.
- أعلم أن صالح امرؤ يُخشى منه، لكنني سأقيده. نجاته مستحيلة.
- ترى هل هو الآن في مخفر الشرطة؟
- خرج من المخفر، لكن هذا لا يهم. سأطلبه في محكمة الجنايات. وجدت حلاله.

عاد الصديقان قبل الوصول إلى التبة راغبين عن السير أكثر. صمتا حتى وصلا إلى الشارع، بدا على كليهما التفكير، فسارا متخبطين. مد سيرات يده إلى بهيج في طريق القطار: تأخرت على البنك اليوم. لم أذهب منذ عدة أيام. إن وصل إلى مسامع الرئيس تقاعسي عن العمل سيكون الوضع سيئا..

- مع السلامة. أنا أيضًا سأعود إلى المنزل. أتمدد قليلاً وأقرأ الكتاب. أريد أن أرتاح. مر عليّ غدا. وإن لم نلتق في النادي تعال إلى المنزل. افترق الصديقان بعد أن تبادلا نظرات الإرهاق.

مر بعد ذلك عشرة أيام. تغير الوضع في القصر في الأيام العشرة تلك؛ أصبحت نظمية هانم التي لم تكن تمكث في المنزل لا تغادره طيلة اليوم، تنزوي في غرفتها وتشغل نفسها بنسج الملابس. لم تعد نيفين تستقبل الضيوف أيام الخميس. أرسلت إلى أصدقائها المقربين تخبرهم أنها أوقفت الدعوات بسبب ألم الرأس؛ لذلك لا تمكث في المنزل مثل أمها، تخرج بعد الظهر، وتعود إلى المنزل في وقت متأخر، وبدت على وجهها علامات الكدر، وبدت متوترة، تغضب لأتفه الأمور، تنتقد الجميع، حتى إنها تضرب كلبها نابليون الذي تحبه بين الحين والآخر. واستقال بهيج من نادي القمار، وقال إنه يرغب عن لعب

القمار، يخرج مع سيرات عندما يأتي، وعندما لا يأتي ينزوي في غرفته، يظل هناك ساعات دون أن يشعر. أصبح متودداً إلى كل من في القصر فجأة. حاول أن يهدئ من روع أمه وأخته، فكان محترماً تجاه مبرورة. ينصت إلى الفتاة دائماً، ويبدو أنه يهتم لما تقول. وكانت مبرورة مسرورة من هذا التغير الذي حل بالقصر، فكم كانت تحتاج إلى هذا الهدوء. أصبحت تجد الوقت لسماع نفسها، واستجماع أفكارها، واستعادة ذكرياتها. وكانت تساعد نظمية هانم أحياناً في الحياكة، فكانت تدهش لجلوس هذه العجوز الشمطاء في غرفتها وعملها هكذا في صمت، فقالت ذات يوم: سيدي.. كم أن العمل في صمت جيد! اشتقت إلى هذا الهدوء في حياتي. أردت أن أعانق الراحة. انتعشت نظمية هانم فجأة وقالت: يا إلهي، اصمتي يا بنتي.. داخلي يفيض بالحزن، لست ممتنة لهذه الحياة. ليت بعض المواقف غير الملائمة لم تحدث.. ليت الأحاب ظلوا يأتون أفواجا. تحول المنزل إلى قبر. نيفين لا تجلس في المنزل، وإن جلست يظل وجهها عبوساً، وبهيج لم يعد بهيج المرح الذي كان عليه، حتى أفدوكسيا تهرب إلى بيتها، ونابليون ذهبت عنه وسامته السالفة، وكل من فعل هذا هو صالح الكافر. خدعتُ بيلما، لكنني لم أنجح في حادثة صالح. والآن لا أقوى على تأسيس حياة جديدة.. اعتدناهم. كنت أحب ناجية كروحي. ولا أفرق

بين جوزيدة ونيفين. كذلك بيلما كانت تسلينا. وكان السيد نظام الدين عذب الكلام. يعلم آداب من تجول في الدنيا كلها، والأصول، والكلام، والتعامل.. أصبحوا جميعهم لا يأتون.

- لماذا لا تأتي ناجية هانم؟

- لا ندرك هذا.. ماذا حدث؟ عقلي لا يستوعب..

- السيد نادر لا يأتي أبداً.

قاطع بهيج الذي دخل فجأة حديث نظمية هانم: أمي.. نصبت فخا لصالح.. كل الصحف غداً ستكتب عنه في مقالات كبيرة: احتمالات متشرد.. قضية السلطان بيدوسيان. أَلقت نظمية هانم الملابس التي تحيكها جانباً وصرخت: أحقاً؟

- أتيت للتو من إسطنبول. أتجول في طرقات المحكمة منذ أسبوع، أجاهد لإيجاد أوراق صالح. والوثائق كلها معي الآن. لن أذل ذلك الملعون فقط؛ بل سأزج به في السجن. وبينما بهيج يتحدث، تقطب وجه أمه، وضافت عيناها بالقلق وهمست: لكن لا أعرف.. أمر غريب.

صاح بهيج بغلظة: لا يوجد ما نخشاه.. نحن في مدينة متحضرة.. لن يقتلني.. ونظر بعد ذلك إلى مبرورة ومال نحوها قليلاً، وسألها بهدوء: ما رأيك؟ أَلستُ محقاً؟

- أنا لا أعرف المسألة..

اقترب بهيج قليلاً من الفتاة وظل واقفا ومتوددا إليها وقال: قولي رأيك في صالح إذا سمحت؟ ما الانطباع الذي تركه لديك؟ لم تجب مبرورة عن السؤال على الفور؛ لأن فكرتها عنه كانت عامة، وكان لديها الفكر نفسه عن كل من يقدم إلى هذا البيت. إن لزم أن تعبر عن مشاعرها كانت ستقول: كل من في البيت تركوا انطباعاً سيئاً لديّ. فماذا أفعل؟ أجبرت على الوجود معكم. والحمد لله أن منذ عدة أيام لم يعد لدى الجميع الصراعات التي كانت من قبل، لو استمر هذا الوضع لأصبح انطباعي عنكم سيئاً جداً.. ولم يكن غير متوقع ما كانت تفكر فيه الفتاة في صمتها هذا. فطنت الأم وابنها لذلك المعنيجيداً، فأعاد بهيج السؤال: من بين الشخصيات التي رأيته هنا، أوجد أسوأ من صالح؟ انتفضت الفتاة فجأة للتغير الفجائي لصيغة السؤال، وتنبهت، ووافقت على الفور: آه بالطبع، بالطبع.. لم يكن ذلك الشخص يليق بالمكان.

- فكري، فذاك الملعون يأخذ شهادة شخصية رجل آخر زائفة، فيبيع منزلاً باسمه، ويأكل نقوده، وبعد ذلك يأتي إلى هنا يتمطى. ليتني كنت أعرف ذلك منذ البداية، أكنت أدخله هذا المنزل؟ قاطعت نظمية هانم حديث ابنها: أكل الصحف ستكتب؟

- نعم، كلها. غير بهيج الحديث فجأة وقال: أمي.. لديّ خطب مهم لك. رأيت ناجية هانم اليوم.
- ناجية هانم؟ آه.. قل أين؟

- في أمين أنونو.. وكان بجوارها رجل سمين، أوقفتني سريعا وقالت: من الجيد أنني صادفتك، هناك أمور مهمة سأخبرك بها! قالت إنها ستأتي مساء مع أن لديها الكثير لتنجزه، وإنما لا يمكنها الحديث في الشارع.

- هل ستأتي؟

- ستأتي.

- ستظل حتى المساء؟

- دعوتها على العشاء. ربما تظل إلى المساء.

- طبعاً ستبقى.. آه.. هل كانت غاضبة؟

- على كل، كانت تبدو متعصبة. عندما أتت أمامي دهشت إلى درجة أنها جذبتني من طرف سترتي. وتعصبت لتصرفها هذا أيضاً.

- هذا أمر مهم حقاً.. منذ قليل كنا نتحدث إلى مبرورة عن ناجية، فكانت الفتاة تسأل لماذا لا تأتي؟ قامت نظمية هانم،

فأشارت بعينها لبهيج خلال خروجها. انزوت الأم وابنها في زاوية الردهة. نظرت الأم إلى عين ابنها وسألته: قل، أعلمت ناجية هانم بالأمر؟

- أظن.

- من أين لك بهذا الظن؟

- كانت تبدو متكدرة، ليتني لم أسر وأذهب.. كنت سأسمع أمورًا مؤلمة، كان مفهومًا من وضعها. يبدو أنها حكّت الوضع لأم جوزيده.

- حسنا.. بماذا أجيب هذه السيدة الآن؟

- لا أعرف.. لكن.. ما علاقتك بهذا الأمر. ليس لناجية هانم الحق أن تستاء منك. قولي: "ما كنت أعرف، وعلمت بعدها. أخفى بهيج وسيرات الأمر عني؛ حينئذ يقع السوء علي."

- هذا يا جيد.. جيد، لكن ماذا ستجيب أنت؟

- وما شأني أنا يا عزيزتي؟ وجوزيده بلغت السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، فهي راشدة، تفرق بين الصواب والخطأ.. حدثت بينها وبين سيرات واقعة، فما دخلي أنا؟ لذلك سأطلب البنك، وأدعو سيرات إلى هنا. لتحدث إليه في الأمر قبل مجيء ناجية هانم.

- لا، لا، لا تجزع، فلتأتِ السيدة أولاً، ولنعلم مرادها. بعد ذلك نتحدث إلى سيرات.

- تعلمين. على كلٍّ، سنكون واسطة للإصلاح بين الطرفين في هذا الأمر. "صعد بهيج إلى غرفته، ونزلت نظمية هانم إلى الحديقة، وكانت نيفين في الحديقة، عادت لتوها إلى القصر؛ تطعم كلبها اللحم، وكانت تتغنى بأغنية فرنسية. عندما رأت الأم ابنتها: أأنتِ هنا؟ تعالي، هناك أمر مهم.. فحكت لابنتها الأمور التي أخبرها بها بهيج، فلم تولِ نيفين أهمية لأمر صالح، لكنها قلقت عندما علمت مصادفة ناجية هانم لبهيج، تركت كلبها، وظلت تفتح وتغلق حقيبتها الفضية التي ما زالت تمسكها، وبدأت الحديث قائلة: حقاً أمر مهم، حقاً أمر مهم.. كانت تفكر أنه إذا علمت ناجية هانم ما حل بجوزيده فستحزن بالطبع، وستحاول إعطاء ابنتها لسيرات. إن وصل الأمر إلى المحكمة ستكون هذه هي النتيجة. كانت نيفين قلقة، ليس لأنها تحقد على جوزيده؛ ولكن لأنها ستخطف من بين يديها عاشقاً رائعاً كسيرات. إن أصبح سيرات مجبراً على الزواج بجوزيده قدراً ستشعر نيفين بالضجر من محيطها؛ لأن الجميع ظن أن السيد سيرات الذي يعمل في البنك التجاري يحب نيفين هانم نجلة السيد نافع مستشار السفارة. روجت

نيفين لمن لا يعرف سر القصر. صاحت فجأة: لا يوجد إثبات..
على علاقة جوزيده وسيرات.. كيف لناجية هانم إثباتها؟
- أين؟

- في المحكمة.

- من أقحم المحكمة؟ لن يرضى سيرات باللجوء إلى
المحكمة في هذا الأمر، ولا أنا.. أتريدين أن يعلم الجميع أن هذه
الوقاحات حدثت في منزلنا؟

- وإن لم يحدث؟

- حينئذ يُحل الأمر وديا.

- وديا؟

- لا بد أن أقنع ناجية هانم.

هزت نيفين رأسها يائسة، وأخذت تداعب رأس كلبها
الذي بسط ذراعيه، وتفكر. جن الليل، وكان كل من بالقصر في
الحديقة. أخبر بهيج أمه بأن ناجية هانم فتحت باب الحديقة
ذات السياج. وعندما التفتت نظمية هانم رأت ناجية هانم
تسير نحوها بخطوات حادة، حازمة كالخطوات العسكرية،
فقامت، وفتحت ذراعيها كأنها تريد أن تحضن صديقا لا تقوى
على شوقه وصاحت: أين أنتِ عزيزتي، لماذا غبتِ كل هذا؟ ما

كل هذا الجفاء؟ بالله عليك! لم تقابل ناجية هانم هذا الاستقبال اللافت بالحرارة نفسها. اقتربت بالخطوات الجادة نفسها، وانتزعت نفسها من بين ذراعي نظمية هانم التي كانت ترغب في احتضانها، وهمست للجميع قائلة: "مساء الخير".. وبعد ذلك نظرت إلى نظمية هانم مقبضة الوجه، وقالت على نحو رسمي: أريد أن أتحدث إليك على انفراد.

- آه، هيا لدخل.

- لا، سأذهب على الفور، لتحدث هنا. "وكانت رغبة ناجية هانم حتمية، فقام بهيج ونيفين ومبرورة الذين فطنوا لهذا، ودخلوا القصر ليتركوا السيدتين بمفردهما. همست نظمية هانم ناظرة إلى وجه صديقتها المحمر وعينيها اللتين جحظتا من الغضب قائلة: كان يجب أن ندخل.

جلست ناجية هانم على أحد كراسي الحديقة الحديدية، خلعت الدبوس من عباها وتنفست بتعب وقالت: أنا مستاءة منك.

- ماذا بك؟

- تعلمين ما حدث. دعك من الدبلوماسية ولتحدث بوضوح. كانت هذه لحظة مهمة لنظمية هانم. كان لا بد لها أن تنجح في أن تبدو أنها لا تعرف، وإلا خابت مساعيها جميعها منذ

البداية. رفعت حاجبيها بمهارة إلى أعلى، وحاولت أن تبدي على ملاحظها معاني الدهشة بقدر المستطاع، وفتحت فمها ونظرت إلى ناجية هانم وقالت: لا يمكنني أن أفهم. أغضبت هذه الحيرة ناجية هانم واضطرت إلى الهجوم الذي استعدت له.

- كيف لا تفهمين؟ هل ستبدين أنك ما زلت لا تعلمين ما حل بجوزيده؟ هل ستخفين علي؟ هل هذه هي صداقتك؟ أأصبحنا أصدقاء ليخدع بعضنا بعضاً؟ أظننت أنه سيمكنك إخفاء كارثة جوزيده عني؟ وظننت أن ابنتي لن تخبرني.

- حسناً، لكن يا روحي..

- لا يا نظمية هانم، انظري، ما زلت أقول لك هانم؛ لأنني لست عزيزتك بعد الآن، ولست روحك، أصبحت غريبة عنك بعد الآن، ولم يعد بيننا صداقة. صمتت السيدتان. وانتظرت نظمية هانم أن تمر رياح العتاب هذه، وعندما رأت صمت صديقتها قالت: أنت متعصبة جداً، لديك حق، إن كنت مكانك أحزن. تشعرين بالضيق، محقة، لكن.. اهدئي قليلاً، لتحدث بالتفصيل. جوزيده ليست ابنتك فحسب، أنا أيضاً أحبها كابنتي.

- أهكذا حبك لمن تحبينهم؟ تشاركين في مصائبهم؟ نحن في زمن غريب..

- عزيزتي ناجية، حببتي، عيني، روحي، دعكِ من هذا التعصب، واسمعيني قليلاً..

- قولي لنرى، ماذا ستقولين..

- أنتِ امرأة عاقلة، فلا يليق بكِ هذا العناد، وانتبهي قليلاً، من رأيي أن سيرات وجوزيده عاقلان، حدث منهما ما لم أتوقعه، دهشت، وحننت، لكن ماذا يمكنني أن أفعل في أمر قد حدث؟ ماذا بوسعي؟ كبر كلاهما، وهما في عمر يمكنهما فيه التفريق بين الصواب والخطأ.. استمرت نظمية هانم بطلاقة وشجاعة عندما رأت تردد ناجية هانم: وعندما علمت الأمر حزننت كثيراً. كنت سأركض آتية إليك، لكن ظهرت بعض الهموم، فشعرت أنك ستسرعين إلي، مع أنك لم تأت، على كل يا عزيزتي، الحزن حزن. لديك حق في كل شيء، أن تحزني منا جميعاً، وتعاتبينا.. أنتِ أم، قلبك ضعيف، لكن ليس على مثل هذه الأحزان الكثيرة، تتأثرين لأشياء صغيرة، وهذا طبيعي.. دعينا لا نطل الحديث الآن ولنبحث عن حل. أجابت ناجية هانم فجأة: الحل بسيط، يتزوجان. كانت نظمية هانم تعرف أن هذه هي الكلمة الأخيرة. لم تكن تجهل أن ناجية هانم تبحث عن زوج لجوزيده منذ بضع سنوات. إن علمت ناجية هانم، لن تفوت هذه الفرصة، وستجاهد من أجل إعطاء ابنتها لشاب

ذي دخل، وستفعل ما بوسعها، إن وجب ستوصل فضيحتة إلى المحكمة؛ لأنه يذهب السيل ويبقى الأثر، فمداولات المحكمة تستمر عدة أشهر، لكن في النهاية ستتحقق رغبة ناجية هانم. هزت نظمية هانم رأسها لتلمح إلى هذه الأفكار: هذا ما في الأمر.. أعلم أن لديك فكرة أخرى، لكن لنفكر معا. أسيوافق سيرات على عرض كهذا أم سيرفض؟

- سيرفض.

- لا.. يجب ألا نتسرع في الحكم على هذا.. هل لنا أن نعرف ما الفكرة التي شكلها عند جوزيده؟ سألت ناجية هانم: ألم يقل لك سيرات شيئاً؟

- لا.

- بهيج؟

- لم أتحدث بالتفصيل عن هذا الأمر مع بهيج، لكن لندخل الآن، لنقابله، ونحدث إليه، ولنعرف وجهة نظره. نهضت السيدتان. وكانت ناجية هانم تقول: لا بد أن نتخذ قرارا في هذا الأمر الليلة؛ كي أستريح في نومي، لا أتحمل التأخير. دلفتا، فأرسلت نظمية هانم الخادمة لتدعو بهيج. قال الشاب رأيه باختصار: أنا متأكد من أن سيرات لا يكره

جوزيده فرأى أن ناجية هانم تقطب وجهها وأعلم أنه ليس إنسانا سيئ الخلق، وأنه لا يرغب في خداع فتاة مثلها. ولو أصررت أنا وأمي ونيفين نقنعه. إن أردتِ أذهب الآن أحضره. سألت نظمية هانم: أين هو؟

- في المنزل.. وافقت ناجية هانم، وقامت، فدخلت نيفين، وسألت إلى أين سيذهب بهيج.

أجابها: لأحضر سيارات.

- سيأتي سيارات الآن.

- من أين عرفتِ؟

- كنا معا اليوم.

همست السيدتان: حسنا..

خرجت نظمية هانم وناجية هانم وبهيج إلى البهو بعد تناول الطعام. ولم تكن مبرورة ونيفين معهم. لم يتأخر سيارات، وفور أن دخل القصر علم من الخادمة أن ناجية هانم تنتظره في البهو.. صعد السلم دون تردد، دخل البهو بحرية، متحكما في نفسه، بوقار. فلم تفوت ناجية هانم أي حركة لسيارات بنظراتها المتجسسة كأنها ترى رجلاً لأول مرة. قال بهيج: سيارات، أت ناجية هانم اليوم بالأخص لترك، لتحدثك في أمر مهم.

نظر إلى صديقه بنظرات واثقة وهو يقول تلك الكلمات، كان يرغب في إشعاره بأن هناك أمراً مختلفاً: تعال جوارى.. لأننا اتخذنا القرار، والأمر الآن يرجع إليك. خلع سيرات طربوشه من رأسه بحزم كرجال الأعمال عندما يجتمعون لحل مسألة تجارية، وجلس على كرسي في الزاوية. ومد قدميه قليلاً، وأوقد سيجارة، واستعد للنقاش. تبادلت ناجية هانم النظرات مع نظمية هانم، أرادا أن يقررا أيهما أنسب لبدء الحديث، فتركت ناجية هانم لأم بهيج الصلاحية هذه بإشارة برأسها، فبدأت نظمية هانم ناظرة إلى سيرات: لا يوجد من لا يعرفك في إسطنبول؛ لكيلا يقدر ذكاءك وطيبة قلبك. وعلى رأسهم ناجية وأنا. زادت قيمتنا بصدقتك. سحب سيرات قدميه وهمس بكلمة استهزاء لكيلا يُسمع. لكن على الأرجح قال: توجهكم يا سيدتي. استمرت نظمية هانم: لكن.. في الشباب.. تحدث أمور بسيطة.. تدخلت ناجية هانم على الفور: بسيطة؟

- حدثت واقعة عظيمة في المنزل أحزننا جميعاً. تبادل سيرات وبهيج النظرات، وابتسم كلاهما، وكان بهيج يريد أن يقول بهذه النظرة: هذا الأمر شائع جداً، وكذلك سيرات يريد أن يجيبه: "أنا معجب بدبلوماسية أمك". تجاهلت نظمية هانم هذه النظرات: أحزننا، لا يمكننا أن ننكر؛ لأنك أغلى ضيوف منزلنا

من الرجال، أعزهم من النساء ناجية هانم وجوزيده. لم يجب سيرات، حبس دخان سيجارته في فمه محاولاً أن يخرجها في حلقات منتظمة، فبدأ غير مكترث. أكملت نظمية هانم: هذا وضع الإنسان.. تحدث له أمور سيئة.. وهذا يحدث للجميع في شبابه.. فالنساء المسكينات اعتدن هذا.. مكتوب.. قاطعت ناجية هانم كلام صديقتها بحزن شديد: نظمية.. لا تطيلي الكلام، قولي مرادك!

- حسنا يا عزيزتي، لا تقلقي، سنصل إلى النتيجة، نعم، سيد سيرات.. تعلم جيداً أن النساء ضعيفات. يقعن في مثل هذه المصائب كرها، ليس لديهن سلاح، ليدافعن عن أنفسهن، فإن كان الرجل منصفاً، أي رجلاً بمعنى الكلمة.. وإن لم يكن.. فهذه الأمور تعرف به؛ لذلك يوجد وسيط.. وهو القانون، وبالطبع.. لا يُتوقع أن يحدث مثل هذا هنا، في بيتي، وما دمنا أناساً عقلاء يمكننا أن نحل الأمر فيما بيننا. قام سيرات على الفور. وخطا خطوتين تجاه ناجية هانم، وسألها بحزم شديد: ماذا تريد يا سيدي، المال أم الزواج؟ فأجابته ناجية هانم دون تردد: "الزواج". لم يتخل سيرات عن سلوكه غير المكترث العفوي: جيد جداً، إذن أتزوج ابتك دون قيد أو شرط. تحددون أتم الخطوبة، وعقد القران، وأيام الزفاف. صاحت نظمية هانم: أحسنت! نظرت ناجية هانم في عين العريس المستقبلي

دهشةً من القرار السريع الذي لم تكن تتوقعه، كانت ترغب في أن تختبر جديته. تعجب بهيج أيضاً وفكر: سيرات، أنت تمزح؟ قال إنه لا يمزح، وبعدما قال تلك الكلمات، وسلم على السيدتين وخرج من البهو، فركض بهيج خلفه، وسأل صديقه بدهشة في الردهة: سيرات، ماذا فعلت؟

- خسرت مئتي ليرة.

- في ماذا؟

- تقصد فيما سيكون، مئتا ليرة كافية للطلاق من جوزيده. بعد قانون الطلاق عندنا هذا، فأى رجل يمكن أن يخشى الزواج؟ بالتأكيد أنا أتوقع هذه النتيجة. ناجية هانم كائن يتلذذ بالجلبة، فإن رفضت سيساق الأمر إلى المحاكم. وسبق أن قلت لك هذا مرارا.

- لم تخطر احتمالية الزواج ببالنا قط.

- خطرت ببالي من الحين والآخر. ضحك بهيج: شيء غريب يا عزيزي.. تعجبت للأمر أيضاً، لم أكن أتمنى أن تتخذ قرار هذا الزواج في بيتنا.

- تعلم أنني رجل عملي. لا أطيل الأمور مثلك، ولا أهوى الضجيح..

- حسنا يا عزيزي، لكن هل سيسقط هذا الزواج من رصيدك في محيطك؟

- على العكس.. سيفهم الجميع الموضوع، نزلا السلام، وخرجا إلى الحديقة، أكمل سيرات: عندما أطلق الفتاة بعد العرس بشهر.. اتخذت هذا القرار في لحظة، ولم أتردد، وغير آسف، لأنه قرار بسيط. سارا في الحديقة، فقابلا ظلين أبيضين: مبرورة ونيفين.. وقفت الفتاتان في قلق. حاولت نيفين أن ترى وجه الرجلين وقالت: ما هذا؟ هل انتهى النقاش؟ ضحك بهيج مقهقهة بالتوتر الذي استعاده وقال: لدينا عرس الشهر القادم. ضحك سيرات بأسنانه التي كانت تلمع في الظلام: سأ تزوج جوزيده. لم تصدق الفتاتان في البداية. وظنت مبرورة أنها دعابة، إلى درجة أنها ضمت شفتيها وأدارت رأسها. حزنت من سخرية الرجلين الغادرة. وحكى بهيج المشهد الذي يشبه النقاش العسكري وكيف كانت مهارة أمه في الحديث، وقال إن الأمر جاد. نظرت نيفين في وجه سيرات، مع أنه لم يعد هناك بد من تصديقها، تريد أن تقول: ماذا يعني هذا يا أحمق! عبس وجهها بعد أن استحوذ الغضب من قلبها رويدا رويدا. شبك سيرات ذراعه في ذراع نيفين وابتعدا، وعندما أصبحا بمفردهما: كنت مجبرا.

- ارتعش صوت نيفين بالكراهية: وما السبب؟
- أهنأك داع لأخبرك كيف تكون ناجية هانم؟
- لتكن كما تكون، ما فعلته، حماقة، وبلاهة.. أهنتني أمام الجميع.. أوضيع أنت؟
- وما شأنك وهذا؟
- أوه.. أوه.. أرجوك سيرات، أرجوك، أرجوك، دعنا لا نبدأ المكيدة.
- هذا ما حدث، هذا قرار..
- لا يا عزيزي، لا يا صغيري، لا أريد أفعالا طفولية، أنت تحبني في نظر الجميع، ولست لأحد غيري، أبدا.. انظر، عفوت عما حدث بينك وبين جوزيده، لدي مشاعر كأى امرأة، فلا يمكنني التحمل." وقف سيرات فجأة وأمسك يد نيفين: "هل خدعتك حتى الآن؟ هل فعلت معك مثلما فعل بهيج مع بيلما؟ لا، أليس كذلك؟ لا، بالطبع، لا.. إذن ثقى بي، سيعزز هذا الزواج من شرفك.
- لا أفهم.
- لأن جوزيده والجميع سيراني أهتم بك أكثر من ذي قبل، حتى إنني أعدك ليلة الزفاف، سأكون مشغولا بك.

وسأخذع جوزيده، لكيلا تشك، لأن مصلحتي تتطلب هذا.
فأنا مجبر على إهمال طفل بلا معنى مثل جوزيده. ومجبر على
إشعار الناس بضرورة هذه الزيجة. حتى.. أعدك أيضًا.. أنني
لن أنام إلى جوار جوزيده ليلة الزفاف.

- وماذا أيضًا؟

- سأخرج وأذهب من المنزل.

- وماذا سيقول الناس؟

- يقولون ما يقولون. أنا إنسان عملي، لا أخشى
الحكايات. والأدهى.. سأطلق جوزيده بعد شهر من الزواج.
هذا كل ما في الأمر، مغامرة قصيرة وممتعة قليلًا.. صمتت
نيفين، فكرت ناظرة إلى النجوم المتمايلة بين الأشجار: لا
أصدق..

- ألا تصدقين؟ كيف لي أن أؤكد لك، إن شئت أوكد
لك بتوقعي، وإن شئت يمكنني التضحية بالغالي والنفيس،
لكن ذلك هو أقوى ضمان. احتضن نيفين، وضمها إلى
صدره، وظل يقبل هذه المرأة الدافئة من كل مكان في رأسها
بداية من شعرها، وقال: لطالما كنت لك، فلا يكون لديك
شك. لم تستطع مبرورة التي ظلت مع بهيج بمفردها إخفاء

دهشتها فقالت: هذا كذب، لن يتزوج سيرات جوزيده، هو
يمكر. ألان بهيج صوته مضاعفا تودده المعتاد: مبرورة هانم،
أنت لا تعلميننا جيداً، تظنين أننا من رجال إسطنبول القاسين
السفهاء، أخطأت. لكل منا غاية كأبي رجل؛ وهي تكوين
أسرة. نرغب في الاستمتاع من هذه الحياة والسأم منها إلى يوم
الزفاف حتى نكون مضحين ومخلصين لأسرنا فقط. لأنك إن
قدرت الوضع جيداً ستجدين أن تكوين أسرة سعيدة أمر جلل.
فلا يكفي حسن نية الزوج مع زوجته. يلزم المرء أمور فوق
التوقع.. كيف لي أن أقول.. فهو أسير لبعض قوانين الطبيعة
لديه. فمثلاً، تعلمين أن الرجال أكثر نهماً من النساء كالحيتان
الزرقاء، فلو كانت المرأة ما زالت لم تسأم من عالمها فستحفظ
عينها بعد الزواج، وبذلك تكون قد أسهمت في خيانة زوجها
لها. وعلى الرغم من سأم الرجل من زوجته فإنه يظل مرتبطاً
بها، ويحبها هي فقط، ويفكر بها. تظنين أنني مطارد للنساء،
وسفيه، فلا يمكنني أن أثبت لك العكس؛ لأن محيطي سيئ، فأنا
من شخصيات مسرحية الفستان العاري، مهما قلت لن يجدي،
مهما شرحت فهو هباء، مهما فعلت فبدون فائدة.. ولديك
حق، حتى إنني أود أن أقول أمراً غريباً؛ أنه يزداد تقديري
واحترامي لك جراء هذا. صمت بهيج، فمال لكي يعرف تأثير
تلك الكلمات على الفتاة، وظل ينظر بدقة إلى مبرورة. سارت

الفتاة في أجواء المساء المعتمة الباردة وعيناها مغمضتان قليلاً، هائمة، وأخفت مشاعرها. ولم تجب، ولم تقل شيئاً، ما كان يُسمع منها هو صوت نفسها الرتيب المنبعث مع همسات غير واضحة من شفيتها المفتوحتين. سارا معاً بخطوات مثقلة دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر حتى وصلا إلى باب القصر. وقفت الفتاة ومدت يدها الصغيرة التي تشبه شعاعاً أبيض، ونظرت إلى بهيج بأعينها المرتجفة بنظرات ما زالت مصرة وقالت بهدوء: طابت ليلتك.

وعندما قال بهيج: ليلة سعيدة مبرورة هانم! أمسك بيد الفتاة، ونظر في عينيها، وحاول أن يفهم هل انخدعت بكلماته السابقة أم لا، لكنه لم يفهم. أدارت الفتاة رأسها على الفور، وسحبت يدها، واختفت في مدخل القصر المظلم، ففكر بهيج: كم أن هذا القلب كتوم، وروح غامضة.

وفي مساء اليوم التالي، لم يكن هناك سوى مبرورة والخادمة. خرجت الفتاة إلى البهو، وأوقدت الأضواء، وأخذت تسلي نفسها بالتقليب في المجالات الأجنبية. فكانت تحشى أن تصبح أثيرة أفكارها التي لا نهاية لها وهي منزوية في غرفتها. فبعد واقعة جوزيده وسيرات بدأت تحزن كلياً وتفكر في نفسها،

لكنها في حيرة من أمرها، دهشة، تنتقل أفكارها من موضوع إلى آخر، فيسقطها ذلك في الكدر على الفور. سئمت المجالات، فتركتها في أماكنها مبعثرة، انتفضت من مكانها بحركة هستيرية، وبدأت تتجول. لم يعد هناك أي شيء من الأفكار المتراكمة في ذهنها، فلم تعد تتبع أي فكرة بوضوح. فكرت لوهلة ماذا ستفعل في هذا البيت، وتذكرت أن هناك احتمالاً أن تتعرض لاستثقال من أصحاب المنزل، وربما لازدراء ذات يوم. وبعد ذلك تبادر أمام عينيها ظل بهيج الطويل المتشكل، وتصرفاته التي تنطوي على معانٍ، وأفعاله في الأيام الأخيرة، فأرادت أن تفصل في تغير مزاج بهيج، وكرهه المفاجئ للقمار والنساء والسفه، لكنها لم تفصل في شيء، وجال بخاطرها أنها ستسلم لبهيج سريعاً ثروتها التي هي عبارة عن شرفها، ناسية كل الاحتمالات الأخرى، فاقشعر جسدها. فكرت حينئذ في والدها، وتخيلت أموراً مروعة، وأتى موته فجأة أمام عينيها، فعضت على أسنانها، فلم يرتد إليها طرف، وارتعدت من الرعب. القليل من البيانو.. خطت خطوتين، وتراجعت عن ذلك، ففكرت مجدداً في والدها، والمهاجرين، ووعد المدير، فتراخت أعصابها تدريجياً، فتعبت من صراع الحيرة الذي يشل إرادتها. أرادت أن تجلس على أحد الكراسي، ولكنها خسرت أمام رغبتها في عزف البيانو فعادت، فجلست أمام البيانو.

نظرت إلى مفاتيح البيانو قليلاً، أرادت تحديد ماذا ستعزف، فبحثت عن إحدى المعزوفات العذبة الهادئة الحزينة لتهدئ أعصابها. كانت معزوفة قديمة، كانت تعزفها وهي تنظر إلى سماء قاعة كارشياكا المكونة من سياج حديدية صدئة في مدرسة أزمير، وكانت هذه معزوفة أيام الأمل التي كانت تتطلع فيها إلى المستقبل بشوق، معزوفة أحلام الطفولة البريئة التي عزفتها من أجل حياة مجهولة في المدرسة لأصدقاء مقربين. تذكرت مبرورة وهي تعزف أيامها السابقة، وجبال مانيسا، والليالي الملائى بالهدوء والظلال، وهدوء الأناضول الذي لا يقطعه أي صوت غريب، ومنازلها الصغيرة، ووالدها، ومريبتها المتوفاة، وجيرانها وأصدقاءها الطيبين. قامت الفتاة من أمام البيانو، الدهشة والخجل اللذين عادت إليهما صدماتها وأطاحا بها. كان بهيج في منتصف البهو ينظر إليها واقفاً دون أن يتحرك، وقد مال رأسه، مغمضاً عينيه خلف دخان السيجارة التي يضعها بين أسنانه: إذا سمحتي مبرورة هانم، ما أتى بي إلى هنا أمر طبيعي، وإلا لم أكن أتجراً.

وبينما كانت الفتاة تغلق باب البيانو لتفعل شيئاً، قالت: لا ضرر ولا ضرار، أستغفر الله، لكنها، حتى هي، تسمع صوتها بالكاد.

وتوجه بهيج نحو البيانو ووقف قليلاً ثم توسل إليها بحركة بها شيء من الخوف: ألم تستمر؟

فنظرت مبرورة إلى الشاب بتمعن بعد أن تعافت من إثارتها الأولى وقالت: أعتقد أنك استمعت بما يكفي؟

لم يتفاجأ بهيج وقال: لا، لم يمض وقت طويل منذ مجيئي، أخيراً.. انتظر لحظة.

كانت الفتاة تفكر، وتنظر إلى البيانو بشرود وخبول روحي غريب، لكنها لم تستطع أن تبدأ بأي حال من الأحوال.

وأخيراً بعد أن أضاعت وقتاً قليلاً بدأت تعزف وهي تُجري أصابعها المفعمّة بالحيوية، التي تطويها وتفردها بحركات عصبية فوق مفاتيح البيانو البيضاء، فقد اكتسبت هذه الأصابع رشاقة كبيرة بإرادة خفية لم يدركها وعيها؛ فقد كانت تسير وتتحرك من تلقاء نفسها، فكانت تبدو كما لو لم تكن أصابع مبرورة. لقد كانوا حيويين جداً، وعاطفيين جداً، ورشيقين جداً. وانتشرت الألحان بلهجة عذبة، مثل قطرات صغيرة من الماء تصطدم بالقطع الحجرية على حافة بحيرة مهجورة في الهواء الساكن، وتذهب بعيداً بنفخة جميلة، وتكسر الصمت الشديد بالغرفة.

كان بهيج ينظر إلى جفون الفتاة التي ترتجف من النشوة، وشفثتها المزمومتين، ويديها البيضاءوين المرتعشتين، وسط دخان السجائر الذي كان ينفخه بغزارة.

وعندما انتهت الموسيقى، صمت الشابان، وبدا كلاهما، فترة من الوقت، مثل تمثالين مزدوجين بقيا في صمت طويل في زاوية معتمة من أروقة المتحف المهجورة.

وعندما رفعت مبرورة رأسها التقت بعيون بهيج الثابتة، هذه العيون التي كانت ثابتة دائماً، بحدقات ضبابية ومنصهرة ومغرورقة بالدموع، وبدا الأمر غامضاً، ثم تحرك الشاب ليطفئ سيجارته، ووقف وقال بصوت منفعّل:

- لن أنسى هذه الرومانسية، وسأطلبها منك دائماً.

فنهضت الفتاة وتوجهت إلى الباب وعلى وجهها ابتسامة خفيفة. وبينما كانت مبرورة على وشك الخروج من الباب أطفأ بهيج الأنوار، وظلا في الظلام حتى أضيء المصباح الموجود في القاعة، وكانت مبرورة تشعر بأنفاس الآخر المتقطعة، فتراجعت قليلاً.

وتمكن بهيج من إيجاد يد مبرورة، وأمسك بها على الفور. ولم يجد صعوبة في كسر مقاومة الفتاة القليلة، فجلب اليد

الصغيرة المستديرة إلى شفتيه، وزاد الضغط شيئاً فشيئاً، ودفن شفتيه في اللحم الدافئ، وقَبَلَ اليد، ذات الرائحة الزكية، بضع ثوانٍ، حتى ابتعدت الفتاة كثيراً.

عندما سحبت مبرورة يديها أضواء بهيج مصباح القاعة، واتجه نحو السلم وهو يراقب جسد مبرورة العاطفي وهي تجري دون النظر خلفها، وفكر: "إنها لم تعد متوحشة تجاهي كما كانت من قبل".

ركضت الفتاة إلى غرفتها لأنها شعرت بالحاجة إلى البقاء بمفردها، ولم تخرج منها حتى وقت الطعام. وبينما كان بهيج ينوي الخروج إلى الشارع للبحث عن سيارات سمع أصواتاً في غرفة الطعام، فدخل الغرفة، ووجد نيفين وسيارات يجلسان كل منهما بجوار الآخر على مقعد ويتحدثان بحرارة شديدة، ووجهاهما ورديان، وأعينهما متعبة.

وقف سيارات عندما دخل بهيج، وقال:

- أين أنت؟ أنا أبحث عنك.

- وأنا أيضاً.

تبادل الأخوان النظرات، وخَفَضَ من نبرة صوته المرتجف قليلاً وأمسك بيد سيارات وهو يضحك قائلاً:

- كنتُ في الطابق العلوي مع مبرورة بمفردي.
- وبعد التفكير قليلاً نظر إلى كل من صديقه وأخته، وقال:
- لكنني بحاجة إلى مساعدتكم، وخاصة لمساعدة نيفين.
- كيف؟
- يجب أن تتأكد مبرورة من أنني أحبها، وأنني على استعداد للتضحية، وعليك إقناعها بذلك.
- رأى كل من سيرات ونيفين أن هذه الفكرة غريبة، وضحكت نيفين قائلة:
- شيء غريب.. وما الخدمة التي يمكن أن نقدمها لك؟ عليك أن تتعامل بنفسك مع هذه الفتاة.
- لدي خطة محكمة. لا بد أن أظهر الآن أمام مبرورة بأنني خلوق إلى أقصى درجة، وأعود إلى المنزل مع أذان العشاء مثل سيد الحي، ولا أخرج من المنزل في المساء، ولا أعرف شيئاً عن النساء، أو القمار، أو ما شابه ذلك، أستغفر الله، وأنني رجل مرتبط كثيراً بوطني وديني، ومثل الملائكة..
- واستمر بهيج، بعد أن حرك عينيه الساخرتين مرة أو مرتين، بحرارة أكبر:

- حتى.. حتى.. سأقدم للفتاة وعدًا مشرقًا، ستدهشون من حسن تفكيري، لا تنظروا إلى وجهي الغريب، إنها فكرة مثالية..

توجد أصوات مختلطة في الخارج، وُسْمِعَ صوت نظمية هانم الأمر: إفدوكسيا! سيغمى عليّ من الجوع، أحضري الطعام بسرعة، وضعي طعامًا إضافيًا.
نظر بهيج إلى الباب وتمتم بملل:

- أعتقد أن والدتي تحضر الضيوف.

دخلت السيدة نظمية الغرفة وفي يدها طرود، وهي تمسح وجهها المحمر، الذي بدا أكثر احمرارًا في الشادور الأسود^(١)،
بمنديلها، وقالت:

- أنتم هنا يا أولاد؟ دعونا نجلس إلى مائدة الطعام.

دخل نادر خلفها وألقى السلام على كل من الغرفة وجلس قائلاً:

- لقد تصادفت بهذه السيدة في الشارع وجئنا معًا.

(١) عباءة طويلة فضفاضة تغطي الجسم بالكامل، من الرأس إلى أخمص القدمين. عادة ما يكون مصنوعًا من قماش خفيف الوزن مثل القطن أو الحرير.

فقال بهيج مستهزئاً:

- أبليت بلاءً حسناً.

دخلت مبرورة أيضاً، وكان المشهد مختلطاً في الغرفة، حيث أُلقيت التحية فجأة، وشُبكت الأيدي، وأُلقيت الكلمات الصادقة والساخرة.

وعند الجلوس إلى المائدة نسيت السيدة نظمية أن تقول "تفضلوا"، وبدأت بتناول الطعام، واعتذرت بفمها الممتلئ:

- المعذرة، أنا متعبة جداً اليوم. لقد أقسمت بأنني سأسوق في إسطنبول فذهبت أنا وناجي إلى كل مكان؛ ذهبنا إلى سوق محمود باشا، وحي أمينونو، وحي جالاطا.. ووجدنا الصوف الأبيض في حي باي أوغلو، أما الأشياء في سوق محمود باشا فسيئة جداً. أشارت إلى سيرات وقالت:

- نحن نعمل لحساب السيد الأستاذ، نسعى إلى تزيين زوجته المستقبلية.

فهزَّ سيرات كتفه وقال:

- أنت تبحثين عن المتاعب. أنا لست شخصاً صعب المراس، خاصة أن مرحاض جوزيدة لا يزعجني على الإطلاق؛ لذا كوني مطمئنة.

تجههم وجه نيفين وتدخلت في الحوار، وقالت:

- لماذا أحضرتِ الطرود إلى هنا يا أمي؟

- ستأتي ناجية إلى القصر غدًا، وسيأتي موديسترا، وستأتي

جوزيدة أيضًا، وستكون الاستعدادات هنا..

أراد نادر أن يفهم وهو ينظر بعناية إلى وجه سيرات، الذي يحافظ دائمًا على لامبالته:

- هل اقترب العرس؟ لقد وصلتني الأخبار، لكنني لم

أعلم أن هذه الاستعدادات قد بدأت.

فضحك سيرات وقال:

- لقد انتهى كل شيء!

لمعت عينا نادر وهو يقول: "حسنًا، حسنًا"، وأردف قائلاً:

- سيكون من الأفضل لو حدث هذه الأيام؛ فنحن

نتصّر في الحرب، وقد شن جيشنا هجومًا مضادًا.

أسقط بهيج شوكتة فجأة، وقفز:

- حقًا؟

نظر نادر، وهو يفتح فمه نصف فتحة، إلى بهيج متفاجئًا، وضحك:

- ما شأنك؟ تناول طعامك أنت! هل تفهم ما الهجوم المضاد؟

نظر بهيج إلى وجه نادر بصدق وأجاب:

- من الممكن يا نادر، من الممكن أنك تفكر في هذه الطريقة، ممكن، ولكن لا شك أنك مخطئ. هل أخبرك بشيء أغرب؟ أريد أن أذهب إلى الأناضول أيضًا.

رمقت مبرور بهيج بشدة وهي تحاول فهم ما إذا كان صادقًا أم لا. وكانت السيدة نظمية دهشة أيضًا، لكن سيرات ونيفين نجوا من عذاب هذه الدهشة، فقال نادر:

- أصبح هناك اثنان يريدان الذهاب إلى الأناضول، حيث قال لي صالح أمس إنه سيذهب إليها أيضًا.

واستمر في حديثه وهو ينظر إلى بهيج بشكل هادف:

- صالح لديه حلم سري في إسطنبول، وبعد أن يحقق ذلك سيذهب إلى الأناضول ويصبح جنديًا. لا أعرف هذا الحلم، لكنني متأكد من أنه مشروع رهيب.

نظر الجميع إلى نادر، ولمعت عيونهم التي تريد توضيحًا، فأراد نادر أن يوضح:

- أصبحت حالة صالح في أيامه الأخيرة غريبة. إنه ليس صالح الذي تعرفونه من قبل. لم يعد يمزح، وقد اختفت بهجته ولا مبالاته القديمة، وأصبح رجلًا متجهماً وغاضبًا.

وتابع متأثراً بالصمت الذي يحيط به:

- لا أعرف ما الذي يفكر فيه، لكن هناك حماسة شديدة في عقله.

وقال بهيج مازحاً: "إنه مجنون!". لكن لم يضحك أحد. وأوضح نادر بجدية متزايدة:

- نعم، أنا متأكد من أنه مجنون. تصرفاته لا تدع أي مجال للشك في هذا؛ فهو يشرب كل ليلة، ويعود إلى المنزل ثملاً، ولا يتحدث إلى أحد، وينزوي في غرفته، ويوبخ كل من في المنزل. مسكينة بيلما، إنها غير سعيدة، ودهشة جداً؛ تحاول موااساة أخيها، لكنها لا تنجح. هي تعاني بشدة. ستُفاجئون عندما ترون مدى نحافة هذه الفتاة.

- سأل بهيج وهو يخفي حماسه:

- ما مشكلة صالح؟

- لا أعرف ما مشكلة صالح، ولكن الشيء الذي أعرفه هو مجرد تخمين، والمؤكد أن هذا الرجل بدأت تظهر عليه جميع أعراض الجنون؛ مثلاً يتحدث إلى نفسه في غرفته ليلاً.

فسألت مبرورة:

- هل يحب أحداً؟

فضحك نادر:

- على العكس يا مبرورة هانم، هو يحقد على أحد.

صمت الجميع على المائدة. خرج نفس طويل من صدر السيدة نظمية، تلاشت خطوط السخرية التي كانت على وجه بهيج، وتجمعت تجاعيد التفكير على جبهته، ولا يُسمع سوى أصوات الشوك فقط، فكسر نادر هذا الصمت:

- لقد سحبت بيلما في الكلام، وعلى ما أعتقد أنه جرت مكالمة مهمة بين الإخوة منذ عدة أيام، واستودعت بيلما "صالح" سراً، ففقد صالح أعصابه، وحرار ماذا يفعل منذ ذلك اليوم.

وأشار إلى بهيج قائلاً:

- لو لم أسمع بالأمر مصادفة، ولو نشر الإعلان الذي وضعه بهيج لصالح في الصحف، لكانت الكارثة الكبرى وشيكة.

وبعد صمت قصير، قال بهيج وهو يلقي بمنشفته وينهض عن الطاولة:

- أنا أفهم المسألة، لكن دعني أفلها بأسلوب صالح: هذه الأمور تافهة في نظري!

يوجد شعور عميق بالحزن في الغرفة. والجدل بشأن هذه القضية مزعج. توجهت نيفين إلى والدتها لتغيير الحديث:

- سوف يأتي الترتي غداً؟ يا لها من مصادفة، أنا أيضاً عندي ضيوف غداً.

- من؟

- هاندان، ريفية، شادية، سعدت، مليكة، سيأتون جميعاً. حتى جوزيدة ستأتي أيضاً، وسنخطط ليوم الخطوبة.

- حسناً، لا بأس، يمكن القيام بمهمتين في وقت واحد.

أخذ نادر مبرور جانباً:

- لا يمكننا أن نلتقي يا مبرورة هانم.

- ألن تأتي؟

- لقد عرفتِ منزلنا، ستكلفين نفسك عناء المجيء إليّ.

- أنت محق. أنا أشعر بالجنون، خاصة عندما أحصل على أخبار من إدارة المهاجرين، لكنني أعتقد أنه إذا كان هناك شيء مهم لأخبرتنني به.

- صحيح. لقد تابعت أمرك عدة مرات. لقد أرسل المدير العام برقيات إلى أماكن قليلة، وجاء الرد بأنه جار البحث عنه

في الأناضول، لكن لم تكن هناك أخبار أكثر أهمية. ووجه طلب أيضًا إلى الصليب الأحمر اليوناني للاستفسار عما إذا كان والدك أسيرًا أو لا، أو ما إذا ذهب إلى الأناضول، أو أنه على قيد الحياة، أو حدث له أي كارثة أو لا، سنكتشف كل ذلك بالتأكيد.

أطلقت الفتاة زفرة "آه" حادة، جعلت جميع من في الغرفة يديرون رؤوسهم.

- آه.. كم هذا جيد! فعدم عدم معرفة أي شيء يدفعني إلى الجنون. أريد أن أعرف أي شيء، حتى لو كان كارثة.

ثم خفضت صوتها وقالت:

- يمكنني القول إنه لا توجد ليلة لا أبكي فيها، خاصة في الأيام الأخيرة، خاصة في الأيام الأخيرة.

مال نادر على أذن الفتاة وقال:

- يوم الجمعة، بعد غد وليس الغد، يوم عطلتنا أنا وفخري، تعالي إليّ وسنذهب إلى فخري. سيمتلك هذا الشاب كثيرًا. فمنذ ذلك اليوم لا يتحدث إلا عنك، لقد تركت أثرًا مدهشًا فيه. وهو متأثر جدًا بك بعدما علم بالمصادفة أن والدك في الحياة العسكرية، وأن منزلك في مانيسا، ومريبتك توفيت. تعرفين؟! أنا وفخري نتحدث عنك وعن والدك كل

يوم، حتى إنه ذهب مرة أو مرتين إلى إدارة المهاجرين. وقال لي: "قد يصادف المرء في حياته المرأة التي يحلم بها مرة أو اثنتين، وقد تحققت هذه المصادفة الاستثنائية في اليوم الذي عرفت فيه مبرورة هانم".

أغمضت الفتاة عينيها وهي تأخذ نفساً عميقاً، وفتحتها على الفور، ثم قالت:

- حسنًا يا سيد نادر، ليس غداً، بعد غد بعد الظهر.

لم تعرف مبرورة كيف أمضت الوقت حتى ظهر اليوم التالي، فقد تعهدت لنادر بأنها ستذهب إليه بعد الظهر. لأنها محتاجة أن تذهب إلى إسطنبول، لسبب ما، وتحدث إلى نادر وتعرف أفكاره، على ألا تسمع خطابات؛ لم تعد تتحدث إلى أحد في هذا المنزل بحميمية.

ارتدت ملابسها بعدما تناولت الطعام، وكان الجو شتوياً جميلاً، حيث الشمس الساطعة التي جففت تجمعات مياه الأمطار التي هطلت قبل يومين سابقين، ومسحت الأرضفة وأصبحت تلمع مثل الرخام، وبعض الطيور تغرد فوق الأشجار منخدعة بجو الربيع الزائف هذا. وقد سارت مبرورة على قدميها حتى مكتب الحربية، وركبت الترام.

ولم تجد صعوبة في إيجاد منزل نادر في حي شاهزاده؛ فالركائز والزخارف المميزة للبيوت التركية تلفت الانتباه عندما تتجول في زوايا هذا الشارع.

فتح نادر الباب لمبرورة واستقبلها بسعادة عارمة، وقال لها: "أحسنّت. لم تجعليني أنتظر إطلاقاً".

وفي أثناء صعودهما إلى غرفة الضيوف، استدار نادر على السلم، ونظر إلى وجه الفتاة وقال:

- لديّ خبر جيد لك حتى إنه خبر أسعدني.

- ما هو؟

- يتعلق بوالدك.

- حقاً؟

كان صوت الفتاة حاداً إلى درجة أنه اصطدم بسقف الردهة العالي، وأصدر صدى صوت، ووقف الاثنان، ونادر في حالة دهشة يقول:

- يا إلهي! لقد أعطيتك أملاً كبيراً، لا تفرحي إلى هذه الدرجة، فلا يوجد أي دليل؛ لأنه مجرد تلغراف.

صدمت الفتاة الأرض بحذائها بعصبية شديدة وسألت:

- ماذا؟ ماذا؟ قل سريعاً، أريد أن أعرف.

- ماذا أقول؟ لا يوجد شيء.. امشي.

ودخلا غرفة الضيوف، وأخذ نادر معطف الفتاة وخرج، وجاء مجدداً وقال:

- لقد وصلت من الصليب الأحمر نسخة من التلغراف إلى إدارة المهاجرين، وجاء هذا التلغراف من الصليب الأحمر في إزمير إلى ممثله هنا. والخبر يقول: إن والدك أخذ أسير حرب، ورُحِّلَ إلى إزمير، وبينما كان في طريقه إلى بيرا أطلق سراحه بعد توسط القنصلية الفرنسية، وترك والدك إزمير، لكن غير معروف إلى أين ذهب.

أرادت الفتاة أن تصرخ من الفرح، لكن ظل فمها مفتوحاً، حيث يوجد أحد الاحتمالات المخيفة جعلها تتصلب مكانها، ولم تعرف فيما ستفكر، فقال نادر:

- أولاً، هذا خبر جيد؛ لأن هذا يعني أن والدك نجا من الاضطهاد اليوناني، والاحتمال الغالب هو أنه نجا من خطر الموت.

حاولت مبرورة ألا تتعجل في فرحتها، وظلت تستمع إلى نادر بتركيز، وتمتت:

- وماذا لو وقع مجدداً في يد اليونانيين؟

- إنه احتمال ضعيف جداً؛ ما دام أُطلق سراحه في إزمير فلا يمكن أن يقع في قبضتهم في مكان آخر.
- لا تقل ذلك، فأنا أعرف ما الذي يمكن أن تفعله الحكومة اليونانية.

أخذت الفتاة نفساً عميقاً وكررت:

- أعرفهم يا نادر بك.. أعرفهم..

- أقول لك إنه احتمال ضعيف، وخلاف ذلك، فكل شيء محتمل في هذا العالم. أنا أرى أن والدك الآن في الأناضول. ربما يكون في ورطة، ربما يكون مريضاً، هذا لا يمكن التنبؤ به، لكنني أعتقد أنه على قيد الحياة. هل كانت معه أي أموال عندما اعتُقل؟
- أعتقد أن لديه بضعة آلاف من الليرات، ليتهم لم يأخذوها منه. هناك أيضاً احتمال أن يكون لديه أموال في بنوك إزمير، لا أعرف على وجه اليقين، لأنني لم أتدخل قط في شؤون والدي التجارية. لم يكن يحب التدخل في شؤونه أبداً.

بقي الشابان صامتين. وفي أحد المنازل المقابلة، كانت هناك يد مألوفة تعزف على العود. فقالت مبرورة: "فرحفا" (١).

(١) مقام نهاوند هو المقام الاساسي في عائلة مقام النهاوند. يبدأ سلم هذا المقام بجنس النهاوند (وهو جنس الأصل) على الدرجة الأولى (القرار)، يليه اي من جنس الحجاز او جنس الكُرد على الغمّاز (الدرجة الخامسة). مقام فرحفا هو الاسم القديم لمقام نهاوند المصوّر على علامة الصول.

نظر نادر إلى ساعة الحائط، وقال:

- الساعة تقترب إلى الثالثة.. فخري ينتظرنا، دعينا ننهض
إذا أردت، فقد وعدت الرجل، لا تدعيه ينتظرنا.
- حالاً.

اقترب نادر من الفتاة الصغيرة بشيء من الصدق في أثناء
خروجه إلى الشارع:

- أنت لا تعرفين فخري؛ هذا الشاب ليس لديه أب أو أم
أو أخ.. ليس لديه أحد أبداً. لديه غرفة صغيرة في حي "وفاء"،
ويعيش هناك بمفرده، ويعمل موظفاً في مكتب البريد.

اختتم نادر حديثه بعد أن رأى الفتاة قد رفعت حاجبيها
دهشة، ثم قال:

- تأكدي أن الغرفة التي يقيم بها فخري لا تختلف عن
لحاء الشجرة، ها قد وصلنا.

أشار بإصبعه إلى مبنى مكون من طابقين. اللون الأبيض
القذر لهذا المنزل الحجري المتهالك كان يصرخ من كل تعب
صراعه مع الطبيعة لمدة ثلاثين أو أربعين عاماً، والملاط (المونة)
على عتبات النوافذ، الذي تساقط قطعاً، كان يعطى نذيراً سيئاً
عن انهياره الوشيك. لم تنظر مبرورة إلى المنزل فترة طويلة،
ودخلا على الفور.

صعدا طابقاً واحداً. وقد أعلنت السلام الخشبية بصوت أجش صارخ أنها غير مستعدة للخطوات القوية؛ تارة بالتقعر نحو الأسفل، وتارة بالتحذب خلف الخطوة، وبجهد أخير تمكنا من فصل أنفسهما عن الألواح التي كانت جاهزة لكسرها وتفكيكها.

مظهر الطابق الأول مثير للشفقة: الجدران تبدو وكأنها صُرة مرقعة، مغطاة بالصحف الملونة والكرتون، تحاول إخفاء المنظر المعذب المتمثل في عدم وجود دهان، ووجود ترسبات جيرية، والسقف أحذب ومنخفض، ولونه أسود غامق، ومتشقق في بعض الأماكن. أشار نادر إلى غرفة شبه مظلمة تشبه عتمة القبو، تشع منها رائحة زيت وبصل حادة تؤذي الحلق، وتثقل التنفس، وتعرض المعدة.

دخلا دون أن يقرعا الباب، فوجدا أمامهما فخري يجلس ساكناً، كما لو كان نائماً، مستلقياً على مقعد مجنح (بذراعين) أحمر قטיפية، قديم، منهض من مكانه، واستقبل ضيوفه، واحمر وجهه سريعاً، وتلعثم بحزن واضح وهو يحاول العثور على كلماته:

- يا.. يا لها من فرحة.. والله.. هذه هي السعادة يا مبرورة هانم، ها هي السعادة.. وماذا سيكون غيرها، هيا، ادخلوا.. هنا يا مبرورة هانم، هنا..

قال هذا وهو يشير إلى الكرسي الأحمر، فجلست الفتاة على المقعد بفرحة قسرية؛ فهي تدرك العذاب العميق الذي قد يسببه أي تصرف مثير للاشمئزاز في فخري. وجلس نادر على أحد المقاعد، وجلس فخري على سرير، وفكر فيما إذا كان سيعتذر عن مظهر غرفته.

وقعت عينا مبرورة على الطاولة عند رأس السرير، كانت هناك على هذه الطاولة الخشبية المستديرة المكسورة كومة من الكتب الفوضوية، مفصولة عن أغلفتها، ودفتر ملاحظات مفتوح بغلاف مطوي، وبجانبه بضعة أقلام رصاص، وإبريق من الطين، وكأس. لم تترك هذه الأشياء لفخري سوى مساحة صغيرة جدًا على حافة الطاولة ليأكل طعامه. والجدران مغطاة بالإهداءات الدافئة، وملأى بالبطاقات البريدية، والصور، والرسائل التي تحمل طوابع الأماكن الصغيرة.

عندما لاحظ فخري فضول الفتاة، وقف وسحب ثلاث أوراق أو أربعًا من على الجدران ومدّها لها، وقال:

- انظري إلى ساحل فاردار، لقد سافرت إلى روميليا يا مبرورة هانم. في الحقيقة فقدت فاردار معظم جمالها في هذه البطاقة البريدية. لكن عليك الانتباه، فهذه ليست مدناً هادئة ولا لطيفة مبرورة هانم. مري هناك في الصباح، واستمعي إلى

التدفق الموسيقي لفاردار، خريير الماء اللا متناهي في العزلة يعطي شعورًا بالخلود. أنا على يقين أنك ستجدين الراحة لأشهر في هذا الصمت يا مبرورة هانم، ستنسين ألم الغربة واليتم المفجع الذي يجعلك تتلوين في عذاب أسود قاتم عدة أيام. آه، فاردار..

أشعلت فاردار الحماسة في فخري بسرعة، وأرادت الفتاة أن تلمح إلى هذا، فقالت:

- إنك تحب فاردار كثيرًا، لا بد من وجود سبب وراء هذا.
- لأنني أحب الريف كثيرًا.
- الريف كله؟
- يمكنني أن أقول كله؛ الأناضول وروميليا..
- هل سافرت للخدمة العسكرية؟
- نعم، الخدمة العسكرية.. الخدمة العسكرية.. قاطعه نادر:
- شارك فخري في حربين.
- قضيت كل شبابي في الجيش، وأُصِبت ثلاث مرات يا مبرورة هانم، ونجوت من موت محقق في المرة الثالثة، ولكن أي نجاة يا مبرور هانم، أي نجاة..

كانت عينا الفتاة عالقتين على عيني فخري الثابتين اللامعتين باستمرار، وحاجبيه الرفيعين اللذين كانا يتجعدان وينفتحان مع كل فكرة وذكرى جديدة، وتجايد جبينه السمكة والمتعرجة، وشفثيه الحمر اوين اللتين لعبتا بضربات خفيفة لجعل الكلمات أكثر بلاغة. وهي تفكر في أن الريف خلق من هذا الشاب شخصاً نظيفاً لا عيب فيه، بدايئاً قليلاً، ولكنه مخلص، وقاسياً قليلاً، ولكنه عاطفي، ساذجاً قليلاً، لكنه ذكي، على عكس خسة أهل المدينة وأكاذيبهم، هذه العفة وهذا الصدق وهذا الدفء كان يفيض في بعض الأحيان ويجزني، لكنه كان ممتعاً دائماً.

أراد نادر أن يكسر حاجز الصمت القصير، فأخذ يحكي عن أخبار والد مبرورة، وسأل كيف سُنُفَسِر، وأراد أن يعرف رأي فخري، فقال فخري وهو يتوقع حماسة مبرورة لهذا الموضوع: "والله.. والله.. هذه مرحلة مهمة جداً يا مبرورة هانم، هذه أخبار جيدة جداً، لكن.." كان يتمتم ويفكر. وفجأة رفع ذراعيه وقال:

- والدك بخير يا مبرورة هانم.

- وكيف حكمت على ذلك؟

- إنه بخير، ليس لديّ شك في هذا؛ ما دام أطلق سراحه في إزمير فلن يُعتقل مرة أخرى، تأكدي من هذا؛ لأن اليونانيين

لن يتركوا أسيراً بسهولة، فهذا يعني أنهم لم يجدوا فائدة من اعتقاله. فماذا سيحدث إذا أرسلَ التاجر الذي نهبَ متجره بالفعل إلى بيرايوس؟ هل يجب على الحكومة اليونانية إطعام عدد كبير جداً من السجناء؟ يا مبرورة هانم، إما أن يقتلوهم وإما أن يحرروهم، الأول الموت، والثاني الحياة، فلا تشكي في الثاني يا مبرورة هانم.

تنهدت الفتاة الصغيرة وهي تضغط بيدها التي تحمل البطاقات البريدية على صدرها، ورمشت عينها بخيال سعيد: - آه.. هل تقول ذلك حقاً؟ أشعر بأني سأفقد الوعي إذا كان والدي على قيد الحياة، أعتقد أنني سأجن إذا رأيته مرة أخرى؛ فلمن أعيش؟! نهض نادر واقترب من مبرورة، وربت على كتفها، وقال بتحكم في سيطرة:

- أرى، مثل فخري، أن والدك بخير، وسنسمع عنه أخباراً عن قريب، فلا بد لك من الابتعاد عن هذه العائلة القبيحة. أعادت عبارة "العائلة القبيحة" الحياة إلى مبرورة، وأكدت لنادر وهي تداعب منديلها بأصابعها:

- صحيح جداً، أنت محق. لقد بدأت أشعر بالاشمئزاز منهم. وبهيج هو الوحيد الذي يحافظ على قليل من الاعتدال،

وأصبح أكثر حكمة في الآونة الأخيرة، ولم يعد شاباً مولعاً بالفجور كما كان. أما الآخرون؛ والدته، وابنتها، وضيوفها، وأصدقاؤها، فمجانين، غير أخلاقيين على الإطلاق، غير أخلاقيين بالمعنى الحرفي للكلمة .

قال نادر وهو متبته لإثارة الفتاة الصغيرة، دون أن يأخذ وقتاً لإشعال السيجارة التي أخرجها من العلبة:

- آه يا مبرورة هانم، أنت تطرحين قضية حيوية جداً؛ لأنك... لأنك... تتحدثين عن أشباه فتيات، أشباه فتيات.. هذا هو أفضل اسم يمكن إطلاقه عليهم: "أشباه الفتيات"! فهذه المخلوقات التي تفعل الأشياء التي رأيتها عندما تكون حرة، دون خجل، تعرف جيداً كيف تبدو خجولة، وعديمة الخبرة عندما تبدأ بالبحث عن زوج. أنا أعرف هؤلاء الفتيات جيداً، هناك كثير منهن يا مبرورة هانم. هن يصنعن لأنفسهن منازل مريحة وهادئة في آدا ومودا^(١) في الصيف، وفي بيوغلو وشيشلي^(٢) في الشتاء. لا يبقين ساكنات أبداً. هن في حركة مستمرة لتحقيق أهدافهن في كل خطوة يقمن بها. وهدفهن هو العثور على حبيب وزوج. يختارون عشاقهن من بين الشباب الذين

(١) حيّان في إسطنبول.

(٢) حيّان في إسطنبول.

يتخلونهن، وهن على استعداد لتقديم التضحيات من أجلهم. ويجبون الشاب الذي يمنحهن مزيداً من الإثارة بحب شرس للجسد. وما يفكرن فيه عن الزوج هو عكس ذلك تماماً؛ فهن غير راضيات على الإطلاق عن الزواج من رجل ذكي. هن يبحثن عن السامسة المسنين، والتجار المعاتيه، والأثرياء المسنين الذين يفتقرون الشعور لاكتشاف الأفكار والحركات السرية. ماذا تريدون؟ هؤلاء الحمقى لديهم ثروة أكثر من أي شاب، وأقل ذكاء من أي شاب آخر. تذكرى مقولة "قليل العقل كثير المال"، هذا هو المثل الذي تذكره أشباه الفتيات أكثر من غيرهن. وأعرف كثيراً من هؤلاء. إنهم يحبون زوجاتهم بجنون، حتى إن أكثرهم خسة يكونون كرماء مع زوجاتهم ويضحون بذواتهم تجاههن، ولا يصدقون أبداً أنهم تعرضوا للخيانة، ويظلون منخدعين حتى آخر العمر.

هَبَّ فخري من على سريريه وقال:

- آه، سيد نادر، سيد نادر، الآن ستثيرني، لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أي نوع من التردي هذا يا سيد نادر، أي نوع الانحطاط؟ أي صمت مذهل ولافت للنظر هذا الذي يهيننا لصراع متبادل، مع أنه يمزقنا كل يوم؟ ماذا نفعل يا أستاذ نادر؟ يا صديقي هذا وضع مدهش.. يا الله! نحن نرى الانهيار

الأخلاقي لجيل أماننا مباشرة، لا نستطيع أن نرفع صوتنا، لا يوجد شيء نستطيع أن نفعله، لا سمح الله.. هذا أمر جنوني، يا سيد نادر..

- والله يا عزيزي فخري، هناك كثير من الشباب والفتيات والنساء الذين سيواسوننا، وهم ذوو أخلاق وفضيلة رغم كل المؤثرات. وكما قال الشاعر توفيق فكري: لا تحزن أبدًا؛ فلديك أبناء وفتيات رحيمات

هذا صحيح، ومن الضروري إنقاذهم.

فسألت مبرورة:

- هل بيلما مريضة يا سيد فخري؟

فأجاب الشابان معًا:

- نعم، هي ترقد.

- وما بها؟

أوضح فخري:

- زرتها مساء أمس، كانت متعبة جدًا، ووجهها أصفر مثل ذلك الحجاب، وعيناها جوفاء، ودرجة حرارتها تبلغ ثمانين وثلاثين درجة ونصف الدرجة. سعدت جدًا عندما رأيته.

اقترَب نادر من فخري وقال:

- حرارتها ثمانٍ وثلاثون درجة ونصف الدرجة؟

وسألت مبرورة:

- وممَّ تعاني؟

- حرارتها ثمانٍ وثلاثون درجة ونصف الدرجة، ومرضها

غير معروف. يأتي إليها طبيب شاب كانت تعرفه بيلما من قبل، قال إنها تعاني "ضعفًا"، لكنني أعتقد أنه لم يكن يقول الحقيقة.

عندما رفعت مبرور رأسها، رأت عيني فخري الشديتي الاحمرار واللاتان تشبهان في سوادهما سواد القدر، وأدركت أن لديه لحظة قصيرة من الخيال، وأحست بالعرشة السرية التي تشعر بها النساء عندما يحظين بالإعجاب. ولم ترد لهذا الصمت أن يصبح ذا معنى كبير، ففتحت حديثًا:

- سيد فخري، هل صعدت الجبال في مانيسا^(١)؟

- صعدتها مرة واحدة. وشاهدت مجموعة يا مبرورة هانم

أخبرتكم بها، فهي إحدى مناطق غرب آسيا الجميلة. مانيسا، المحاطة بالجبال، تصبح أرجوانية وساكنة في المساء، وبعد

(١) مدينة مانيسا هي عاصمة محافظة مانيسا، وتقع غرب تركيا.

أصوات الأذان النادرة التي تنشرها الرياح الخفيفة، تنخرط المدينة في صمت لا نهاية له، ومع حلول الظلام يمكن رؤية الأضواء الخافتة لمصابيح الزيت الضعيفة في المنازل الواقعة على سفح التل. إنه شيء جميل يا مبرورة هانم، فأفضل شيء يناسب مانيسا المهجورة وأهلها ذوي القلوب النقية هو هذا الصمت السلس والمستمر، وعممة المنازل التي أحبت وقبلت هذا الظلام يا مبرورة.

وبينما كانت الفتاة تأخذ نفساً عميقاً وطويلاً، وكأنها تشم زهرة عطرة، رمشت عيناها، وابتسمت، ومدت رأسها إلى الأمام:

- لقد ذكرتني بشكل جميل بمانيسا. هل تعلم أنني أحبت صوت الأذان أيضاً؟ فكم مرة كنت أخرج رأسي من نافذتي وأنتظر صعود المؤذن إلى المسجد الذي كان في زاوية حيناً. لا أدري إن كنتم تعرفون ذلك المؤذن أم لا، هو رجل مسن، صوته مهزوز، يؤذن دائماً في الصباح، وله ألحان غريبة.

- لا أستطيع أن أتذكر.

- آه، أود أن أرى ذلك الرجل قبل أن يموت. ما أطيّب قلبه! ما أطيّب قلبه! لا أعتقد أن كل المؤذنين يمكن أن يكونوا جيدين مثله.

فتبسم نادر، وأردفت الفتاة:

- لن أنسى أبداً، كنت في السادسة عشرة من عمري، وفي إحدى الليالي حدث حريق في الحي، فأخذني هذا المؤذن إلى منزله حتى لا أخاف، وأشعل عوداً وهو ينظر إلى لهيب النار، وقد شعرتُ برغبة في البكاء وتساءلت: "هل ستحرق النار منزلنا؟"، فقال لي الرجل بنظرته الأكثر رحمة: "يا بني، يا عزيزتي، النار لا تحرق إلا الخطب. هل نحن حطب؟ نحن بشر، ولدينا روحانيات، فما الخوف الذي نشعر به من النار؟ نصلي ركعتين أينما كنا ونسجد للرحمن". يا لها من مثالية عظيمة أعطتها لي هذه الكلمات. لا يمكنكم تخيل ذلك.

وتحدث فخري بشوق وإسهاب عن المؤمنين الحقيقيين، والرجال الأقوياء روحياً الذين التقى بهم في الأناضول. تحدث هو ومبرورة عن الريف، والعادات الرقيقة والجميلة للسكان المحليين لما يقرب من ساعة. تذكر كلاهما أفكارهما المشتركة، وأشواقهما المشتركة في جو ملهم.

كان نادر يستمع إلى هذا الحديث بسعادة بالغة، منتبهاً أن أولئك الذين يشبه بعضهم بعضاً، الأزواج الحقيقيين، يخلقون انسجاماً جميلاً. يمكن تسمية هذا الخطاب بموسيقى الأفكار. ومع ذلك، أيقظ صمت نادر، الحذر، مبرورة فجأة.

وقفت الفتاة على الفور، وأرادت معرفة الوقت، وقالت:

- عفواً.. عفواً.. لقد تأخرت كثيراً، يجب أن أذهب.

سأل فخري بعد "آه" طويلة:

هل ستذهين؟ أليس هذا استعجالاً؟ لم يحل الظلام بعد. لا حرج في هذا، أنا لست مرتبطاً بأي شيء آخر، اجلسي قليلاً.

- يجب عليّ أن أذهب.

بدا فخري مستاءً، بدأ يشعر بألم عدم رؤية الفتاة فترة طويلة مرة أخرى، كان يتمم ويمرر أصابعه على جبهته، كما كان يفعل عندما كان يفكر:

- في هذه الحالة؟ في هذه الحالة؟

قفز فجأة:

- هل تقبلين طلبي؟

- وما هو؟

- دعيني أذهب إلى حي جامليجا معك غداً.

دهشت الفتاة وقالت:

- إلى جامليجا؟

- ساحيني لجرأتي، فقد خطرت هذه الفكرة في ذهني فجأة، وأكثر مكان في إسطنبول جعلني أشعر كما لو كنت سأفقد الوعي هو جامليجا، أعتقد أنك لم ترَ هذا المكان؟
- لا. ولكن..

- إذن، اقبلي يا عزيزتي، سيكون من دواعي سرورك، فالطقس جميل، والطرق نظيفة، وجامليجا أرض جرداء على أي حال، تزدد جمالاً في الخريف والشتاء، ستشاهدين إسطنبول من هناك. ألا يجوز ذلك؟ ستوافقين، أليس كذلك؟

كان رجاء فخري دافئاً وملحاً إلى درجة أن مبرورة لم يكن لديها الشجاعة للرفض، ولم تستطع قبوله أيضاً، فأحنت رأسها لعدم رغبتها في النظر في عيني الشاب المتوسلتين، وفكرت ملياً ثم وافقت.

وحدّدا الزمان والمكان. وعند خروج مبرورة من الغرفة كان نادر يسرع في إخراج عود من الثقاب لإضاءة القاعة والسلام. فقال فخري:

- ما أجمل ما فعلتما، ستبقى معي ذكرى تستمر نصف قرن إذا عشت، ما أجمله من يوم، شكراً جزيلاً لكم. تصحبكما السلامة، انتبها حتى لا تسقطا، سأشعل عود ثقاب آخر، انتبها

لدرجة الثالثة من السلم؛ إنها مكسورة. وداعًا، نلتقي غدًا في الساعة الواحدة عند الميناء.

العودة إلى جامليكا: الساعة الثامنة مساءً. تأخرت مبرورة عن القصر، والأسرة مجتمعة على المائدة؛ ناجية هانم وابنتها وسيرات.

وكان بهيج أنيقًا ومتألقًا في تلك الليلة. كان شعره مقصوصًا وممشطًا حديثًا، وقميصه الكحلي لم يلبس قط، وكان وجهه ورديًا، وكانت عيناه ملونتين ومشرقتين، وسأل بمرح ولا مبالاة:

- مبرورة هانم! أخبرينا ماذا فعلت؟

وبطبيعة الحال، أولى بهيج والآخرين أهمية لهذه الرحلة لسبب ما. وبدأت مبرورة بكلمة "والله":

- لم أكن أعلم أن إسطنبول، من منظور عين الطائر، جميلة إلى هذا الحد.

فقال بهيج: "ليكن هناك حب"، فضحك سيرات ونيفين، وتغير بهيج على الفور.

وبدأت ناجية هانم في الحكى عن إحدى حفلات الزفاف في جامليجا، كانت تقوم بتقليد مبتذل، مع بهجة مفعمة بالحوية

لكأس النبيذ التي أمامها، مما جعل الجميع يضحكون باستثناء جوزيده، التي استمعت إلى هذه القصة كثيراً، ومبرورة، التي بدا عليها أنها شاردة الذهن، ولم تنته قصة الزفاف حتى نهاية الوجبة.

قالت مبرورة إنها متعبة ودخلت غرفتها، لكن وجهها تعرض للمسة هواء شديد البرودة. في الحقيقة، أصبحت الرياح عاتية، وتهب بقوة تشبه شتاء الأناضول المظلم، وكان عليها إشعال الموقد، ففعلت ذلك دون أن تخلع ملابسها.

وأخذت تتجول في الغرفة دون أن تخلع ملابسها حتى اشتعلت النيران في الحطب، وأصبح الهواء في الغرفة دافئاً وهي تقول: "نزهة جامليجا.. نزهة جامليجا.. يوم مهم"، كم كان جميلاً صمت الطرقات في أثناء نزولنا من كيسكلي إلى باغلارباشي^(١)..

كان هناك بريق متعرج كهروماني أصفر في الأفق، وكل المناظر حادة وبراقة، الأشجار بهياكلها الصلبة، والمنازل بنوافذها المشتعلة باللون الأحمر، والحجارة البيضاء النظيفة المدفونة في التربة الوردية، ومسارات الترام الحديدية التي تختفي في نهاية الهبوط، كان كل شيء يلمع. وقد أشار فخري إلى ألعاب الألوان التي لا نهاية لها في السماء: كان هناك ضوء حاد شديد البياض،

(١) حيّان في إسطنبول.

لامع مثل الفضة، يتسرب من شقوق مجموعة من كتلة سحابة رمادية، يتوسع و ينتشر في الفضاء مثل الأشعة العادية التي تخرج من جهاز عرض في الظلام. في بعض الأحيان كان يتدفق لون ناري، ومع اختفاء السحب، يتحول دخان بطيخي اللون تدريجيًا إلى اللون الوردي والبرتقالي، ويتلاشى أخيرًا أمام اللهب القرمزي.

بدأ الموقد يتذمر.

بدأ هدير العاصفة يعلو. كانت الريح، التي كانت تشبه في بعض الأحيان انفجارًا ضخماً، تهز القصر والنوافذ، وتحدث حفيفًا في أشجار الحديقة. كان هناك شعور فج في غضب الطبيعة هذا، زاد رعب الليل السماوي، وأثار رؤى مشؤومة. وفي مرحلة ما، هدأت هذه العاصفة جدًا إلى درجة أن مبرورة ذهبت إلى السرير، ودفت أذنيها في الوسادة واللحاف، وأغمضت عينيها، ودون أن يكون لديها وقت لمواصلة أفكارها من حيث توقفت، لم تتمكن من مقاومة الهجوم الشديد لكلل النهار فنامت.

أمضى بهيج تلك الليلة وهو يفكر، فلم يرّقه تجوال مبرورة مع فخري، ويخشى الصراع مع خصم مجهول. ففي الواقع، هو لم يعرف فخري، وكان يتصوره، بحسب روايات

نادر العرضية، أنه شخص مختل وغامض. ما يعرفه عنه كان بسيطاً: هذا الشاب الريفي ما هو إلا رجل متحمس ومتعلم. كيف يمكن للرجل أن يتأكد من أنه لن يكون له تأثير على مبرورة؟ ففي الماضي كانت ألفاظ مثل الروملي، والأناضول، والريف، والمهاجرين تثير غضب أهل إسطنبول، حيث كانوا دائماً يتخيلون في هؤلاء الناس شيئاً غريباً، أو بعيداً أو مفقوداً؛ وبخاصة رجل ريفي من عوالمهم المهدبة سيكون له تأثير مثير للاشمئزاز، مثل عبيد الصحراء الكبرى السود الذين كانوا يرتدون جلود الحيوانات البرية حتى خصورهم. لكن الآن، ليس الأمر كذلك، لقد تغيرت الأمور، وأصبحت بعض الأفكار الأخرى التي لا يعرفها في أي ركن من أركان إسطنبول، وخاصة القومية، والمثالية، والتورانية، والشعبوية، وما إلى ذلك، رائجة. وبعد الهدنة تحديداً، اكتسب القادمون من الأناضول شهرة أكبر من أولئك الذين قدموا من باريس وبرلين وفيينا وأيسلبن ونيس والبندقية. مع أنه في حي شيشلي كان عدد الأشخاص الذين أعجبوا بهذا الاتجاه منخفضاً، باستثناء بعض القوميين المتملقين، ومع أن أولئك الذين استمتعوا بالتقاليد الفرنجية لم يغيروا العادات وأسلوب الحياة الذي كانوا يقدرونه، فإن بهيج كان يدرك جيداً أن السلطة والهيبة كانتا بعيدتين، وأن هذا الاتجاه سيصبح عامّاً في النهاية، وخاصة الفتاة الشديدة الوطنية

مثل مبرورة، التي اضطهدها العدو مباشرة، ستحب بالطبع الريف، وأهل الريف؛ لذلك قد يكون فخري نقطة ضعفها.

كان يفكر في حل: لا بد من التخلص من فخري، ووضع الفتاة الصغيرة تحت سيطرته قبل فوات الأوان. يجب حل هذه المشكلة، فقد استمر الأمر طويلاً، طويلاً جداً، ما الذي يجب فعله؟ كيف يجب أن نصل بالمسألة إلى مرحلتها النهائية؟ حتى ذلك اليوم، تمكن بهيج من الظهور أمام مبرورة جاداً، ومخلصاً، وخلوقاً، وقومياً. ومؤخراً، كانت نيفين أيضاً تساعده، وتختلق معه مناقشات وهمية، فالأمر على ما يرام.. حسناً.. لكنه ليس كافياً، علينا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ما الذي يجب فعله؟

فكر بهيج في هذا الأمر فترة طويلة. وأخيراً، قرر أن يفعل مثل فخري ويعرض على مبرورة الخروج لنزهة. أولاً: سينفق الكثير في هذه الرحلة وينجح في إسعاد الفتاة الصغيرة، ثم يعترف بالحب العميق وخفقان القلب الذي شعر به تجاه مبرورة منذ اليوم الذي أتت فيه، أما إذا أظهرت الفتاة علامات الرفض، فسوف يعدها بمستقبل مشرق. وكان الوعد الجميل للمستقبل الذي تصوره بهيج شيئاً من هذا القبيل؛ سوف يمنح نصف ثروته لمبرورة، ويتزوجان، ويذهبان على الفور إلى الأناضول، وسيشتريان أجمل مزرعة في أجمل مدينة، ويبحثان

عن والد الفتاة الصغيرة، وسيأتیان به إلى المزرعة، وسيعيشون هناك سنوات، أو بقدر ما ترغب مبرورة، ویتعدون عن أحياء إسطنبول المتردية غير الأخلاقية والمضطهدة.. أوه، الكمال المثالي. بالطبع ستكون مبرورة سعيدة جداً بهذا الوعد، فهي لا تستطيع رفض ما تريده من كل جانب، لا تستطيع، لا تستطيع.. وإذا لم تصدق وعود بهيج هذه، فسيعطىها بعضاً منها، فمن السهل عليه أن يعطيها ضماناً مالياً بسيطاً في الوقت الحالي، ولو عقداً، أو ورقة مختومة، أو شيئاً من هذا القليل.

أحب بهيج تصوره هذا ونام نوماً مريحاً. وفي اليوم التالي، تمكن من رؤية الفتاة الصغيرة في فترة ما بعد الظهر.

كانت مبرورة تتصفح المجلات في غرفة المعيشة. عندما دخل بهيج نظر بعينين مرحتين واقترب من الفتاة مباشرة وقال:

- لدي طلب منك.

سألت مبرورة بلا مبالاة، دون أن تترك المجلة:

- ما هو؟

- أقترح أن نخرج لنزهة اليوم.

رفعت الفتاة كتفيها في دهشة وأشارت إلى الحديقة:

- في هذا الطقس؟

في الواقع، كانت هناك أمطار خفيفة وغزيرة في الخارج،
تشبه الصقيع، ورياح شديدة اشتدت منذ الليل. هز بهيج
كتفيه قائلاً:

- لا يهم، ستجول بالسيارة.

فكرت الفتاة في التنزه بالسيارة؛ كان هذا، قبل كل شيء، مسألة
ثقة بهيج. وبينما كانت تدير عينيها نحو البيانو، نظرت أيضاً
إلى الشاب الذي كان ينتظر قرار مبرورة بعد التوصل الذي
كرره كثيراً في الأيام الأخيرة. ماذا يمكن أن يكون غرضه؟
الاغتصاب مرة أخرى؟ ألم يدرك أنه لم يعد بإمكانه كسب أي
شيء بالوسائل القبيحة؟ لم تصدق الفتاة الصغيرة هذه الفكرة.
همس بهيج:

- أنتِ صامتة!

وجدت مبرورة عذراً خاطئاً:

- ربما سأشعر بالبرد.

- هل تشعر بالبرد؟ أيعقل هذا! يمكن القيام برحلة إلى
القطب باستخدام سيارة مرسيدس مثالية. لقد تجولتُ بسيارتي
وسط ثلج يبلغ ارتفاعه ذراعين في فيينا، أوووه.. بارد؟ أبداً.

- الأمر لا يتعلق بالبرد فقط..

- إذن، بماذا؟

كانت الفتاة تبحث عن السبب الثاني وهي تتجهم:

- ليس البرد فقط.. لا أعلم.. إنه أيضاً قليل من الرغبة..
لسبب ما، أنا لا أحب السيارات..

- السيارات المغلقة؟

لم تجب مبرورة. اقترب بهيج أكثر، وانحنى أكثر، وتوسل أكثر، وقال إنه يتشوق إلى هذه الرحلة منذ زمن طويل، لكنه لم يجرؤ على تقديم طلبه لها، وإنه لم يجد أن هناك مانعاً من الطلب، فوافقت الفتاة.

فقالت نيفين، التي سمعت الحوار، "سأتي أنا أيضاً"، وبعدها أدركت مؤخراً هدف بهيج اعتذرت قائلة: "يااه، صحيح، أنا مدعوة عند مليكة هذا المساء، فلا يمكن أن آتي معكم".
وتقرر موعد النزهة على أن يكون في الساعة الخامسة، وستتحرك السيارة إلى يني كوي^(١)، ثم تعود منها.

أجرى بهيج اتصالاً هاتفياً بمرأب (جراج) يعرفه، ثم جاء إلى القصر، وصعد إلى غرفته، وغيّر ملابسه، وقام ببعض أعمال المرحاض.

(١) حي يني كوي هو حي في إسطنبول يقع على الشواطئ الأوروبية لمضيق البسفور بين حيي إستيني وتارايبا، ويتميز بالبيوت ذات الطراز الجميل والفيلات الراقية.

أما مبرورة فكانت تستعد في غرفتها ويبدو عليها إشارة طفيفة؛ فكانت ترغب في هذه الزهرة، ودهشت من هذا الطلب، حتى إنها اهتمت بملابسها، وأمضت كثيراً من الوقت في شعرها ورأسها، فعندما كانت تتصفح المجلات الأوروبية في غرفة المعيشة بشكل متكرر، كانت تشعر برغبة جديدة في ارتداء ملابس جيدة، حتى إن نيفين انتبهت لرغبتها في ذلك اليوم وقالت: "أوه.. لقد بدأت تفهمين في الموضة جيداً، ولديك موهبة".

عندما انتهت الفتاة من تحضيراتها، كانت الساعة قد قاربت الخامسة. وعندما نزلت إلى غرفة الطعام، وجدت بهيج يرتدي معطفه الكبير، ويأقته مرفوعة، ويرتدي حذاء جلد الغزال السميك، فقالت: "أنت تشبه المسافر". في الواقع، كان بهيج أنيقاً جداً في هذا الزي. برأسه الصغير المدفون في ياقة معطفه الأسود المقلوبة، وشفتيه وابتسامته في الظل، وقفازاته الكريمة الفاتحة -الحام قليلاً، ولكن العصرية- بدا بسيطاً ونيلاً. وقف وقال إن السيارة جاهزة، لكنها تنتظر في الشارع، ولا تستطيع القدوم إلى الباب؛ لأن الطريق قيد الإصلاح.

سارا إلى الحديقة.

صفع الهواء الشديد وجهيهما. كانت السماء سوداء قائمة، غائمة، وكانت الرياح تهب قطرات المطر الغزيرة في كل مكان،

وتهز الأشجار بصوت طقطقة مرعب يجعل التنفس صعباً.
توقفت الفتاة وقالت: في هذا الطقس...

مشى بهيج: الطقس جميل جداً، تأكدي أن هذا الطقس هو
الأفضل للتجوال بالسيارات.

عندما خرجا إلى الشارع، أعطى بهيج ذراعه لمبرورة. كان من
الصعب السير على الطرق التي يتم إصلاحها. ولكن دون أن
يخطو خطوتين، توقف حيث كان، ونظر نحو بقعة مظلمة على
الرصيف المقابل، وضغط على ذراع الفتاة الصغيرة:

- مبرورة هانم، انظري هناك، هل ترين نقطتين داكنتين؟

رأت مبرورة ذلك أيضاً: مقابل بوابة حديقة القصر، على
حافة مكان يشبه الخراب، يوجد ظلان أسودان متجمعان
معاً، ينظران إلى نوافذ الطابق العلوي من القصر، ويشيران إلى
شيء بأيديهما، ولم يريا مبرورة وبهيج اللذين خرجا فجأة، لكن
عندما توقفوا، أدرك الظلان أنهما شوهدا.

الجو مظلم، وكان من الممكن رؤية الأشكال العامة لهذين
الظلين، في الضوء المرتجف للمصباح الكهربائي القادم من أسفل
الشارع، لكن لم يكن من الواضح أي نوع من الأشخاص هم.
وبينما كان بهيج يخطو نحوهم بدافع الفضول الشديد، عاد الظلان

إلى الخرابة، وهربا بخطوات متسارعة واختفيا في الظلام الداكن.

- شيء غريب.

فوجئت مبرورة أيضًا وقالت:

- حقًا، إنه أمر غريب جدًّا، ولا شك أنهم مشغولون بالقصر.

واتكأت على ذراع بهيج وتمت بصوت منخفض:

- سيد بهيج، أنا خائفة، دعنا نراجع الليلة ونعد إلى الداخل.

أجاب بهيج وهو يفكر:

- هل يجب أن نراجع، لا تكوني طفولية، يا مبرورة هانم،

لا يوجد سبب للخوف.

وأخذ الفتاة الصغيرة من ذراعها ومشى بها بضع خطوات.

كانت مبرورة تتوقف من وقت إلى آخر وتقول إنها تريد العودة، لكنها لم تصر، خوفًا من أن تبدو جبانة. ومع أن بهيج كان يطمئنها دائمًا، فإنه في أثناء سيرهما في الشارع، لم تتمكن من منع نفسها من تساؤلات مثل: "من يكون؟ ما المناسبة؟".

كانت السيارة جاهزة. وبعد أن حاول بهيج إقناع مبرورة، التي كانت مترددة، أمسك بيد الفتاة، وأجلسها، وأمر السائق بالتحرك.

تمايلت السيارة إلى الأمام عدة مرات، ومضت وسط التشنجات الأولى للبنزين المشتعل.

ومع زيادة السرعة، كانت أضواء المحال التجارية المشتعلة بالكهرباء تمتد مهتزة وتتقلب أسفل الضباب الخفيف الذي أحدثه الطين، وأصبحت ألواح النوافذ ضبابية فجأة، كما كان هناك مصباح كهربائي صغير داخل السيارة أراد بهيج أن يطفئه بعض الوقت، لكن الفتاة منعتة بقوة.

وعندما خرجت السيارة من الشارع، أشار بهيج إلى الطرق والمسافات المغطاة بالدخان الكثيف بسبب تساقط الأمطار:

- أحب هذه المناظر، فالسيارة لها مذاق خاص في هذا الطقس. وبينما يقول ذلك كانت الفتاة شاردة الذهن.

كانت تنظر إلى الأماكن التي يشير إليها بهيج، وهي تغمض عينيها، ويبدو أنها تفكر في أشياء مهمة. وأراد بهيج بدء حوار بتأنٍ فسأل:

- الأناضول جميلة، أليس كذلك؟

- رائعة!

- ولكن ليس بها ازدهار.

- ماذا تقصد بازدهار؟ ربما لا يوجد بها كهرباء ووسائل

نقل، ولكن يوجد بها راحة بال.

- نعم، وهذا أفضل من أي شيء، إنها صفة لا توجد في مدينة أبداً. وفجأة، عاد إلى الحياة:

- هل تعلمين يا مبرورة هانم أن الأشياء المهمة تتبادر إلى ذهني، والرغبات القوية تضغط على قلبي؛ فأنا أريد مغادرة إسطنبول الآن.

تمكن من نطق هذه الجملة بصدق، ولاحظ الفرحة الطفيفة في عيني الفتاة اللتين تشرقان بخيال حي، وقال:

- نعم، مغادرة إسطنبول، والذهاب إلى أماكن بعيدة جداً. أريد أن أسافر قليلاً إلى ديار لم أرها من قبل، وتكون لدي علاقات صداقة مع الأجانب. أنا أعرف أوروبا جيداً ، ولا يوجد هناك شيء جديد للترفيه عني. فكل أنواع المتع والترفيه في أوروبا تكمن في القالب والكولا. كل شيء محدد، حتى قلوب النساء تتحرك وفقاً لقوانين معينة. حتى الحب له برامج محددة، ومراحل معينة. أوروبا تتحول إلى حجر، وكذلك إسطنبول التي تقلدها.

- أنت تفكر بشكل صحيح جداً.

وتابع بهيج وهو يشعل سيجارة:

- كنت أرغب في السفر إلى جنوب إفريقيا، فقد رأيت أوصافاً مثيرة للاهتمام لذلك المكان في إحدى الروايات. كنت سأسافر إلى

هناك في اليوم الذي شعرت فيه بالرغبة في مغادرة إسطنبول. وتوقف عن الحديث بكلمة "لكن"، حيث كانت السيارة تقفز على الطرق المكسرة وهي تهتز بشدة؛ مما أدى إلى حدوث تلامس إجباري بين مبرورة وبهيج، حتى إنه في إحدى المرات انحنت الفتاة بشدة تجاه بهيج إلى درجة أنها لم تمسك بركبتي الشاب لما تمكنت من العودة إلى رشدها. لقد كانا بعيدين تمامًا عن المدينة. كانت المناطق المحيطة شديدة الظلام. مرت السيارة بالطرق في حركة مستمرة، مثل نهر متدفق، في الأضواء المنتظمة المتساقطة من مصابيح السيارة الأمامية. كان رذاذ المطر المتجمد الذي دخل إلى ضوء المصباح في الظلام يتطاير حولها، ويتلألأ باللون الأبيض. نهضت مبرورة وسألت: "أين نحن يا تُرى؟"

نحن أعلى القمم يا مبرورة هانم، لا أستطيع تحديد المكان، ولكن سيتضح المكان بعد قليل. ماذا كنت أقول؟ آه، السفر. ثم قطع حديثه فجأة، ومال على مبرورة، ونظر في عينيها بدقة، وطرح سؤالاً يريد منه أن يعرف تأثيره:

- إلى أين تريد أن نذهب؟

- إلى الأناضول.

- كنت متأكدًا من ذلك. هل توافقين أن آخذك إلى الأناضول؟

ولم يقطع حديثه، إذ شعر بشكوك سيئة في عين الفتاة:

- سنبحث أيضًا عن والدك، وأنا على يقين من أننا

سنحصل على معلومات عنه، وسنجدّه. إذا وافقتِ سنذهب إلى كل مكان في ريف الأناضول.

حافظت مبرورة على صمتها المدروس، وتابع بهيج بصوته المرتجف الذي ينقل رغبة دافئة:

- سيكون هذا جيدًا جدًا، مبرورة هانم، سيكون جيدًا

بشكل رائع. فكري في الأمر، إذا وجدنا والدك، ما الذي لن نفعله هناك؟ سوف نشترى قصرًا، أو مزرعة مثالية، من يدري كم سيكون ممتعًا أن تعيش حياة حرة خالية من الضوضاء في الهدوء الدائم لقريّة بسيطة. فكري في الأمر، كم هو جيد أن تكون منشغلاً بالزهور فقط، وبالحقول وحيوانات المزرعة النقية والمخلصة في الربيع.

لم تستطع الفتاة الإجابة. ولم يكن بعينها نظرة واضحة بما يكفي لتجعلك تشعر بما كانت تفكر فيه.

- لقد فكرت في هذا من قبل يا مبرورة هانم، رحلة معك

إلى الأناضول من شأنها أن تنقذني من كل الضعف الأخلاقي. إن

الخروج من أحياء إسطنبول المزدهمة سيكون في مصلحتي الكبرى روحياً، وأخلاقياً، واقتصادياً، وهو مكسب يفوق مخيلتي، وأردت أن أعرض عليك هذا عدة مرات، لكنني تراجعته. لكن الآن، إخفاء هذا الأمر عنك أمر مؤلم جداً، لقد غيرني هذا الشعور تماماً، وجعلني شخصاً مختلفاً تماماً، إنه يدهش الجميع. لا أحد يفهم الاحتياجات التي تؤرق قلبي، لا أحد يعرف ما أفكر فيه أو أتخيله وأنا محبوس في غرفتي، ولا حتى نيفين، ولا حتى أمي، ولا حتى سيرات.. كلهم متفاجئون: "ماذا حدث لك؟" .. أنا في حالة اكتئاب أعرف أنها لن تنتهي. آه.. مبرورة هانم، لقد أردت أن أخبرك بهذه الأمور منذ وقت طويل. قالت الفتاة وهي تغمض عينيها بحالة من الإثارة جعلتها تتنفس بصعوبة: "اصمت" ..

- دعنا نتحدث عن هذه الأمور مرة أخرى، يا سيد بهيج، أنا منفعة جداً الآن، إنها كارثة ألا تفهم مشاعرك، يُرجى الصمت.

ثم قربت عينيها من النافذة وتساءلت: "أين نحن؟"

والنفتت إلى الورااء قليلاً وهي تريد أن تنظر من خلال النافذة الخلفية الصغيرة للسيارة، لكنها أطلقت صرخة رهيبة.

فوجئ بهيج وتساءل:

- ماذا بك؟ ما بك؟ ما الذي يحدث؟

ضغطت مبرورة على صدرها بيديها وتلعثمت بشفتيها
الصفراوين:

- هناك شخص ينظر من النافذة الصغيرة!

فتساءل: شخص؟

أغمضت الفتاة عينيها وهي ترتجف، وتهز ركبتيها معاً،
وقالت:

- رجل.. عيناه كبيرتان مثل الحجر.. هيه.. هيه، أثار
انتباهي.

وقد سمع السائق صراخ مبرورة، لكنه لم يلتفت إلى الوراء
حتى لا يُغضب بهيج.

طرق الشاب على الفور النافذة، وأمر السائق بالتوقف،
فتباطأت السيارة وتوقفت. قفز على الفور من السيارة، ونظر
خلفها، ولم يكن هناك أحد، ولكن سُمعت خطى رجل مسرعة
في الظلام، فحذق بهيج في الظل الذي يتبعد، وسأل السائق
ومساعده الذي بجانبه:

- ألا يمكننا اللحاق به؟

فأجاباه: إنه سيغير وجهته إلى شارع متكسر ويختفي فيه.

- آه آه.. معلوم.

وأوضح بإيجاز للسائقين اللذين كانا في حالة دهشة أن أحد الرجال كان يطارد السيارة، فضحك السائقان وقالوا:

- يا سيدي، يوجد غجر هنا، لا بد أن يكون واحدًا منهم، فهم يفعلون ذلك طوال الوقت. فسألت مبرورة وهي تخرج رأسها من باب السيارة:

- أي نوع من الغجر؟

- غجر عاديون وبسيطون، يتسكعون خلف العربات والسيارات المارة.

- لماذا؟

- للذهاب إلى المدينة.

فكر بهيج "لا بد أن هذا الرجل ليس من هؤلاء الغجر الذين يعلقون في الجزء الخلفي من السيارة عند منتصف الليل للذهاب إلى المدينة"، وقد جعلته هذه الفكرة يرتعد. وعندما ركب السيارة مرة أخرى، كان وجه مبرورة أبيض اللون. وبعد

الإصرار الشديد من الفتاة الصغيرة، أمر بهيج السائقين بالعودة.
تقدمت السيارة قليلاً وانعطفت من زاوية واسعة.

لم تتمكن مبرورة من إنقاذ نفسها من الاضطراب المستمر الذي
خلفه الحادث السابق على أعصابها، فسألت بشفتين مرتعشتين:

- آه، من كان يا ترى؟ وماذا كان يريد؟

أوماً بهيج برأسه بثقة مطلقة وقال:

- إنه هو.

فسألت مبرورة:

- من هو؟

أخفض بهيج صوته:

- مبرورة هانم، دعينا نغادر إسطنبول.

وأمسك بإحدى يدي الفتاة الصغيرة المدفونة في تنورتها
وأخذها بين كفيه مداعبها بضغط خفيف وكرر:

- دعينا نترك إسطنبول.

فصمت كلاهما فترة طويلة.

عندما دخلت السيارة شارع شيشلي مرة أخرى، أشرقت
الابتسامات في عيون مبرورة، وقالت:

- كنت خائفة جداً، لا تعلم، حالتي النفسية كانت سيئة جداً الليلة، أضواء الشارع أسعدتني جداً.

دخلا القصر. كان هناك ضيوف. فسألت نيفين: "كيف عدتما بسرعة؟" وعندما تحدث بهيج عن الظلال أمام الباب، ثم قصة الغجر، قفزت السيدة نظمية وصرخت:

- هل تقول ذلك حقاً؟ لقد تعرضت لكارثة، هاه؟ يا إلهي، أنا لا أحب هذه الأشياء على الإطلاق.

كانت مبرورة قد نهضت للتو من سريرها، وأخذت حمامها الصباحي، وبينما كانت في طريقها إلى غرفة الطعام، التقت بالخدمة أفدوكسيا. أوقفت المرأة العجوز مبرورة قليلاً وقالت:

- هناك رسالة لك.

اعتقدت الفتاة أن لديها خبراً عن والدها وصرخت:

- أي رسالة؟ مَن؟

ابتسمت إفدوكسيا بمرارة لأنها كانت تعرف خبايا القصر إلى درجة تفهمها قلق مبرورة:

- الرسالة ليست من والدك، لا تقلقي. نظرت أيضاً السيدة والآنسة نيفين إلى الظرف. لقد كانت قادمة من بيازيد، إنها على الطاولة في غرفة الطعام.

فتمتت الفتاة: "من بايزيد؟ من بايزيد؟ شيء غريب".. وهي تسير نحو غرفة الطعام، معتقدة أن من أرسل هذه الرسالة هو نادر أو فخري.

- انظري يا بنيتي، هناك رسالة لك، لم نتمكن من معرفة كاتبها.

عندما دخلت غرفة الطعام، سلمت السيدة نظمية لمبرورة الظرف الذي كانت تحمله في يدها وما زالت تتصفحه بفضول. واختتمت حديثها بسخرية واضحة:

- أعتقد أن شيئاً خاصاً سيحدث؟

وكانت نيفين أيضاً بتسم بعينيها المكحلتين المختبئتين خلف فنجان الشاي، وقالت: "الكتابة على الظرف كتبها يد مرتعشة".

أخذت مبرورة الرسالة التي مُدت إليها بهذه الكلمات التلميحية، وتظاهرت بأنها رافضة قدر الإمكان، وقرأت عنوان الرجل المكتوب على الظرف على نحو كثيف وجميل، ونظرت إلى الأم وابتتها وقالت:

- أرسلها فخري. وفتحت الرسالة.

لا يمكن قراءة التوقيع المختلط. ولكن، انطلاقاً من السطور الأولى التي تتحدث عن أمسيات تشامليجا، ومدن السماء،

والظلال، والصمت، بمجموعة كلمات مثيرة، يبدو أن الرسالة قادمة من فخري. لا شك أنها من فخري؛ رسالة من أربع أوراق كبيرة، بها سطور صغيرة رفيعة ومتكررة وأنيقة. كل شيء عن العودة من تشامليجا، الألوان، الأصوات، الظلال، عزاء الوحدة التي تمنحها الطرق غير المأهولة للقلب، متعة لا نهاية لها من مشاهدة تلك السماء الإلهية مع صديق حساس، رفيق الروح، كانت ملأى بالذكريات الدافئة. كانت مبرورة تقرأ هذه السطور وتتخيل الماضي القريب، وتنسى قليلاً ما يحيط بها، بابتسامة خفيفة رقيقة تزيّن زوايا شفيتها كالتطريز. وأيقظ ذلك صوت نيفين:

- اقترئي لنا يا مبرورة، فلنستمع إليها إذا كانت جميلة، وإذا لم تكن خاصة.

"إذا لم تكن خاصة" .. وصف هذه الرسالة بأنها "خاصة" كان بمنزلة قبول اتهام خطير لمبرورة؛ فأجابت على الفور:

- ليست رسالة خاصة، بالعكس، هو مقال جيد بما يكفي لنشره في الصحف، أرسله فخري، لقد كتب عن الأمسية في تشامليجا. وقرأت الرسالة من عدة مواضع عشوائية، ووضعتها في جيب تنورتها، فقالت السيدة نظامية: "جميل، جميل جداً، على الأقل اكتبني ردًا"، ولم تتخل عن سخريتها الجارحة.

وقالت نيفين:

- لو لم تتحلى بالشجاعة لما كتب فخري لك هذه الرسالة.
- أجابت مبرورة، التي انجذبت إلى الموضوع الساخن:
- لا، لم أبد أي شجاعة، لقد بدوْتُ طبيعية لفخري قدر استطاعتي.
- أنا لا أقول إنك تصرفتِ بتلقائية عمداً، ولكن ربما أعجبك هذا الشاب قليلاً، فأعطيته أولوية وشجعته دون أن تدري.
- أعجبت نظمية هانم، التي أنهت إفطارها واتجهت نحو الموقد، بحوار نيفين الماكر الذي فتحته لاكتشاف رغبات مبرورة السرية، وانتظرت باهتمام غير محسوس. اعترضت مبرورة وقالت:
- أوه! يبدو هذا غريباً يا نيفين، أنا لست طفلة.
- سارت السيدة نظمية نحو الباب، حيث خرجت وتركت الفتاتين الصديقتين وحدهما. وفجأة أخذت نيفين يد مبرورة في يدها، ومدت شفيتها قليلاً كما تفعل مع الرجال في لحظات الحب، ونظرت في عينيها، وقالت بصوت خافت:
- عزيزتي مبرورة، هل تحبينني؟

لقد بدت صادقة جداً إلى درجة أن مبرورة قالت "بالطبع" دون تفكير.

- حسناً، هل تصدقين أنني ليس لدي أي مصلحة فيما أقوله؟

أومأت مبرورة برأسها قليلاً وأكدت. لقد فهمت أن نيفين تستعد لمناقشة موضوع مهم، ونظرت في عينيها، وهي تنتظر هذا الموضوع الجديد بفضول. بدأت نيفين:

- اعترفي أن زواج بهيج ليس من مصلحتي على الإطلاق؛ لأنه إذا تزوج فإما أن يترك هذا البيت ويتركني وحدي تماماً بدون ولي، وإما أن يأتي بامرأة غريبة إلى هنا، مما سيكون مصيبة أكبر لي؛ ولهذا فإن زواج بهيج ليس في مصلحتي على الإطلاق، هل هذا صحيح أم لا؟

أحنت مبرورة رأسها مرة أخرى بدلاً من الموافقة.

- لذلك ليس لدي أي مصلحة فيما سأقوله. كل ما أريده هو فعل الخير لشخصين. ربما أثبتت لك قليلاً أنني لست فتاة أو امرأة تهرب من فعل الخير. بدون أدنى شك..

- هاه، شكرًا. أعطني القليل من حقي. أحد الشخصين اللذين أرغب في فعل الخير لهما هو بهيج. أريد إنقاذ بهيج حقًا. أريد إنقاذه من النساء والقمار والخمر والفجور. لا تتفاجئي، هه، الوظيفة الثقيلة تقع على عاتقي هنا. ولديه هذه الرغبة أيضًا، رغبة عارمة. والشخص الثاني الذي أريد أن أفعل الخير معه هو أنت! فهمت مبرورة غرض نيفين. ولم تُفاجأ بهذه النتيجة، وضحكت بدلال.. مهما حدث فقد أعجبها صدق نيفين. لم تتحدثا بهذه الصراحة من قبل.

قالت نيفين وهي تضغط على يد مبرورة في كفيها بمداعبة متزايدة بالصدق نفسه:

- إنقاذك، نعم.. تأكدي يا مبرورة أنني أفكر بك كل ليلة منذ مجيئك إلى هذا القصر. لديّ قليل من المال، ربما لست جميلة ولطيفة، لكن يمكنني أن أتزوج متى أريد. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنني أعرف كيف أجذب الرجال إليّ. ولأنني أثق بهذا، فليس لديّ خوف من المستقبل، ولا من الأخطار المجهولة. أما أنت.. أنت.. اليوم، أولاً، عليك أن تبحتني عن والدك وتجديده، عليك أن تبحتني لتجديده، يجب أن تذهبي إلى المحافظات، وإلى الأناضول. وللسفر إلى هناك عليك الحصول على المال والأصدقاء.. لا بد لك من حامٍ. هل يمكنك الذهاب بمفردك؟ مستحيل!

وأوضحت بثقة أكبر وهي تنظر في عيني مبرورة الحزنتين جداً:
 - لقد فكرنا دائماً في هذا. أنا وأمي وبهيج.. خطرت
 في أذهاننا احتمالات جيدة. ولكن كان من الضروري استشارة
 بهيج أيضاً. ومن دون الاحتياج إلى هذا، رأينا أن أخي يجبك
 كثيراً.. حتى.. حتى..
 وأضاف نيفين بتردد:

- يجب! يجب! ربما فهمتِ هذا أيضاً، وشعرتِ به أيضاً.

كانت مبرور صامتة، تطلق أصابعها، وتنظر إلى الأمام
 وتفكر، فقد كانت لديها شكوك بشأن هذا الحب فترة طويلة.
 وتابعت نيفين:

- لقد كان لك تأثير كبير على بهيج؛ فقد غيرت أخلاقه
 حرفياً، وفاجأتنا جميعاً؛ كان بهيج بالأمس مؤذياً، واليوم أصبح
 رجلاً هادئاً، وكأنه كبر عشرين عاماً. هذا التغيير يرجع إلى تأثيرك.
 لم ترد مبرورة.

- لا تشكي أبداً في تأثيرك. بهيج شاب مغرور، ربما لم يكن
 لديه الشجاعة لفتح قلبه لك، ربما ينتظر لحظة أفضل، ربما
 يخاف من الرفض، لكن لا تشكي في أنه يجبك حتى الموت.
 انظري، ماذا فكرنا: بهيج لديه أيضاً ثروة كبيرة، أكثر من

عشرين ألف ليرة. يمكنه تكوين عائلة مثالية. وإذا لزم الأمر، ستساعده والدتي أيضًا. أنت وبهيج، أنت وبهيج.. يا له من عش جميل يمكنك صنعه. أولاً، تذهبين إلى الأناضول، وتجدين إحسان أفندي، وتأخذانه معكما، إما أن تعودوا إلى إسطنبول وإما أن تعيشوا هناك عامًا أو عامين. ما رأيك بهذه الفكرة؟ أجيبيني، أخبريني، هل نفكر خطأ؟

صمتت نيفين.

وعندما رأت مبرورة أن دورها قد حان للإجابة، بدأت بعد تفكير طويل:

- نعم هذا التصور جميل يا عزيزتي نيفين، إنه جميل من جميع النواحي، نعم من الجميل أن أذهب إلى الأناضول؛ لأبحث عن والدي عن كذب، وتأسيس بيت هناك أمر جميل، أن أكون مع شاب ذكي وساحر مثل بهيج شيء جميل.. نعم، هذا المنزل ينقذه من الفجور وينقذني من البؤس، ربما سيجعلنا سعداء، هذا جميل.. لكن.. ماذا يمكنني أن أقول؟

نظرت نيفين في عيني مبرورة لتعرف بسرعة الفكرة الأساسية التي تخفيها كلمة "لكن" هذه، وسألت:

- لكن؟

وقفت مبرورة فجأة:

- اسمح لي أن أفكر.

- تفكرين؟ هل هذا ضروري بعد الآن؟ هذه مهمة بسيطة جداً. في رأيك، وفي رأينا، لا مجال للتفكير في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، يجب اتخاذ القرار النهائي الآن، فالأشياء التي تستغرق وقتاً أطول تكون حزينة. وبماذا ستفكرين؟ هل هناك شيء مخفي؟ ألا يمكننا أن نفكر معاً؟ ألا تعتبريني صديقتك؟

وقفت نيفين أيضاً ولم ترفع عينيها عن مبرورة.

وقالت الفتاة بعد قليل من التردد:

- حسناً، فلنفكر معاً. أنت تعرفين أيضاً مدى صعوبة الزواج. فيم ينبغي للمرء أن يفكر؟ فكما قلت، الأمر ليس بسيطاً، إطلاقاً. شخصان يعجب كل منهما بالآخر، حتى يجب أحدهما الآخر، لكن هناك شيئاً غامضاً، غامضاً جداً..

- ما هو؟

- الثقة.

فهمت نيفين ذلك، لكنها لم تجد كلمة. الثقة؟ كانت كل جهود بهيج تهدف إلى منح هذه الثقة، لكنه لم ينجح بعد. عبست وجهها قليلاً وتمتعت:

- وما طبيعة هذه الثقة يا مبرورة؟

- هذا شيء طبيعي، نحن نعرف علاقة بهيج بيلما، وقد رأينا بأعيننا كيف انتهت، وأنا لا أريد أن أقع فيها وقعت فيه بيلما بعد كل المآسي التي رأيتها في حياتي، هذا شيء طبيعي جداً.
- أنت لست على حق في هذا.

- لماذا؟

- لا تقارني نفسك ببيلما. هي شيء، وأنت شيء آخر؛ بيلما.. بيلما تعد مغناجة، واستحقت بعض معاملة بهيج. كما أن بهيج الأمس شيء، وبهيج اليوم شيء آخر، وأنت تشعرين بهذا الفرق أيضاً.

- ربما هناك شيء للتفكير فيه..

- لا شيء، لا شيء.. فقط قولي لي "حسناً"، ولنجهز خطوبتكما على الفور. وسترين؛ سننظم واحدة من ألمع الوائم في إسطنبول، سيحاول جميع أصدقائنا القيام بذلك، سيحدث شيء مثالي، أوه، وافقي، وافقي..

- عزيزتي نيفين أنا لا أرفض، أريد بعض الوقت للتفكير، فلو نظرتِ إلى شعوري اليوم يمكنني أن أقول "موافقة"، لكن..

صفقت نيفين بيديها وصرخت:

- كم هو جيد! كم هو جيد! تمت المهمة، أحسنت يا مبرورة! أحسنت أيتها الفتاة الجميلة! هل رأيت؟ برافو، برافو.. لا يجب أن يسمعها بهيج، سوف يحزن، والله سيحزن. وعانقت صديقتها، ولكن مبرورة أصرت على قولها:

- لا تتعجلي يا نيفين، نيفين.. نيفين عزيزتي، يجب أن أفكر قليلاً..

صرخت نيفين وقالت: "لا لا، انتهى الأمر، برافو، برافو"، وقبّلت مبرورة دون أن تترك وقتاً لها للرد، وخرجت من الغرفة وهي تصرخ: "بهيج، أين أنت؟ اركض، دع النوم؛ فهناك خبر أجمل من الحلم!".

لم يستيقظ بهيج بعد.

ركضت نيفين بسرعة إلى غرفة أخيها، وأيقظته بصوتها الحاد، وأخبرته بما تحدثت عنه مع مبرورة.

وكان الشاب يحاول تشتيت نومه بالضغط بقبضتيه على جفنيه، وعدم تفويت أي نقطة مهمة مما كانت نيفين تحكيه. وعندما رأى نيفين صامتة فتح وأغمض عينيه الناعستين:

- نعم، لم ينته الأمر بعد، لكن هذا يكفيني..

قفز منتصبًا على السرير وأشعل سيجارة:

- يجهز خاتم الخطوبة.. وليمة مشرفة.. هدايا.. التجول بالسيارة.. نزهة أو نزهتان أخريان وينتهي الأمر، الآن لنتنظر.

وبينما كان بهيج يقول هذا كانت نيفين تضحك بمكر وتحرك حاجبيها:

- ادع لي، ادع لي.

- شكرًا يا عزيزتي شكرًا..

قفزت نيفين:

- قلت شكرًا. آه.. إذا نزلت الآن ورأيت مبرورة اشكرها.

- فعلاً، دعونا نجعل هذا الشيء أمرًا واقعيًا. أنتِ على حق، هذه أيضًا فكرة.

عندما تُركت مبرورة وحدها في غرفة الطعام، بدأت تتجول بغضب. كانت تشعر بعدم ارتياح وخفقان في أعصابها يشبه الخفقان في القلب. وفي وقت لم تكن تتوقعه قط، جعلها هذا العرض تفكر كثيرًا: الزواج بهيج.. وكانت قد اكتشفت هذه النتيجة المبهمة منذ عدة أيام من خلال تحركات من حولها،

وكلام بهيج لها خلال جولته معها بالسيارة، لكنها لم تكن تعلم أن هذا العرض سيُقدّم لها بهذه السرعة المفاجئة. الزواج من بهيج! عندما يقال بهيج فإن أو ما يخطر في ذهنها ظل طويل، صورة لشاب يشبه الشباب الذين تُعجّب بوقفاتهم الأنيقة في صحف الموضة، ثم تذكر رشاقتة وكبريائه وغروره، وأحياناً طيبته وجاذبيته. كان هذا الشاب خطيراً وجذاباً، يهيمن على من حوله في كل مجلس، لا يحني جبهته أبداً، ساخراً أحياناً بعينه الضيقتين والمتعبتين، اللتين تعكسان غروراً مهمناً، هادئاً ومبهج المظهر، يعد بمتعة وسعادة غامضة بحركاته الغريبة، ولكن تجاعيد الكذب والخداع لم تتلاش في أسفل رموشه، ولا يمكن إنكار أهمية التضحية التي وافق عليها؛ فسيضحى بكل ثروته من أجلها، ويتحمل نفقات رحلة طويلة للبحث عن والدها المسكين والعثور عليه، فكانت هذه الرحلة إلى الأناضول بمنزلة وعد واضح جداً لمبرورة. وكان بإمكانها أن تحب بهيج بمجرد أنها فكرت في هذا الأمر، وكانت قادرة على ذلك، فلديه المال، فمن الممكن السفر بشكل مريح في جميع أنحاء الأناضول كأجنبية، على الرغم من عدم وجود أي وسيلة. لكن.. فخري؟ ذلك.. لا مفر.. فلا يمكن أن تطلب أو تنتظر من هذا الشاب الفقير، الذي لا يستطيع أحياناً أن يجد نفقة يوم واحد، نصف التضحيات التي يقدمها بهيج.. تذكرت مبرورة فجأة عيني

فخري. كانت هناك كل آثار الصدق في هاتين العينين، اللتين بدتا دافئتين وثاقبتين وعميقتين مع بريق لا يتلاشى أبداً. لقد سمحت الروح النقية الطاهرة أن يُنظر إليها في هذه العيون. ولكن، ما الفائدة من هذا؟ لا بد أن نعيش، من الضروري أن نعيش جيداً، من الضروري أن نعيش حياة مريحة. وكان من الصعب أيضاً على مبرورة أن تترك الرخاء ووفرة المركبات في هذا القصر. ولم تعد مستعدة للارتعاش من أحزان الهجرة القبيحة، ونقص المال، والمرض. وما أول شرط للطمأنينة التي تسعى إليها في الزواج غير هذا الرخاء؟

أخرجت رسالة فخري من جيبها:

كلمات حماسية.

ما يظهر على نحو متكرر في السطور: "آه.. يا مبرورة هانم"، كثير من اللوم الشديد على الحظ والغربة والوحدة، وأحياناً تمردات صغيرة، وأحياناً توكل الدراويش.. على سبيل المثال، يقول الشاب الفقير: "دعي الأمر هكذا مبرورة هانم، دعيني أحرم من صداقتك الثمينة واللطيفة والصداقة والوفية بضعة أيام أخرى. دعيني أنكمش في جدران غرفتي المتعفنة التي تنضح بقطرات الماء السوداء، دعيني أغطي جبهتي المحمومة بكفّي الباردتين، في شبه الظلام المتدفق من المصباح

لقد أيقظتني نيفين الآن على أخبار سارة. الآن أنا في الدقائق المجنونة الأولى من السعادة، وكل الكلمات التي يمكن أن تقال لشكرك عاجزة عن التعبير.

وبينما كانت مبرورة تترك بهيج لم تجرؤ على قول أي شيء سوى "العفو"، في حين كان أيضًا يتهج بفرحة قبيحة، ويعطي الأوامر لإفدوكسيا التي كانت تأتي من بعده.

- لا أريد الحليب، أريد الشاي فقط، لقد تجاوز الوقت الظهر، لكن النوم.. حسنًا، حسنًا.. هذا جيد جدًا. إفدوكسيا، شيء.. الشاي، ليكن الشاي خفيفًا.

في تلك الليلة، قالت السيدة نظمية لمبرورة على الطاولة:

- يا فتاة، لقد عشت كل هذه السنوات، وحاولت أن أتعلم كل الأشياء التي يمكن للمرأة أن تفعلها لتكون لطيفة، لكنني لم أتمكن قط من أن أكون لطيفة مثلك في أي يوم من أيام حياتي. أنا دائماً أقول ذلك. أنا فخورة بوجودك بين أقاربي.

وعندما رأت وجه مبرورة المحمر قليلاً ينحني أمامها وهي شكرها بطرف فمها، أضافت:

- كنت أريد أن أقول لك ذلك، لكنني لا أحب مدح الناس في وجوههم. أنت الآن ابتتي، وأود أن أقول لك بحنان

الأم: أتمنى أن تتخلى نيفين عن بعض رعونتها وتكون جادة ولطيفة مثلك.

بعد هذه الكلمات بدأت تتحدث عن والدتها مبرورة، وأوضحت أن الفقيدة كانت امرأة جميلة، وشخصيتها طيبة، وقلبها كالجوهرة. وقالت إن مبرورة تشبه والدتها جسدياً ومعنوياً. إن أسلوب المجاملة هذا الذي استخدمته نظمية هانم لترك انطباع جيد على الفتاة الصغيرة كان مأكراً حقاً، ففي تلك الليلة، بعد أن دخلت الفتاة غرفتها، ظلت تفكر في والدتها المسكينة: لم تكن تشبه أي شركسية، أو أيًا من نساء البلاط الملكي؛ لم تكن دقيقة، أو كريهة، كانت تتكلم قليلاً، وتستمع كثيراً، وتبتسم دائماً، لم تعيش طويلاً تلك الأم، المرتجفة من الداخل، في صمت متأمل بنظراتها المتأمللة الرحيمة الواهنة. لم يكن لديها أي نوع من القبح الذي يفعله الناس من أجل الحياة، ولا من الدناءة والرذائل التي تعد مشروعة؛ لم تستطع الكذب، لم تكن قادرة على خداع الآخرين حتى بحيلة صغيرة، لم يكن لديها ضغينة تجاه أي شخص، لم يخطر على بالها قط أن أي شخص يمكنه أن يكذب عليها أو يخدعها، طوال حياتها، لم تؤذ حتى قط سمور، ولم تسحق نملة. ومن رحمتها الواسعة والعميقة، لم تفكر في الناس فقط؛ بل في معظم الحيوانات

والحشرات الصغيرة. تتذكر مبرورة جيداً : في أحد الأيام، عانق طفل جارنا الصغير جرّواً في الحي، وصعد الدرج عند باب منزله، وألقى الجرو المسكين من فوق "الدرابزين"، ومات الحيوان الذي اصطدم رأسه الصغير بحجارة الرصيف الصلبة، بعد معاناة وصراخ طويل. وعند سماع هذا الصراخ، ركضت الكلبة الأم، وهي حيوان كبير وقوي، على الفور تجاه شبلها، وأخذت تلعبه وتلعبه، وظلت حتى أذان المغرب تعوي بمرارة وهي ترتعش وتنبح على فترات متقطعة.

وركضت والدة مبرورة، التي رأت هذه الواقعة من النافذة الكبيرة، إلى الباب، وأرادت أن تأخذ الحيوان المتألم وتواسيه بقطعة كبيرة من اللحم، ولأكثر من ساعة ظلت تناديه وتقول له: "تعال، تعال يا حيواني المسكين، تعال.. تعال يا صغير.. تعال يا أسد، تعال، تعال.."، لكنها لم تنجح، ولم تستطع حتى الصعود إلى الأعلى، فاستلقت على الوسادة الموجودة في غرفة الطعام بجوار المحجر في الأسفل، وبكت حتى جاء زوجها وداعبها، لكنها لم تستطع أن تعود إلى رشدها.

وبينما كانت مبرورة تفكر في هذا الأمر، دفنت وجهها بين يديها وقالت في نفسها: "آه.. أنا لا أستطيع أن أكون مثلها، لا، حتى زوجة خالي مخدوعة فيّ وتبالغ، أنا لست مثل والدتي".

آه.. لو ورثت ذرة واحدة من فضيلة قلب أمي لما تحملتُ
الحالة التي عليها والدي الآن، لفقدت الوعي أو مرضت ومت.
ومهما حدث، كنت سأنطلق في الطرقات، وأبحث عنه في كل
شبر وزاوية في البلاد حتى أعرف عن هذا الرجل المسكين أي
خبر. لو كانت أمي مكاني لفعلت هذا دون شك، دون شك..

ومع ذلك، فقد وافقت مبرورة على أن تلقى بنفسها في
أحضان رجل خطير مثل بهيج، مشكوك في قلبه وأخلاقه،
للقيام بهذه الرحلة الإجبارية. نعم، نعم، كل من في القصر
ينظر إلى زواجها ببهيج بنظرة قاطعة، ولم يتوقع أحد أن الفتاة
الصغيرة يمكن أن ترفض ذلك، حتى إنهم يرون أن حقها في
التفكير أمر أكثر من اللازم.

لقد حان الوقت، كان عليها أن تقول كلمتها الأخيرة في
اليوم التالي، إذا لم تقبل الزواج ببهيج، فعليها أن تقول ذلك
دون إضاعة الوقت، لكنها لم تتمكن من اتخاذ قرارها بعد، ولم
تتمكن حتى من التفكير في هذه القضية تفكيراً كاملاً؛ كان
عقلها بائساً، بائساً.

القبول صعب، خطر؛ لأنها لا تثق ببهيج، وحتى لو وثقت
به، فهي ليست على يقين من أن هذا الشاب لن يعود إلى
عاداته القديمة في يوم من الأيام. ثم ياله من شيء رائع! كم

هو مخيف أن يُخدع المرء، ويُترك جانبًا، ويُدفع جانبًا مثل قطعة أثاث، بعد خمسة أو ستة أشهر، أو سنة!

أما الرفض فقوة، ومن الضروري مغادرة القصر. ولكي تكسب لقمة عيش، عليها أن تختلط بأشخاص لا تعرفهم، أو لم ترهم على الإطلاق، وعليها أن تتحمل أسلوب معاملة يسيء إلى كرامتها. يجب عليها أن تتخلى عن الذهاب إلى الأناضول والبحث عن والدها.. موافقة؟ موافقة؟

وتذكرت الأخبار التي جاءت إلى مديرية المهاجرين من الصليب الأحمر اليوناني، فملأها فضول كبير. وفجأة، قررت أن ترى نادر لتخبره بهذه القضايا، وتذهب إلى مديرية المهاجرين، وبعد القيام بكل هذا، يمكنها التفكير بعمق في الوضع الجديد، وذهبت إلى الفراش، لكنها لم تستطع النوم.

لم تستطع النوم لأنها لم تكن تعاني عذاب الوحدة فقط؛ وإنما حماسة الشباب ورغباته أيضًا. وفي تلك الليلة، أدركت أكثر أنها بحاجة إلى العيش مع شاب، وبحاجة إلى قبالاته ومداعباته وتعزياته وعطفه وحمايته، وكل صداقته المادية والروحية. وشعرت بقشعريرة في جسدها بعد سيطرة رغبات جميلة صغيرة غامضة عليها. كانت تستسلم لتخيلات عشق يولد بين الحين والآخر، وتنسى كل أفكارها المنطقية وسط حلم مُذهِلٍ يذهب

بها إلى ما بعد المظاهر الأولى حتى الرعشة، وظلت تفكر لساعات وهي مشتتة بين الواقع والخيال المتوتر، مع عدم القدرة على التخلص من الأفكار المخجلة أبداً. وانتشرت الرطوبة الدافئة في فروة رأسها، وسيطرت على جسدها رجفة مستمرة. وفي تلك الثواني قررت عدة مرات الزواج بهيج. في الواقع، كانت واعية جداً بضعفها إلى درجة أنه لو تجرأ بهيج على دخول الغرفة مرة أخرى، كما فعل في إحدى الليالي، لما خرج من الباب مهزوماً، وربما كان قد رأى أول ضوء للشفاة ينفذ من الستائر. لكن كان هناك شخص آخر يصارع بهيج، شخص آخر خيالي، لم يمنح الفتاة متعة الجسد، بل أثار رغبات أعمق وأسمى؛ ألا وهو فخري..

لقد سيطر فخري، وكل جملة بهذه الرسالة وكل كلمة يزداد معناها بمفردها، على عقل مبرورة. ففي هذه السطور وعود بالمواساة والرحمة، في هذه السطور وعود بالرفقة الأبدية، والارتباط القوي الذي لا عيب فيه. في تلك الروح التي تشع حرارة في تلك العيون الدافئة، لا وجود لمكر بهيج، ولا فسق صالح وخسته، أو فلسفة نادر الساخرة، أو فجور سيرات اللفظ. يبدو أن صديق تشامليجا الحساس كان لديه ميل نحو الأشياء الدائمة، والعلاقات الطويلة والعميقة، وليس الأشياء

المؤقتة، ولكن ما الفائدة؟ فواجب الروح يتضاءل كثيراً في كل ضجيج الحياة هذا.

وفي الصباح ارتدت ملابسها على الفور، وركضت إلى الشارع مستغلة فرصة عدم استيقاظ أحد غير إيفدوكسيا. وفي عجلة من نفاذ صبرها استيقظت في الليل، وركضت إلى مديرية المهاجرين قبل وصول الموظفين وانتظرت.

وعندما رآها الموظفون قالوا لها: "ها! نحن سعداء لمجيئك!". قفزت مبرورة من مقعدها وصرخت:

- هل هناك أخبار؟

- لا نعرف، لكن المدير أراد رؤيتك. ستكون هناك أخبار.

ومدت الفتاة ذراعيها إلى الموظفين، وهي ترتجف وبها مظاهر الفضول وجانب من الإثارة القليلة من حياتها:

- أين السيد المدير؟ متى يأتي؟

- لسوء الحظ، لن يأتي اليوم. سيقوم بجولة في الثكنات مع أحد الكتاب الفرنسيين، ثم سيتوجه إلى الشرق الأدنى. لديه كثير من العمل للقيام به اليوم.

سقطت ذراعاً مبرورة وهي تقول "آه.."، وسألت الموظفين:
هل كان المدير لديه أخبار عن الصليب الأحمر؟
فقالوا: لا، السيد نادر هو من يقول لك ذلك، لكن المدير
لديه أخبار أخرى غالباً.

- آه سأجن. وأنتم لا تعرفون شيئاً؟

ولم يعرف الموظفون شيئاً. لم يكن بوسعهم فعل أي شيء
سوى مشاركة الفتاة قليلاً في فضولها وإثارتها.

- والحل؟

- تعالي غداً الساعة الحادية عشرة صباحاً.

- ألا يوجد هاتف في منزل المدير؟

- تعالي هنا غدا، سيكون أفضل.

يال له من أمر غريب! كانت هناك فرحة مشكوك فيها
داخل مبرورة. كانت تتخيل كل أنواع السعادة وهي تنزل
الدرج مسرعاً دون أي سبب. وعندما استقلت الترام للذهاب
إلى منزل نادر، بدأت تفكر بهدوء أكبر، وبداله تصرف
الموظفين السري مريباً. هل مقبول أنهم لا يعرفون شيئاً؟
الموظفون يعرفون أخبار المهاجرين بكل تأكيد، فما وظيفتهم؟!
يعرفونها بكل تأكيد، آه، نعم، إنهم يعرفون هذه الأخبار، لكن

من الواضح أنهم يخفونها، إنهم يخفونها؛ لذا لا بد أنها أخبار سيئة، أخبار سيئة. وبدأ قلبها ينبض، وتحولت كل آمالها فجأة إلى سواد قاتم. فمن السذاجة أن تفرح بلا سبب. آه! عليها الاستعداد للأخبار السيئة، وإلا ستصاب بالشلل. وقد توقعت عدة مرات أنها ستقع في هذا المصير المخيف إذا سمعت بوفاة والدها، وفي كل مرة كانت ترضى بأن تصاب بالشلل ثم تفارق الحياة إذا علمت بوفاته. نعم كانت تحب والدها إلى هذه الدرجة يوماً بعد يوم.

لم تجد نادر في منزله، فالتقت بوالدته، واستمعت السيدة الرحيمة إلى مبرورة باهتمام لا يتزعزع كما قالت في اليوم الأول. "إذا صدقت مشاعري، أشعر أن والدك على قيد الحياة، وسوف يحتضنك، وسوف تعيشون بشكل مريح.."، واكتشفت الوقت الذي كانت مبرورة فيه في أمس الحاجة إلى عطف الأم، فاحتضنتها بقوة وضممتها إلى صدرها، وقالت مرة أخرى بصوت مرتجف:

- ابنتي، ابنتي، طفلتي. تأكدي أنه لو كان لدي ابنة، فلن أستطيع أن أحبها أكثر منك. عندما تأتيك أخبار من المهاجرين، تعالي إلي وأخبريني، فلن أستطيع النوم بالليل من القلق.

تحدثنا فترة طويلة. ومع أنه كان يوم أحد، فإن نادر، على عكس المعتاد، غادر المنزل لوظيفة استثنائية، ولم يعط خبراً بموعد عودته.

وذهبت مبرورة إلى فخري بعد أن قبّلت يدي خيرية هانم الرقيقتين المرتحفتين، وغادرتها. ووجدت عيني الشاب متعبتين وحمراوين قليلاً من حني رأسه فوق كتاب مفتوح. وصرخ فخري بفرحة جنونية مثل أولئك الذين نالوا سعادة لا تصدق:

- ما هذا؟ هل أنتِ قادمة من السماء؟ هل سقطتِ من نجم؟
- أنت.. أنت.. جلست مبرورة بدون تكلف على مقعد وقالت:
- لقد اعتقدت أنني غير مخلصة. كان عليك أن تتمنى أن أزورك.
- نعم، صحيح. لم أكن بهذه الشجاعة. أعلم أنك كريمة جداً، لكن ليس إلى هذه الدرجة.
- بالطبع..

وروت الفتاة قصة المهاجرين التي شغلتهَا فترة طويلة، وقالت إنها وقعت في شكوك مشؤومة.

مرر فخري أصابعه على ثنايا جبهته المسمرة وقال:

- لا لا داعي للخوف، قضيتك مسألة خاصة؛ المدير العام يتابعها شخصياً، فلا داعي لإعطاء معلومات للموظفين، إذن لا يوجد شيء سري، لا تخافي؛ أنت على حق، لن أنكر ذلك، الوهم هو شعورنا الطبيعي عندما يتعلق الأمر بالأشياء التي تهمنا عن كثر. لكن تحلي بالصبر قليلاً، فسوف نفهم ذلك غداً.

- لكن يا سيد فخري، هل يمكنك أن تخمن أن صبري قد نفذ الآن. هناك أوقات يكون فيها الإنسان على استعداد لأكبر الكوارث، ويقول فيها "يحدث ما يحدث.. أنا تعبت.. أنا مخنوق.."، ويتقبل كل شيء حتى الموت، أنا في على هذه الحالة الآن. الآن أريد أن أعطي حياتي اتجاهها النهائي. لا أستطيع البقاء في القصر فترة طويلة، أو سأضطر إلى تقديم تضحيات كبيرة. سأخبرك عن هذه التضحية.. كبيرة.. تضحية كبيرة. وأوضحت الأمر لأنها تعتقد أن فخري سيشك في احتمالات أسوأ، وقالت:

- هذه التضحية التي ستجبرني على علاقة، شرعية وقانونية، لا أريدها.

ركض الشاب نحو مبرورة وسأل بصوت أجش:

- زواج؟

- نعم.

- مستحيل. من بهيج؟

صمت الفتاة. وتعثر هو إلى الوراء وقد أصابه ألم حاد أنهكه فجأة وكأنه أصيب بشظية، وחדق في مبرورة، ولم يرد أن يصدق هذا الخبر، فكان يتوقع ضحكة صغيرة من الفتاة،

مخصصة للنكات العادية، وكان يتمم ويتمايل غير متأكد من مكانه "مستحيل.. مستحيل".

قالت مبرورة بشيء من التردد:

- لماذا؟

"لماذا؟" هذه كانت أكثر دهشة، فهذا يعني أن الفتاة الصغيرة لم تقبل ما يعتقده الجميع عن بهيج، فإما أن تكون قد انخدعت بذلك الساحر، وإما أنها أحبه بكل ما فيه من خسة وقبح.. آه.. نعم؛ لأن ذلك الساحر لم يكن لديه غرفة النزل ذات الأسقف والأرضيات المتشققة، غير المحمية من الريح في الفصول الأربعة؛ لأنه بغض النظر عما يكون، رجلاً أو امرأة، فإنه يفضل قليلاً من الأناقة، من لونٍ أو عطرٍ أو حريرٍ أو طلاء، وهذه الفتاة الصغيرة أصبحت في النهاية إحدى بنات حواء المتحمسات اللاقي يفضلن سيارة أمريكية على مئة قلب كبير. أخاف هذا الصمت وبريق الاتهام في عيني فخري مبرورة، فأوضحت الفتاة بإشارة متزايدة:

- وجدت سؤالاً غريباً، أليس كذلك؟ أنت على حق، هذا صحيح. كل ما قيل لك عن بهيج صحيح. لكن ليس اليوم، لا. اليوم، أصبح بهيج رجلاً مختلفاً تماماً. ليس مقامراً،

وليس زير نساء، وليس غشاشاً، وليس فاسقاً، وليس رجلاً ليلياً، وليس أنانيًا. أعترف أنه كان دائماً يتمتع بقلب بسيط، وعديم الشعور، لكنني أعلم أيضاً أنه غير أخلاقه، ولا نظن أن هذه هي الأسباب التي ستجبرني على هذا الزواج، ولا حتى حب بهيج لي، ربما لم تكن تعرف هذا أيضاً، لا.. شيء واحد يا سيد فخري، شيء واحد؛ سيأخذني بهيج إلى الأناضول.

- إنها كذبة، يا مبرورة هانم.

- هذا هو شرطي، وإلا فلن نتزوج.

أحنى فخري رأسه، وصراعه الداخلي، الذي واجهه لكيلا يظهر حزنه، جعله يرتعش. وأراد أن يعبر بصوت عال عن أن المال لا يمنع الجسد من الحياة فحسب؛ بل يمنع القلوب أيضاً من الحب، وينجح في سحر الناس لتحقيق أغراضهم الإلهية، كما أثبتجيداً في هذه الحادثة أنه شلَّ العقل السليم للفتاة الصغيرة، وبدأ عدة مرات، بواحدة من "آه.. مبرورة هانم" الطويلة، وقال:

- "آه.. مبرورة هانم"

وقفت الفتاة على الفور:

- كم الساعة؟ هل يمكنك التحقق من فضلك؟

استغرب فخري:

- هل أنت في عجلة من أمرك؟

- لقد قاطعتك، ساحمني.. لكن يجب أن أذهب فوراً.
أريد الذهاب إلى إدارة المهاجرين. سأتصل أيضاً بالسيد نادر،
الوقت ضيق جداً، وأخشى أن أتأخر.

وبينما كان فخري يودع الفتاة، التي لربما تكون المرة الأخيرة
التي ينفرد بها، لم يستطع إلا أن يقول في ضعف شديد: "شرفت".
وعندما ظل بمفرده، استلقى على مقعد أحمر، وأرجع رأسه إلى
الخلف، وظل لساعات بلا حراك، شارد الذهن، بلا حراك،
وكأنه نائم.

كان القصر مزدحماً في ذلك المساء. كانت جوزيده ووالدتها
ونظام الدين بك وسيرات ومليكة ضيوفاً.

عند عودة مبرورة إلى القصر مع حلول الظلام، كان أهل
المنزل جميعهم في غرفة الطعام، واستقبلوها بأصوات الفرح
الغامر. عدد قليل من الناس أحاط بمبرورة، أولهم نظام
الدين بك، وهو ينثر أنفاسه التي تفوح منها رائحة المسكرات،
وسيرات خلفه منحنيه، ثم جوزيده وهي تبسم قليلاً.

- مبارك. برافو، يا لها من أخبار جميلة سمعناها!

كانوا يقولون ذلك، ولكن مبرورة اكتشف السبب الثاني لهذه الفرحة المشتركة! فقد كان هناك عدة زجاجات من المشروبات الكحولية مفتوحة على الطاولة. نظر المضيفون والضيوف، في فرحة الكؤوس الأولى التي تُقرع، إلى الفتاة ذات العينين اللامعتين وصرخوا:

- الحمد لله! لقد أصلحت بهيج، يا مبرورة هانم!

السيدة نظمية أيضاً كانت بحاجة إلى هذه التجمعات الصاخبة منذ فترة طويلة، وكانت تبسم لمبرورة، وتنفض كثيراً من دخان السجائر وهي تجلس على المقعد، ويبدو أنها تريد الانتقام من الأيام التي مرت دون أن تحدث هذه الأشياء. ونهضت وهي تهتز من عدم توازنها اللطيف بسبب الكأس الرابعة التي شربتها، ونظرت إلى ناجية وسيرات بطرف عينها، وقالت:

- عزيزتي مبرورة، لقد جلبت أيضاً الحظ السعيد للقصر. ما أجمل القرارات في وقت قصير! هناك زواجان! هل تعلمون من سيتزوج؟ سيرات وبهيج.

ونشرت الرماد الناتج عن سيجارتهما في الفراغ بحركة بطيئة بإصبعها الصغيرة الناعمة القصيرة وصرخت قائلة:

- هل يجب على بهيج التخلي عن لعبة البوكر، وعدم الخروج ليلاً، والاستقالة من النادي، والتسجيل في هلال أحمر، والتبرع؟ لو أن مدام دوتيب أخبرتني بهذه الأشياء، لم أكن لأصدقها.

ثم عادت إلى مبرورة وقالت:

- خذي هذه الكأس يا بنتي.

كانت تمد إليها كحول الشارتروز غالباً. وبعد قليل من التردد، أخذت مبرورة الكأس ولمستها بخفة بشفتيها، فصرخت نيفين:

- اشربيها كلها، كلها.. نحن في الكأس الخامسة، لا تخافي!

شربت الفتاة الكأس كلها، وهم يتساءلون:

- ما الأخبار في إسطنبول؟ هل ذهبت إلى إدارة المهاجرين؟

لقد ذهبت، لقد ذهبت.. ولكنني وجدت خبراً غريباً جداً.. لم أستطع أن أفهم.. أراد المدير العام رؤيتي، كان مشغولاً بالأجانب اليوم، والموظفون لا يعرفون شيئاً.

اقترب بهيج من الفتاة ليقدم لها كأساً جديدة، وأمال وجهه الوردي وقال:

- ألم تري السيد نادر؟
- لا، اليوم هو الأحد، أظن أنه في منزله، لكنه لم يكن هناك، حظي سيئ، لكنني ذهبت إلى فخري، السيد فخري.
- ألم يكن هناك أيضًا؟
- كان هناك. وأكد لي أنه لا يمكن أن يكون هناك خبر سيئ، وقد وجدت بعض المواساة منه.

- ألا يوجد رد من الصليب الأحمر اليوناني!

- لا، كل ما جاء كان أخبارًا جديدة.

بقي صامتًا يفكر. أخبار جديدة! وكان هذا أيضًا شيئًا مهمًا للقصر. من الجيد أن يتم الإبلاغ عن صحة إحسان أفندي. مشروع بهيج لن يتضرر، من الضروري إرسال الفتاة إلى الأناضول قبل الخطوبة والزواج، ربما تكون هذه الرحلة لصالح بهيج، فهناك كثير من الفرص التي توفرها الوحدة في الطريق. ولكن ماذا لو كان العكس؟ ماذا لو غادرت الفتاة القصر بسبب الجنون الأولي لهذه الكارثة وأسباب أخرى؟

- إذن عليك أن تذهبي إلى إدارة المهاجرين غدًا.

كان القلق واضحًا في الانقباضات الصغيرة لشفتي بهيج وصوته المهتز وهو ينطق هذه الجملة. ردت مبرورة بانتباه:

- طبعًا.. طبعًا..

بينما كانت نيفين تملأ كأسًا لمبرورة- يبدو أنها قررت أن تسكرها- قالت:

- هذا المشروب سابق لأوانه، لكننا وجدنا الزجاجات مفتوحة، ولا يزال هناك وقت على تناول العشاء، اشربي المزيد، هيا من أجلي.

وبينما كانت مبرورة تنظر إلى من حولها، ضحك نظام الدين بك وقال:

- نعم، إذا شربت كأسًا واحدة من أجل الجميع، ستضرين إلى شرب عشر كؤوس.

وصاحت نيفين بدلال:

- أرجوك؟ أكثر هذا؟ فلتعدادي هذا؛ أليس كذلك يا مبرورة؟ لا تنظري إلى هؤلاء الأوغاد، اشربي، هيا، هاه، قوي، أوو، أوو، برافو. هل هناك أخبار عن الآخرين؛ عن صالح وبيلا؟ كانت تشرب (نيفين) كأسًا أخرى وتضحك كثيرًا، وبعنون، دون أن تفكر في العواقب الوخيمة لشرب الخمر، وتقول:

- أخبرنا بهيج للتو، هل كان صالح حقًا عالقًا في الجزء الخلفي من السيارة؟

(مبرورة): أي سيارة؟

- عزيزتي، ألم تذهبي إلى ينكوي مع بهيج مساء أمس؟

فتحت مبرورة عينيها وفمها، متخيلة الحدث المخيف الذي تذكرته فجأة: "ها.. نعم.. هذا.. لا أعرف؟"

- لقد كان صالح.

- وكيف عرفت؟

قال بهيج: "أنا متأكد"، وبدأ نقاش عن صالح. ومثله مثل المناقشات الصاخبة التي تحيط بكل قضية تشغل الرأي العام، نشط هذا النقاش الأشخاص الأكثر هدوءاً، وجعل حتى الأقل خيالاً يفكرون في احتمالات مخيفة، وأزعج حتى الشجعان منهم، فقال سيرات:

- عزيزي بهيج، أنت تعلم أنني لست جباناً، لكنني أفكر على نحو عملي. يجب إعطاء هذه الحادثة أهمية كبيرة. صالح ليس رجلاً يطرح في البرية، فهل يجرؤ حتى على ارتكاب شر لا نتوقعه! نعم، لأن لديه مشكلتين معك، مشكلة أخته، ومشكلته هو شخصياً. والأمر لا يتعلق به شخصياً فقط؛ بل ضع في حسابك أيضاً مسألة الغرور، الأمر ليس مضحكاً. فصالح رجل مغرور، يحب التباهي.

فأطلق بهيج ضحكة ساخرة، مع أنه يعلم جيداً أن النساء
يجبن ذلك، وقال:

- ماذا يمكن أن يفعل؟ يتجول حول باب القصر مثل
المتسول! إنه تعلق على ظهر السيارة مثل الغجر، ماذا عساه أن
يفعل غير ذلك؟

- لا يفعل شيئاً. ولكن هذا الأمر لا يشبه مغامرات
صالح العادية، فهو دائماً ما يظهر الضغينة. الضغينة تجعله
يفعل أي شيء.

- ماذا على سبيل المثال؟

- إذا كنت رجلاً موسوساً ففكر حتى الموت.

- أنت تعلم أنني لست موسوساً.

- إذن، الأمر مجرد عراك مزعج في الشارع، هجوم
صاخب، سكين جيب حاد.

- إذن، عراك مزعج في الشارع، أو هجوم صاخب، أو الضرر
الذي يمكن أن يحدثه سكين جيب حاد، أو ضربة بالعصا تطيح
بك.. ماذا يمكنني أن أقول؟ من الكوارث التي لا تتوقف عن
الحدوث في قضايا الشرطة على مدار الأربع والعشرين ساعة،

أنها قد لا تكون مشكلة كبيرة للخياط ليفتر^(١)، أو العتال إبراهيم، لكن إذا حدث لك سيكون الوضع سيئاً.

- أستطيع أن أمنع هذا باحتياطات صغيرة.

- لم أعد أعرف.

تدخلت النساء في النقاش بإثارة أفسدت التسلسل المنظم للأفكار، فتحدثت جوزيده عن مخاوفها التي سيطرت على خيالها بشأن الأحداث المروعة التي قرأت عنها في فاوست المهزوم، وبدأت مليكة تخاف من أصوات الطقطقة في الحديقة، وقالت السيدة ناجية إنها تتوقع كل شيء من صالح. أما نظمية هانم فقد غضبت بسبب التناقض بين هذا الحديث الغريب، الذي نتج عن الأحاديث المبهجة السابقة، وبين سكر الخمر الحلو، ولعنت "صالح" وأخته، وأوضحت أنها يمكنها التعامل مع هذه المشكلة بمفردها، وأعطت إيفدوكسيا الأمر:

- الطعام يا إيفدوكسيا.

- أمي، الوقت مبكر جداً.

- إنها التاسعة والرابع.

وبينما كان يُنظر إلى الساعة، نبح نابليون في الخارج. وسمع جرس بوابة الحديقة يرن على نحو متكرر من بعيد.

(١) اسم شخص.

- اركض يا إفدوكسيا.

- هل هناك شخص قادم؟

كانت العيون تسأل بعضها: لا.. من سيكون؟

هزت السيدة ناجية رأسها بحاجبيها المرفوعين، مما أفسد صمت الحضور:

- وفي هذا خبر.

في الواقع، كان الجرس يُقرع بعنف من خلال حركات سريعة لا تتعب أبداً ليد عصبية وقلقة، مما يُصدر صوتاً متواصلاً.

اتجهت النظرات كلها إلى باب الغرفة. زاد الرجال الواقفون من صمت الغرفة من خلال إيقاف الحركات الصغيرة لأطرافهم، وزادتها أيضاً إثارة النساء بوضعياتهن التمثالية.

أما مبرورة فوضعت يدها على قلبها، كما تفعل دائماً، وتمت لبهيج، الذي كان يقف بجانبها:

- يا له من شيء قوي يمكن الشعور به!

لقد قالت رأي كل شخص دون قصد؛ حيث صاحت ناجية هانم ونيفين وجوزيده ومليكة في نفس واحد:

- صحيح جداً.

كان نابليون ينبح دائماً. توقف صوت الجرس، لكن الحيوان لم يصمت. كان بهيج يفكر: هل هو صالح؟

كانت مبرورة تفكر: هل من أخبار عن والدها؟

والسيدة نظمية تفكر: لو كان صالح، ألن تكون إحدى النظرات الواعدة التي رأت تأثيرها في ذلك الرجل ذات فائدة، منعاً لأي ضجيج؟

وسيرات يفكر: بهيج يحب الإشارة الجديدة، ولكن ليس تلك الموجودة في هذه اللحظة.

ولم تتوقف صرخات نابليون، فتعصب بهيج:

- لقد تأخرت إيدوكسيا.

نظر نظام الدين بك، أكثرهم هدوءاً، إلى ساعته، وضحك:

- دقيقتان تبدوان طويلتين جداً، أليس كذلك؟

سمعت خطوات في الخارج. كان إيدوكسيا قادماً، فوقف أولئك الذين لم يكن لديهم صبر على الأخبار التي ستُعرف بعد ثانية، وساروا إلى باب الغرفة.

دخلت إيدوكسيا وفي يدها باقة كبيرة من الزهور، وصاحت:

- عودوا إلى احتفالكم! أي طرق للبواب هذا؟ يبلغ من العمر ثماني سنوات أو عشرًا، لكنه يستطيع أن يدمر قصرًا وأعطت باقة الورد لنيفين:

- هذه لك أيتها السيدة الصغيرة.

وبينما كانت نيفين تأخذ الباقة بيدها العاجزة، سقطت بطاقة صغيرة على الطاولة من بين الزهور. أخذ بهيج البطاقة على الفور، وقرأها بصوت عالٍ وألقاها على الأرض:

"إلى السيدة نيفين نافع،

مع خالص احترامي.. من فاضل شاكر".

قالت نظمية هانم بعد أن نظرت إلى وجه ابنتها، الذي تحول في البداية إلى اللون الأبيض، ثم الوردى، ثم تحول أخيرًا إلى اللون الأحمر:

- الطعام يا إفدوكسيا.

ركضت مبرورة إلى إدارة المهاجرين في الصباح الباكر.

- هل جاء السيد المدير العام؟

- لم يأت.

- متى يأتي؟

- بعد الظهر.

- هل عرفتم ما الأمر؟

قال الموظفون: لا.

وبينما كانت الفتاة تنزل الدرج، وهي تفكر كيف ستقضي وقتها حتى الظهر، توقفت، في البداية من الفرح، ثم من الدهشة.. كان نادر يصعد الدرج درجتين درجتين، في اندفاع لم يسبق له مثيل، ولم ينتبه للفتاة الصغيرة. كان في حالة ارتباك وإثارة كبيرة، وهو أمر معتاد في الأيام غير العادية، كما لو كان يريد اللحاق بشيء متأخر، ولكنه عندما وصل إلى الدرجة التي كانت تقف فيها مبرورة، رآها، وقال بصوت عالٍ:

- ها!

وقف، وأخذ نفساً عميقاً مرتين أو ثلاثاً، ونظر إلى الفتاة الصغيرة بصمت أولئك الذين يترددون في إبلاغ خبر سيئ، والبحث عن الكلمات اللطيفة.

أمسكت مبرورة بيد الشاب وصرخت:

- ماذا يوجد؟ ما الذي يقلقك؟ هل هناك أخبار سيئة؟

أنت تخيفني.

ابتلع نادر ريقه بصعوبة وأجاب:

- خبر سيئ. كنت قادمًا لأتصل بك وأترك لك رسالة لرؤيتي.. كنت أعلم.. أنك ستأتين.. اليوم.. هنا.. مصادفة جيدة..

كان نادر لا يستطيع أن يتكلم بسبب ضيق التنفس الذي يضغط على صدره، كما لو كان رجلاً يركض من مكان بعيد. أسندت مبرور ظهرها إلى الحائط، ونظرت إلى نادر وهي ترتعش من كابوس الأخبار السيئة التي لم تكن تريد سماعها، وسألته بصوت أجهش:

- هل علمت أخبارًا عن والدي؟

فصاح نادر:

- لا يا عزيزتي، لا سمح الله، الخبر السيئ ليس هذا.

أخذ نفسًا وأمسك بذراع الفتاة وقال:

دعينا ننزل، ونتمش، الخبر السيئ غير هذا: لقد أتيت إليّ البارحة. ومع أنه كان يوم الأحد، لم أتمكن من البقاء في المنزل؛ لأنني ذهبت إلى حي جراح باشا، وكنت مشغولاً بعمل صعب، صعب جدًا. مبرورة هانم! أصيب صالح بالجنون.

- ماذا تقول؟

- نعم.. نعم.. لقد تم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية أمس، كنت المسؤول عنه، يا لها من حكاية مذهلة. لم يكن يجب أن أرى هذا، لقد استأثرت من ذلك، أنا.. كنت أحب "صالح" كما كنت أحب كل الناس، آه، كان عليك أن تريه.

- واحسرتاه!

- والأكثر أن حالة بيلما سيئة جدًا؛ فالبنت تمر باكتئاب حاد، وهي في حالة يرثى لها، وتريد أن تراك؛ هذه أكبر أمنياتها حاليًا.

- ماذا تريد مني؟ ما بها؟ هل هي مريضة؟

- مريضة، مريضة بشدة.

- وما مرضها؟

- ضعيفة لأقصى درجة تتخيلونها، ولا تستطيع حتى الاستلقاء على السرير.

- متى حدثت الكارثة للسيد صالح؟

- لقد جاء في الليلة السابقة وقفز من السرير في منتصف الليل وبدأ يصرخ ويقول: "افرزوا هذه العظام!"; حيث رأى الغرفة كلها مملوءة بالعظام، وأبوه المسكين وأمه وإخوته

يتجمعون حوله، يداعبون المسكين ويواسونه. وقد استعاد وعيه قليلاً، لكنه فقد توازنه عدة مرات حتى الصباح.

- يا له من أمر مخيف!

- اتصلوا بي من منزله في الصباح دون ذكر السبب، فذهبت إلى حي جراح باشا، عندما أتيت إلي، لقد كان الوضع رهيباً، ففور أن دخلت من الباب، رأيت المسكين على الأرض يصرخ بأعلى صوته، ويريد أن يضرب نفسه بالحجارة، ولم يعرف من حوله، وكان والده والحارس والإمام يحاولون كبح جماحه، ولم يعرفني أيضاً، وكان المسكين مصطفى أفندي يبكي ويقول: "كل هذا بسبب الخمر"، فهو لا يعرف هذه المشكلة.

- أي مشكلة؟

- امشي، تعالي معي، سوف تعرفين كل شيء، لكن علينا أولاً أن نقف بجانب هذه الفتاة، إنها بحاجة إليك. اركضي، هنا الترام، اصعدي، وأنا سأركب أيضاً.

عندما ركبت مبرورة الترام، كانت تحاول العثور على السبب الحقيقي للمآسي المشتعلة في أماكن بعيدة عن شيشلي: يا إلهي! مهما بلغت الضغينة عند الإنسان، فلا يمكن أن يفقد الإنسان عقله بسبب غضبه من صديقه القديم. نعم معروف أن بهيج

أذى بيلما، وأهان "صالح"، وهذه أشياء مؤلمة، أشياء ثقيلة.. لكن، غريب جداً، هل من الممكن أن يجن صالح، وتعرض بيلما فقط لهذا السبب! لا بد من سبب آخر لذلك، هناك مشكلة كما قال نادر، الذي أخبر مبرورة ذات مرة بسر. ولكن ماذا يعني السر؟ لقد كان كل شيء بسيطاً في تلك الأيام، لكن هل هناك أسرار كبيرة بين الناس؟ وأدركت الفتاة حينذاك أن كلمة سر هذه مبالغ فيها، ولا تستخدم استخداماً صحيحاً. وكانت تفكر وهي تنظر إلى الوجوه البسيطة المسترخية لعدد قليل من النساء العجائز الجالسات بجانبها، وفتاة المدرسة الصغيرة، والكمساري الذي كان يقوم بعمله بهدوء: ما الأشياء التي يحتفظ بها جميع الناس أسراراً عن الغرباء غير بعض العيوب ونقاط الضعف والجرح التي يمكن الاعتراف بها للأصدقاء والأهل؟

وبينما كان الترام يسير، كانت مبرورة تصوغ في ذهنها كثيراً من الروايات الخيالية، ولم تستطع أن تفهم الدور الذي يمكن أن تعطيه لصالح وبيلما في الأحداث التي أدت إلى هذه النهايات المريرة. كل شيء كان يبدو بسيطاً: لقد عشقت بيلما بهيج، وعاشوا معاً ست سنوات. ووعد بهيج، مثل أي رجل خسيس، بيلما بالزواج. ولكنه من ناحية أخرى، كان يريد التخلص من

هذه العلاقة المتعبة. وعندما ظهرت مبرورة انشغل بهيج بها، وأهمل بيلما. وبالطبع غضبت بيلما من هذا، فموت المرأة يعني التخلص منها ونسيانها، وحاولت الفتاة العصية التمرد على بهيج بدلاً من السيطرة عليه، غير أن الرجل الوقح والمذلل لم يتحمل هذا، خاصة مع شخص مثل بهيج، فاستخدم هذا التمرد ذريعةً، وقطع علاقته ببيلما، فغضب صالح من هذا، وحدث شجار في القصر، لكن بهيج، الذي يريد دائماً أن ينتصر، سَلَّمَ صالح للشرطة، وحينئذ غضب صالح بشدة، وأراد الانتقام، لكنه لم ينجح، وفقد وعيه. لكن الغريب، في منعطف غير متوقع، ما أشيع عن أن صالح مجنون، يهذي في الليل، ولا يستطيع النوم، وما إلى ذلك.. لكن من الشخص الذي ليس مجنوناً إلى هذا الحد، أو من ليس لديه مثل هذه الليالي المزعجة! لا يمكن أن يسمى هذا بالجنون، ولكن هذا هو الجنون الكامل، جنون!

تذكرت الفتاة المشاهد التي رواها نادر، ووسعتها في مخيلتها، ففكرت في وضع بيلما وقالت "هناك كثير من الأشخاص البائسين في العالم!".

وعندما دخلا الحي، أشار نادر بإصبعه إلى الواجهة المتهدمة لمنزل خشبي مائل نحو الشارع وقال:

- هذا هو المنزل.
- ياله من خراب!
- صالح أيضًا لم يعجبه هذا البيت قط، وكان يقول:
"حتى إسطل السلطان أكثر راحة من هذا. أنا لا أستطيع
حتى أن أكون بحجم حصان السلطان!". لكن لو كان يعلم
أن الراحة ليست في العالم الخارجي؛ بل داخل مجتمعنا؛ لترك
الأمر كله لله.
- أشعر بالأسف على بيلما أكثر.
- إذا كانت الكوارث التي تقع فيها عواقب لضعفنا، فلن
نشفق على بيلما؛ لأن السذاجة التي أظهرتها تجاه بهيج، وضعف
عضلاتها وأعصابها وقلبها كان أكثر من اللازم. ولكن، ليس
بأيدينا شيء.
- دخلا المنزل. وفتح شقيق بيلما الصغير الباب، فنظر إليهما
الطفل الذي لم يعتد رؤية الكوارث الكبرى بكل دهشة،
وأجاب عن أسئلة نادر بطريقة متقطعة:
- والدي في المستشفى.. وأمي.. ذهبت عند الجيران.
وقالت لي أختي خديجة: "اتركوني وشأني!"، وقالت لي أيضًا:
"إذا جاء ضيوف، اذهب إلى المدرسة".

فاحتضن نادر الطفل على الفور، وقال له:

- هيا اذهب إلى المدرسة إذن!

كانت الغرفة التي تنام فيها بيلما في الطابق العلوي. صعدا السلام المعتمة التي تصدر صريراً. وعندما وصلا إلى باب الغرفة، توقف نادر وقال:

- سأتركك وحدك مع بيلما، يا مبرورة هانم.

- لماذا؟

- هذا هو طلبها. أرادت ألا يكون أحد في المنزل، لكنني أجلس في غرفة الطعام بجوار المطبخ في الطابق السفلي. تحدثا أنتما، ثم تعالي وستجديني. أنت تعرفين أنك ستحدثين مع بيلما بلطف، وعليك أن تواسيها.

- بدون شك. لكن ليتك تأتي معي قليلاً.

- لا، من الأفضل أن تدخل بمفردك. ادفعي الباب.. المقبض مكسور، هي لا تريد أن يطرق أحد الباب، أنا أنتظرك في الطابق السفلي.

- حسناً.

دفعت مبرورة الباب ببطء بيدها التي كانت ترتعش لسبب ما ودخلت الغرفة.

ضرب الهواء الفاسد الذي تفوح منه رائحة العلاج والفحم وجهها. وفي زاوية الغرفة، التي كانت مظلمة تمامًا بستائر مشمع نصف سفلية سميقة وغير نظيفة وأقفاص مثقوبة بإحكام، رأت سرير المريضة الحديدي، وجسدها ملتفًا تحت لحاف، وشعرها مبعثرًا كما لو كان ملتصقًا بالوسادة، ووجهها شاحب اللون. وبينما كانت تخطو خطواتها الأولى نحو السرير، فتحت بيلما أيضًا عينيها على اتساعهما، وفور أن عرفت مبرورة، وضعت رأسها على الوسادة وضحكت بفرحة مريض مستسلم. وقالت بصعوبة كلمات ينفثها نفس قصير من بين أسنانها: "شكرًا.. شكرًا.. قبلت طلبي يا أختي.. تعالي.. اقتربي".. قالت ذلك وهي تخرج يديها المرتعشتين الباردتين من أسفل اللحاف وتمدهما.

وبينما كانت مبرورة تأخذ إحدى هاتين اليدين المتعرقيتين في يدها، جلست على الكرسي الموجود على رأس السرير، ورأت عتابًا في عيني المريضة الباهتتين، فجلست بإحكام، وفكت أزرار معطفها، واستعدت للجلوس مدة طويلة. لم تكن تعرف سبب

استدعائها، وماذا كان عليها أن تقول، وكانت تجد صعوبة في العثور على الكلمات الأولى، فقالت:

- علمت من السيد نادر منذ قليل، وركبت أول ترام، وجئت على الفور، ولم أضيع ثانية واحدة.

فظهر على وجه المريضة المتجعد والشاحب تشنجات الحزن الذي تعانيه عند التحدث.

- شكرًا.. شكرًا جزيلاً. أعرف أنك بنت طيبة وإلا لما طلبتك.

وضعت مبرور مرفقها على الجانب الفارغ من الوسادة، ووضعت يدها على جبين المريض، وانحنت عليها، وبعد مواساتها الأولى لها أوضحت أنها لا تشعر بأي اشمئزاز، وسحبت يدها وقالت:

- حرارتك منخفضة جداً.. أنت لست ضعيفة جسدياً، هذا ضعف مؤقت يأتي من الحزن وسيمر.

بعد أن حقق بعض النصر في المعركة ضد هذا الضعف، استعادت المريضة نفسها ببطء، واعتدلت على السرير، ورفعت حاجبيها، وفتحت عينيها وأغلقتهم عدة مرات، وأخذت نفساً عميقاً، مما قلل من التجاعيد على وجهها:

- سواء مر أم لا، فلا تفكري بي يا عزيزتي مبرورة. أنا انتهيت.. إنني أموت، وكل ما أفكر فيه هو أنت.

نظرت مبرورة إلى المريضة دون أن تفهم. كان هناك بصيص من فكرة ثابتة في عيني بيلها، عادت إلى الحياة تدريجيًا، وكررت كلماتها:

- نعم.. أنا أفكر فيك أنت فقط، فقد تلقيت خبرًا منذ يومين، حيث قال سيرات لصالح إنك ستزوجين بهيج.

نظرت المريضة، التي فاقت فجأة، في عيني مبرورة بفضول لاذع، وواصلت حديثها قبل أن تجيب:

- أنت لا تدريكين يا مبرورة كيف جعلنا هذا الخبر أنا وصالح نفقد أعصابنا. آه، اسمعي ولا تعترضي، استمع جيدًا، لهذا السبب طلبتك اليوم. انظري، ما الذي يجب أن أقارنه به؟ أنت تقعين في بئر ملأى بالحشرات والديدان والثعابين، وفي يوم من الأيام، دون أن تدريكي ذلك، ستجدين نفسك في قاع هذه المياه القذرة والمريضة والمتقيحة.

كانت تقول ذلك بمعاناة فكرة مريرة تخدش عقلها، وتبعثرت كلماتها بسبب السعال الخفيف.

استغلت مبرورة صمتها وأجابت على الفور:

- الخبر ليس صحيحًا تمامًا. لقد كان هذا نقاشًا، لكنني لم أعط ردًا قاطعًا بالموافقة، فقد جعلونا عروسين من تلقاء أنفسهم.

- حسنًا، حسنًا. لكن أعلم أنهم سيخدعونك أيضًا، إن لم يكن اليوم فغداً. لا تعترضني على كلامي، فأنا أعلم ذلك جيداً. لم تكن المريضة نفسها كما كانت من قبل، فقد ظهر دم على وجنتها، ولمعت عيناها، وبدأت شفتاها المرتعشتين المتعصبتين تتوتران وتضيقان وتتحركان كثيراً.

- أكيد مبريور.. آه.. اسأليني عن ذلك القصر.. اسأليني، لا تخافي.. اسألي اسألي.. ستعلمين مني الأمور الصحيحة. ترى هل أنا على حق أم لا؟

- اسأليني يا مبرورة عن ذلك القصر.. آه اسأليني أنا، لا تخافي، اسألي، اسألي! فستعرفين مني المعلومات الصحيحة وانظري هل أنا على صواب أم لا.

لقد كانت صادقة بلا شك، فقد تحدث بصفاء قلب نقي لم يكن متردداً قط.

- إذا تكرمت بالاستماع إلي، فتأكدي أنك لن تخسري أبداً.
وأقسم بالله أنني أقول هذا وأنا أفكر فيك فقط. لقد طلبتكِ
للمجيء هنا لأنني أفكر فيك فقط. لقد أرسلت والدتي إلى
منزل الجيران وأخي الصغير إلى المدرسة، وأردت أن يبقى المنزل
وشأنه لأنني أفكر فيكِ فقط، لأنني سأخبركِ عن الماضي الذي
دام بضع سنوات. ستستمعين ولن تنزعجيني، أليس كذلك؟

فأجابت مبرورة بسرعة:

- بلى بلى، بالعكس، بما أن الأمر متعلق بي فلن أنزعج،
لكنك ستجهدين نفسك، والحزن ليس جيداً لك.

- الأكثر ضرراً هي الأحزان التي تبقى داخلنا ولا يُفصح
عنها للآخرين. أيضاً، اتركيني وشأني، ولا تفكري بي بعد الآن
فقد قلت لك إنني سأموت في كل الأحوال.

- أنتِ تحزنيني، أرجوكِ لا تبالغيني في مصيبتكِ.

- يا مبرورة، اصمتي يا عزيزتي، ليس هناك أي مبالغة،
أقول هذا بصراحة، لم يعد هناك بيلما أو خديجة، فقد انتهت..
انتهى كل شيء.

كانت بيلما تحاول ألا تبكي. لكن أسفل عينيها كان أحمر
اللون، مبللاً بخط لامع، وتسربت قطرة صغيرة من طرف

رموشها وتناثرت على تجاعيد وجتها، وكانت تعض شفيتها، وتبتلع لعابها ل تمنع النحيب التي يدغدغ لسانها، كما كانت تسعل بخفة وتقول:

- انتهى كل شيء. والآن أنتِ الوحيدة التي أفكر بها. عندما التقينا لأول مرة، كنت مملوءة بالشر والغيرة منك، حتى إنني كنت أحقد عليك، حتى إنني تحدثت ضدك مع كل الرجال، ووصل بي الأمر إلى أنني كنت أريد الوقوف أمام الجميع وأصرخ وأقول إنكِ "حمقاء". هل تتذكرين؟ لقد لعبنا لعبة معًا وقلتُ إنكِ "مومياء"، لكنكِ كتبتِ عني "فتاة لطيفة"، وقد أغضبني هذا الشاء كثيرًا، أغضبني عدم غيرتك مني. لقد كنت عصبية جدًّا في ذلك الوقت، آه، أنت لا تعرفين شيئًا، لا تعرفين شيئًا، ثم أفقتُ.. أفقتُ إفاقة...

ثم اعتدلت على السرير وأمسكت بيد مبرورة وصافحتها، وفتحت عينيها، وقد انتفخ بياضهما، وتحدث بصوت أعلى وأكثر إقناعًا، وأكثر دفئًا، قائلة:

- لقد أفقتُ إفاقة! آه يا مبرورة، ليت كل الفتيات يعلمن الليالي التي قضيتها في هذه الغرفة ذات السقف المنخفض، الليالي التي بكيت فيها أهز سريري، ويمزق صدري؛ آه يا مبرورة، ليت بإمكانني أن أصرخ من هذه الغرفة المظلمة وأسمع صوتي

المنخفض الذي به سعال لآلاف الفتيات المسلمات اللاتي يرکضن ولا يعرفن مصيبتني! آه يا مبرورة، ماذا يمكنني أن أقول؟ ليت بإمكانني أن أصرخ طويلاً بأعلى صوتي وأقول إلى بعض الفتيات الصغيرات اللاتي يعشن هنا، وفي المنازل المقابلة للشارع، وفي الأحياء الأخرى، وحتى في الأماكن البعيدة، وفي بلاد ما وراء البحر، في إسطنبول وخارجها: "يا من ضللتن طريقهن.. يا من نسيتم واجباتكن.. ماذا تفعلن؟ إلى أين تذهبن؟ أين؟ أين دون أن تريين الحفر والآبار التي تنتظركن على بعد خطوة واحدة؟" آه، آه، لا يمكنك أن تتخيلي مدى العزاء الذي سأحصل عليه، حتى لو كان هذا نفسي الأخير.

ارتعشت مبرورة وهي تفكر، ما هذه الحماسة غير المتوقعة من مريضة! يا لها من حاجة إلى البوح بقلب متنفخ وممتلىء! يا لها من صدمة، يا له من نضج! هل هذه بيلما؟! هل هذه ضيفة القصر المدللة! هل هذه هي الفتاة المفعمة بالحوية والمرح في أحياء شيشلي ويوغلو! هل هذه هي الممثلة العصبية والدقيقة في كل مشاهد الحب القبيح؟ شيء غريب. ما هذا التحول؟ هل هي غشاشة؟ هل تكذب؟ هل هناك خطة سرية وراء هذا؟ لا، إنها ليست غشاشة، ولا تكذب، وليس لديها خطة سرية، فيبدو على وجهها تقلصات صادقة وجادة

لا يمكنها القيام بأي مهارة، وعيناها بهما شعلة لا تنطفئ لروح نظيفة وناضجة، وهناك توتر شديد، مثل سلك فولاذي، في جسدها كله، فهي تتحدث بصوت منخفض مبحوح لا يمكن أن تصدره مهارة أي فنان. لا شك أنها صادقة وصادقة.

- ستفهم الآن كل شيء. أنا لن أخبرك كيف كانت قصة الحب بيني وبين بهيج؛ يمكنك توقعها مثل الجميع، أو ربما سمعت عنها. لقد عرفت بهيج في منزل نادر، وكان رجلاً مأكراً، خادعاً ووسياً، ولم يتعب من النساء، وكان يبدو رقيقاً ذا كبرياء؛ جعلني أشعر كما لو أنه الرجل الذي كنت أبحث عنه. أنا ابنة هذا المكان، ابنة هذا الحي، والدي، كما تعرفين، مدرس، والدي لا تعرف شيئاً عن الحياة إلا حي محمود باشا. وكان هذا المدرس وهذه المرأة راضيين عن حياتهما، كانا أكثر سعادة مني. لم ترفني هذه السعادة، لماذا؟ لا أعرف. هل بسبب القصص التي كان يحكيها أصدقائي في المدرسة؟ أم بسبب الروايات التي قرأتها؟ أم بسبب المسرحيات التي حضرتها؟ أم بسبب السعادة المجهولة التي سمعت عنها؟ لا أعرف ما إذا كانت بسبب أدوات النظافة والصور التي رأيتها على نوافذ متاجر الخردوات والمجلات والبطاقات البريدية، لا أعرف.. في أحد فصول الربيع، قبل ست سنوات، شعرت فجأة بالاشمزاز من هذا الحي، من

ذلك المنزل، من المسجد الموجود في تلك الزاوية، من والدي، ومن والدي. لكن ياله من اشمئزاز. لا يمكنك أن تتخيله. أردت أن أهرب بعيداً، إلى عالم آخر، إلى حياة أخرى، وكنت أشعر بالجنون حيال ذلك. فكرت في مستقبل مشرق لنفسي: أن أصبح ممثلة! أن أكون ممثلة. واو.. ياله من أمر مذهل! فالممثلة حرة جداً، ياله من حياة جيدة ومريحة وممتعة! فإذا شاركت في فيلم، يمكنني الذهاب إلى أوروبا، ورؤية أمريكا، وكسب المال، والحصول على الشهرة، وأن أحظى بالإعجاب والحب والتصفيق.. هذا أمر رائع، رائع. وقد بدأت بتغيير كل شيء خاص بي، وبدأت باسمي، فكان اسمي خديجة وأصبحتُ بيلما، وكنت ابنة حي جراح باشا فأصبحت سيدة منطقة باي أوغلو، وقد فعلت كل شيء قال عنه كبار السن "لا تفعلوه"، فعلت كل ما يروونه قبيحاً، وكل ما اعتبره المعلمون خطيئة، بفضل وسرور، وأكثر من ساعدني في هذه الرغبة هو بهيج، فقد أخذني على الفور إلى منزله وغرفته في شيشلي، وكان دائماً يحكي عما يعرفه ويشاهده عن مسارح فيينا، والأوبرا، وحياة الممثلين، والترفيه حتى منتصف الليل، وكان دائماً ما يعرض البطاقات البريدية والصور الفوتوغرافية الموقعة التي وقعتها وقدمتها له الممثلات المشهورات، لم أكن أعرف إذا كن مشهورات أم لا، ولكنني صدقته، وكان يقول لي "سنذهب إلى فيينا، سأقدمك

إلى شركة صغيرة أولاً، وستبدئين خطوة خطوة، ثم ستكبرين، وستكسبين الشهرة والمال"، ودائماً ما كان يشيد بموهبتي وجمالي. آه، يا له من حلم حي ومثير كان لخديجة الحمقاء، أوه، كم وقعت في هذا الحلم عن طيب خاطر! كيف تركت روحي وجسدي لبهيج؟! كيف كان هذا سريعاً وسهلاً؟! طلبت من مبرورة نصف كوب من الماء وشربته دفعة واحدة، ثم قالت:

- يوجد كرسي طويل في غرفة بهيج، هل تعرفينه؟

- لا، لا أتذكر جيداً.

- أحسنت.. فعدم معرفة المقعد الطويل هو فضيلتك الوحيدة. أولئك الذين يعرفونه يصبحون مثلي. على سبيل المثال، هاندان، ومليكة، إنهما تعرفان هذا الكرسي الطويل جيداً؛ لأننا تركنا الشيء المقدس للفتاة هناك. آآه، يا لها من ثروة عظيمة تبادلناها بوعود فارغة وجافة. دعينا نتجاوز هذا، اللعنة عليّ، اللعنة على ما أنا فيه من حال! هذا يعني أن الحماقات والخطايا التي ترتكب في العالم لا تمر دون عقاب، يا إلهي! هل تسمحين لي بقول شيء غريب؟ أنا لست غاضبة من بهيج لأنه استغل نقطة الضعف الأولى لدينا، لا.. ما يجعلني غاضبة هو شيء آخر، شيء آخر تماماً، هل تسمعين؟ هل سئمت؟

- لا، أبداً، استمري.

- عشت أنا وبهيج مثل المجانين عاماً. لم تكن له عشيقة غيري، لقد تحمل كل نفقاتي، لم يجنني بقدر ما أحببته، لم يكن يجنني، لكنه كان يضحي بنفسه، لن أنكر ذلك، لقد كان مضحياً جداً بنفسه. لقد حقق رغباتي بسهولة. وبعد مرور عام، بدأ علاقة مع مليكة. لقد سيطر عليّ، وجعلني أقل غيرة، ولم يدفعني إلى التمرد. في الواقع، وقبل أن يكون لدي الوقت للتنافس مع مليكة، عرفت شيئاً ما ذات صباح، في هذا المنزل، في هذه الغرفة، على هذا السرير، شيء مذهل، شيء مذهل بقدر الإمكان؛ وهو أنني كنت حاملاً!

جحظت عينا مبرورة بالدهشة ثم هدأت، وكانت المريضة تحكي بإثارة لا تنضب:

- حامل! فكري في الأمر، كنت أحمل في بطني طفلاً لم تعترف به الحكومة، أو عائلتي، أو مجتمعي. في ذلك اليوم، مع الشك الأول، ركضت إلى بهيج، فحرك المخلوق الكافر أصابعه القاسية على بطني وضحك بخبث: "هل الطفل هنا؟ دعيني أضغط عليه ليرحل". ولم يُبدِ أهمية لذلك، وأضاف: "دعيه يكبر قليلاً، فهناك طريقة لإسقاطه قبل أن يرى عالمه"، ولكنني كنت أرتعد لأنهم سيسمعون بذلك في المنزل ويفهمونه؛

ولذلك صنعت ملابس وأغطية فضفاضة، وتمكنت من عدم إظهار الانتفاخ الذي كان ينمو تدريجياً، وبعد شهر توسلت إلى بهيج وقلت له: "ماذا سنفعل؟"، فأعطاني علبة صغيرة من المسحوق وقال لي: "اشربي هذا، ولا تخافي!"، فاعترضت وصرخت للمرة الأولى وقلت إنني لا أستطيع ارتكاب جريمة القتل هذه بيدي، لكنه لم يسمع. وعندما عدت إلى المنزل، مرة أخرى في هذه الغرفة، فكرت وفكرت، حينئذ كان عمر الطفل ثلاثة أشهر، وكان يتحرك، ما الفرق بين قتله وقتل الإنسان؟ فالإنسان على الأقل يستطيع الدفاع عن نفسه، لكن ماذا عن الطفل؟ أنا أسكب دمه بداخلي، أغرق جسده داخل جسدي.. لم يكن ذلك ممكناً، على الإطلاق، على الإطلاق.. لكن لو وُلِدَ، لو عاش، سيكون على والده أن ينقذ هذا الطفل ويتزوجني، وسيفي بوعوده. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل في المنزل؟ كيف يمكنني إخفاء ذلك؟ فكري ولو لمرة واحدة..

شربت نصف كوب آخر من الماء وقالت:

- هناك شيء ساعدني. كان لوالدي منزل وأقارب في مدينة بولو، وكنا حينئذ في فصل الربيع، وأرادت والدتنا أن تأخذ أخي الأصغر وأخي صالح إلى الأناضول، وقد وافقنا على الفور. قلت: بالتأكيد لن أذهب، سأبقى عند نافع بك. وقد

ساعدني صالح في ذلك لأنه كان يعلم علاقتي بهيج، ومساعدته لي، وأنه في يوم من الأيام سوف يتزوجني، لكنه لم يكن يعتقد أن الأمور ستذهب بعيداً جداً. كان يعتقد أن علاقتي بهيج كانت علاقة عادية. لقد خدع والدي، وتركني في إسطنبول، واستأجرت غرفة في حي فانيكوي لإخفاء حملي عن القصر، وعن هذا الحي، وبدأت الإقامة هناك، لكن بهيج غضب وقال "أستحلفك بالله يا بيلما، لا تسببي المتاعب للأطفال، اشربي هذا الدواء!"، فقلت له "شربته، لكن ليس له تأثير، ماذا أفعل؟". كانت أيامنا مملوءة بالجدال والشجار، وكان بهيج غاضباً جداً. ذات يوم، صرخ في وجهي بغضب شديد: "لا أريد لقيطاً. فكري، تحركي، افعلي ما يمكن فعله". فكرتُ وتحركتُ. آه يا مبرورة لا يمكن أن تتصورى، لدي قلب ضعيف لا يمكنه قتل حشرة، فما بالك بطفل! طفل! فقررت أن أنجبه وأحتفظ به على قيد الحياة، مهما حدث، مهما حدث، ولو لم يتعرف الأب بابنه سأتوسل إليه، سأزحف إليه، لكنني سأبقيه على قيد الحياة.

عضت مبرورة على شفتيها وهمست:

- مدهش.

- هذا مدهش.. هل يمكنك أن تتخيلي وضعي؟ كان هناك جسد آخر في جسدي. لم يُرد أحد هذا إلا أنا. لم يعترف

به القانون، ولم تعرفه البيئة، ورفضه والده. كنت سأربي هذا الشخص الذي يكرهه الجميع بمفردي، هل كان الأمر سهلاً؟ سواء أكان سهلاً أم صعباً، لم أغير رأيي، لم أتناول أي دواء، ولم أركض إلى القابلات ^(١) الخائفات، ولم يؤثر في ضجيج بهيج، وانتظرت خمسة أشهر أخرى، حاملة هذا الثقل المادي والروحي في نفسي.

ثم صمتت، فقد كان في الخارج صوت متسول، يقترب أكثر فأكثر من الشارع، يردد أشعاراً بألحان طويلة، ويختلط هذا الصوت من وقت إلى آخر بتيار الهواء فيقترب أكثر، وكانت به ارتعاشات مختنقة من شكوى لا تنتهي، وكان المتسول يغني قصة مريرة من قصص الأنبياء، ويردد المقطع التالي وهو يبكي بالفعل: "يعقوب يبكي ويقول يوسف..".

وتابعت بيلما وهي تنأى بأذنيها هذا الصوت:

- كنتُ مذنبه في نظر الجميع، ولم يكن لديّ الحق في إبقاء طفلي على قيد الحياة، ولم يكن لديّ أي قوة لفعل ذلك، ولم أستطع أن أحمي نفسي ليس فقط من الناس؛ ولكن أيضاً من الله. انظري ماذا حدث، يا له من يوم ثلاثاء، أو من بالخط السيئ في أيام الثلاثاء، بدأ الألم، فاتصلت بسيرات وطلبت بهيج،

(١) الداية أو المولدة.

لم يكن أحد يعلم بأمر حملي، حتى من في القصر لا يعرفون غير أنني استأجرت غرفة في حي بوغاز جي. وجاء بهيج في تلك الليلة مع صديق طيب، مكثا ليلتين وأحضرا قابلة سراً، وكان بهيج يقول: "هذا الطفل سيولد ميتاً!"، ولم يقل لماذا. وفي الليلة الثالثة، في الصباح، أردت الصراخ من بين أصابع بهيج القوية التي تغطي فمي، لكنني لم أتمكن من ذلك، فقد كنت أتألم بشدة. وخلف عيني، داخل عقلي، اشتعلت خطوط طويلة ومشرقة مثل البرق. الألم، الألم، الألم، الرعب، الرعب! خفقان رهيب، والالتواءات، وآلام في العظام كما لو كانت تنكسر، ليس فقط في جانب واحد من جسدي، بل في كل مكان، من خصري إلى صدري، وظهري، ورقبتي، ورأسي.. واستمر ذلك طويلاً، طويلاً. هاه، لا أستطيع أن أصف تلك الليلة؛ كان بهيج يمسك بيدي ويحاول تغطية فمي وعدم سماع صوتي. كانت القابلة والطبيب يتعرقان، وكان وجهاهما أحمرين، وكانت عيونهما حادة ومخيفة؛ لقد حاولوا جاهدين جداً وفقدت الوعي.

وسعلت بيلما المريضة ببطء، مع ارتعاشات صغيرة، ودفعت شعرها المتدلي على جبهتها المتعركة إلى الخلف، وتقول:

- حتى التذكر يجعلني أتعرق. لقد فقدت الوعي، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي مرتاحة جداً، ففهمت، وسألته: هل

هو بخير؟ فقال بهيج عليّ متأثراً وقال: "بخير!". لكنهم بدؤوا على الفور في التحدث بالفرنسية مع الطبيب. ونظرت القابلة إلى وجهي وقالت بمواساة زائفة: "زال الألم، زال الألم!".

توقفت بيلما بعض الوقت، وفكرت، ورفعت رأسها ونظرت إلى مبرورة بحدة:

- كان الطفل على قيد الحياة، أظهره لي. لا أستطيع أن أخبرك عن تلك اللحظة. صرخت بصوت عالٍ إلى درجة أن الأشخاص الذين بجانبني هربوا خوفاً. لم يكن عليّ طفلي لحم. لا يمكنك أن تتصوري ذلك يا مبرورة، نعم طفلي لم يكن لديه لحم. تم إحصاء جميع عظامه واحدة تلو الأخرى تحت جلد رقيق. كان رأسه ضخماً، وفي كل مكان من رأسه إلى قدميه، كانت هناك بثور وبقع على جلده الأصفر، كيف يمكنني أن أصفها، تشبه حبات الخرز. لقد علمت بمرض هذا الطفل الفقير من خلال فهم معنى إحدى الكلمات الفرنسية التي قالها الطبيب لبهيج.

كانت مبرورة تنظر إلى بيلما، وتتذكر كثيراً من أمراض الطفولة، وتحاول اكتشافها، فانحنيت المريضة إلى أذن مبرورة وقالت بصوت يُسمَع بالكاد، وحركت طرف شفيتها قليلاً وهزت رأسها: "الزهري!"

فقدت مبرورة إرادتها فجأة، ووقفت، وسحبت كرسيها إلى الخلف، وصرخت:

- اصمتي! هل تقولين الحقيقة؟ كيف يحدث؟ مَن؟

ردت المريضة، التي كانت مسرورة بمدى تأثير السر الذي كشفته على الفتاة الصغيرة، بابتسامة مخيفة حركت شفيتها، وقالت:

- من والده!

- من بهيج؟

- نعم.. نعم، مبرورة، من بهيج.. من بهيج.. أنت متفاجئة جداً، أليس كذلك؟ فتاة مسكينة، فتاة مسكينة. أقسم بالله، أقول لك هذا لأنني أفكر فيك دائماً، ولهذا السبب كنت أتصل بك دائماً، وإلا لانشغلت بهمومي، ولكن ما الفائدة من ذلك، فأنا بالفعل امرأة ميتة.

وبعد اندفاع الدم الأحمر الذي تدفق فجأة في وجهها، بدأت بالبكاء بتنهدات خانقة، وصدر صوت رقيق أجش ومتشقق من صدرها، يشبه صوت تمزق المشمع السميك، وكان فكها السفلي يرتعش، وأسنانها تصطك، واستجمعت قواها بصعوبة، وبدأت تحكي قصتها بطلاقة جريئة غير منتظرة أي عزاء من مبرورة:

- ماذا أفعل؟ ثم بكيت أكثر فأكثر. كان الطبيب يحاول طمأننتي ويقول: "أنت مخطئة، هذه بشور طفحية". لقد حاولوا خداعي حتى الصباح، لكنهم لم ينجحوا. وبإشارة من بهيج، تركنا الطبيب والقابلة وحدنا. كان البحر يتحرك بوهج خافت، وجاء صوت أغنية شعبية من قوارب الصيد، وصاحت الديوك بأصواتها الصارخة. في الصباح المشؤوم، نظرت إلى جسد ابني الجريح والكدمات، ووجه والده العابس والمفكر، فجلست منتصبا على سريري وسألته: ما الضرر الذي سببته لك؟ لم يكن ذلك بهيجاً، فَقَدْ فَقَدَ كل كبريائه، ونظر إلى وجهي متوسلاً، وعرض على شفتيه محاولاً الإحجام عن البكاء وقال "لم أعرف أن ذلك سيحدث". قال دون أن يحاول إخفاء ما سيفهم في النهاية، إنه أصيب بالمرض من مربيته، التي تدعى ريجينا، في فيينا، وهو يتعالج بانتظام، ولم يتوقع قط أن ينتقل المرض إلى أي شخص، وقال: "حظ، حظ سيئ، ماذا يمكننا أن نفعل، طفلي الغالي، لم يكن أي شيء بيده، لقد حدث ذلك مرة واحدة".. وهو يحني رأسه ويحاول أن يجعل خطيئته تبدو بسيطة، ثم أراد أن يعطي الأمل. هذا المرض مرض شائع، الجميع مصاب به، من يتحول في عوالم المرأة لا يستطيع التخلص منه. ويبدو أن العلاج النهائي قد عُثِرَ عليه تقريباً، وكانت هناك دائماً مؤتمرات تعقد في أوروبا لهذا الغرض. وفي يوم من الأيام، لن

يعود هذا المرض بنفس أهمية الورم الدموي. كان.. كان.. كان! فأدّرت رأسي حتى لا أسمع وأنخدع، فصرخت وقلت "فقط اصمت!"، كنت أصرخ.

توقفت المريضة، ثم بدأت:

- لقد أمضيت ليالي مذهلة بعد ذلك اليوم، وأجريت فحصًا بالدم ووجدت أنني مصابة بالمرض، لم يعد هناك شك في ذلك، وموجود لدى ابني أيضًا، ولم يفارقني بهيج، وكلما بكيت كان يعانقني ويواسيني "نحن شركاء في المشكلات، نحن معًا إلى الأبد في الحياة، هل هذا سيئ؟ هل هذا سيئ؟ نحن نحتضن بعضنا بعضًا، ونعيش، ولدينا المال، فلماذا نخاف؟"، ولكن عندما كنت أسأله "لكن ماذا عن هذا الطفل؟" لم يكن يجنبي، وكان يتعصب ويحاول إلقاء اللوم عليّ. وكانت هناك معارك قبيحة بيننا. وقلت له أشياء سيئة جدًا وقاسية جدًا. لكن، من ناحية أخرى، أردت الخروج من تلك الغرفة المشؤومة، والخروج إلى الحياة، والعيش بجنون، والاستمتاع. كانت مشاعري تجاه طفلي غريبة. لم أحبه، لكن كيف أقول ذلك؟ فقط شعرت بتعاطف شديد تجاهه. وفي إحدى الليالي، تقيأ الطفل وتلوّث سريرته، فاستيقظ بهيج من نومه وعيناه جاحظتان ونظر في عيني: "لدي فكرة، ولن تعترضني!" وعندما

علمت برأيه صرخت: "مستحيل، هذا الطفل يجب أن يعيش، يجب أن يتلقى العلاج، نحن مدينون له، سنسلمه إلى مرضعة، وسندفع النفقات، سنبقيه على قيد الحياة!". لكن منذ ذلك اليوم، كان والده يصرخ في كل مرة يبكي فيها طفله: "هذه المصيبة لا ينبغي أن تعيش، لا أريده، ليس بالقوة.. لا ينبغي أن يعيش"، وكنت أرتجف من الخوف. وهذه الخيانة كانت تقتلني. حاربت لعدة أيام وأنا أضرم الطفل في حضني وأتأوه وأقول: "إنه لي، لي، لي، لا تدخل!". ولكن ما الفائدة؟ كنت في يد والده، لم يكن معي مال، ولم أستطع رعاية الطفل بمفردي، فأدركت أنه لن يكون هذا الأمر بالقوة، فبدأت أتوسل إليه، ولكن بهيج كان مصرًا على رأيه: "لا ينبغي أن يعيش".

حتى إنه ذهب إلى حد أنه - مع أنني كنت راکعة عند قدميه - ركلني، وصرخ: "لا ينبغي أن يعيش، وإلا فسوف نفصل". لم أتحادث في تلك الليلة. اعتقدت أنه ربما يمكنني الفوز بقلبه ببطء. ظلمت أحاول القيام بذلك بضع ليالٍ، قائلة: "إنه يشبهك كثيرًا، انظر، عيناه تشبه عينيك تمامًا.. إذا كبر قليلًا، واستجمع قواه، وحصل على العلاج، سيكون طفلًا جميلًا"، لكنه لم يكن يجيب. كنت خائفة من نظراته. وبسبب الطفل، بدأ يعاملني معاملة سيئة، مستخدمًا كلمات

قاسية. وذات ليلة، قطب حاجبيه، ولم تخرج أي كلمات من فمه. ولم يُجِب عن الأسئلة التي طرحتها، ولم يتناول الطعام، وتجول في الغرفة بعصية، ولم ينظر إليّ. وبينما كنت مشغولة بالاهتمام بحمام الطفل، كان يتجول ويتجول، وفجأة جاء ووقف بجانبني، وقال: "يلما".

فأدرت عيني تجاهه بخوف، وقلت:

ماذا؟

فقال: "استمعي إليّ، لقد اتخذت قراراً نهائياً، ولا أريد الاعتراض عليه؛ سوف نتخلص من هذا اللقيط". فسألته مندهشة:

"كيف ستتخلص منه؟"

فتوقف للحظة، ونظر حوله، وأجاب، وهو يخفض صوته:

قال: "اتركي هذه الوظيفة لي". وقد رأيت رغبته المتوحشة في عينيه، فصرخت، وصرخت بأعلى صوتي:

"أنت مجنون. هل ستكون قاتل الطفل؟ أنت لا تؤمن بالله، ولا تعرف القانون. أليس لديك ضمير؟ نظر إلى وجهي بعناية، ولم يغير طريقة تباھيه قط، وأجاب ببطء دون أن يتحرك:

"قلت إن قراري نهائي. سيتتهي هذا الأمر الليلة، حتى إن الليلة متأخرة، يمكننا أن نبدأ العمل في خمس دقائق، أليس كذلك؟ لقد كان يتحدث بشكل قاطع ومسيطر جدًا، إلى درجة أنني شعرت أنه سيكون من الصعب التراجع عن قراره. لكن مهما حدث، هل أفكر في الأمر؟ ونمت على الطفل، وأدرت رأسي نحوه، وقلت آخر كلامي:

- لا يمكنك فعل أي شيء وأنا موجودة.

فضحك بخبث، وقال:

"لا تكون طفلة، لا تدعي شجارًا يندلع بيننا! لست من سيندم، فكري في النهاية".

عندما رأيت رباطة جأشه هذه، غضبت جدًا، وقلت له:

- بهيج، أنت تبدو قبيحًا جدًا لي الليلة، حتى إنك تبدولي كالسفاح، ابتعد عني، إذا كنت تمزح فلا داعي لهذا، أنا غاضبة الليلة، ولا أستطيع تحمل الهراء.

فقال: "أي هراء، أنت طفلة؟ إنها ليست مزحة، أقول إن قراري نهائي، ليست هناك حاجة إلى التفاوض، إذا لم أتمكن من القيام بهذه المهمة على الفور، فلن أتمكن من النوم نومًا مريحًا".

عندما رأيت أن ما قاله كان جدّيًّا، وقفت، وخطوت نحوه
بضع خطوات:

"ماذا ستفعل؟ ما هدفك؟ هل أنت مجنون؟"

"هذي هو القضاء على اللقيط. اتركه لي، ولا تتدخل. فقط
تعالى خلفي من بعيد. سنخرج الآن إلى بستان المرصد، لقد
حسبت كل شيء، لا تخافي".

- وماذا بعد؟

- نخرج إلى البستان. قبل المرصد بقليل، توجد ساحة
صغيرة بها أشجار الصنوبر. كل شيء جاهز هناك..

- وما كل شيء؟

- جهزت المكان في النهار: حفرة صغيرة.. عندما نلقي
عليه التراب سيختنق في دقيقتين.

عندما تصورت ما يريد أن يفعله، جن جنوني، فتوجهت
نحو الأرجوحة لأحتضن الطفل، فهجم عليّ، وأمسك بشعري
بقوة، وطرحنى على الأرض بعنف، وحين استجمعت قواي
ووقفت، كان قد أمسك بالطفل من الأرجوحة وأخذه في
حضنه وهو يصرخ، ومشى إلى باب الغرفة، وخرج، فقفزت
خلفه، واندفع إلى الحديقة بخطوات كبيرة، وكان يركض دون

أن ينظر إلى الوراء، ففي النهاية، هو رجل، عيناه تريحيداً في الظلام، أما أنا فكنت أضرب الحجارة بقدمي، وأحياناً اتعثر وأضرب الأشجار بجسدي، وصرخت بكل قوتي:

- بهيج، بهيج، بالله عليك يا بهيج، كن رحيماً، ابني يا بهيج، بالله عليك" ..

لم يكن هناك جواب في الظلام الدامس. كانت أشجار الفستق الطويلة في الحديقة تئن عل نحو غريب، وتصدر أصواتاً رهيبة. ركضت أبعد قليلاً، وتوقفت واستمعت، اعتقدت أنني أستطيع سماع صوت صراخ الطفل من بعيد. نباح كلب من اتجاه البستان. كان قلبي ينبض كما لو كان على وشك التمزق؛ لذلك ركضت مرة أخرى. مررت فوق سياج البستان، ووجدت طريقاً متعرجاً يؤدي إلى أعلى عبر أشجار الصنوبر، فمشيت ومشيت بأقصى سرعة. كانت قدماي تصطدمان بالحجارة في الظلام، وكنت أصرخ، وازداد السواد في عيني، وكان من الممكن أيضاً أن يضيع المرء في كل تلك الطرقات. صرخت مرة أخرى وأنا أرتجف: "بهيج.. بهيج.. بهيج.."، وصلت أصداء صوت مكتومة إلى أذني. عوى ذلك الكلب مرة أخرى. توقفت عندما وصلت إلى أعلى التل قليلاً. كان البوسفور، من بين أشجار الصنوبر، ممتداً على طولهِ مع

الانعكاسات المرتعشة لآلاف الأضواء الخافتة والمشرقة على الشاطئ المقابل. وبعد جهد كبير للعثور على الطريق، مشيت ومشيت بحماسة جديدة، حتى دخلت أخيراً المربع الصغير الذي تصطف على جانبيه أشجار الصنوبر، لكن عيني لم تتمكن من رؤية أي شيء. على يميني، سمعت حفيفاً وسط الظلام الشبيه بالأدغال، فأحنيت رأسي نحو الأرض وفتحت عيني، وخطوت بضع خطوات في ذلك الاتجاه، وسمعت نفساً بشرياً، واقتربت، وأذهلني صوت بهيج:

"يلما، هل هذه أنت؟"

بينما كنت أسير نحو مصدر الصوت، ضرب شيء ما قدمي وأطلقت صرخة خفيفة، فانحنيت على الأرض: كان بهيج مستلقياً على الأرض، يضغط على أذنه، ورآني، ودون أن يتحرك قال:

"اصمتي!"

بالفعل، كنت على وشك الإغماء، فاستندت إلى جذع شجرة كبيرة، وكان صوت اصطدام فكيّ ببعضهما يجعل رأسي يطن. نظرت إليه لأرى ما كان يفعله، لم يرفع أذنه عن الأرض أبداً. لا أعرف كم من الوقت ظل هناك، عشر ساعات، عشر دقائق، عشر ثوانٍ، لا أستطيع التخمين.. ثم قفز وهمس بصوت رهيب يشبه الأزيز: "هيا، تحركي، انتهى الأمر، لم يعد يصدر

صوتًا"، وكان يحمل في يده شيئًا طويلًا وأسود، فأَسَأ، وألقاه في مكان يشبه البئر على بعد خطوات قليلة. كان الأمر كما لو أنني لم أكن على قيد الحياة، كما لو كانت هناك قذيفة مدفع ثقيلة على قلبي، كنت بالكاد أستطيع التنفس، تمامًا كما هي الحال في الكوابيس، كان فكي مغلقًا، وكان صدري مضغوطًا بشدة، ولم أستطع إصدار صوت. أمسك بهيج بذراعي وانحنى على أذني: "لا تكوني غبية.. لقد نجينا من حمل كبير، تحلى بالصبر"، لكن صوته كان يرتجف أيضًا، وكان يترنح كما لو كان هناك التواء في ساقه. كان يتوقف من وقت إلى آخر، ويستمع في كل مكان، ويتنهد ويرتجف، خاصة أن ذلك الكلب المشؤوم كان يعوي ويعوي عدة مرات أخرى، بمرارة، وبصوت أجش.

أغمضت المريضة عينيها قليلًا، مع استمرار التشنج في كتفيها، وظلت هكذا مع ظهور شعور بالكراهية على شفتيها. لم تتحرك مبرورة أيضًا، وحدقت في بيلما مدة طويلة، وصمتا وقتًا طويلًا، وهي تنظر إليها طويلًا، وبحذر دون أن تتحرك في أي مكان.

فتحت بيلما عينيها فجأة، وأسندت مرفقها على الوسادة، ونهضت قليلًا على سريرها، وانحنت نحو الخزانة الموجودة على رأس السرير، وبينما كانت يداها المرتجفتان من الضعف تتحركان حول الجزء العلوي من الخزانة، ركضت مبرورة لمساعدتها.

- ماذا تريدان؟ قولي لي.

- لا شيء، الدواء فحسب.

فوجدت قطعة صغيرة من الورق مطوية إلى أربع فوق الرخام، ففتحتها، ورفضت مساعدة مبرورة، وسكنت المسحوق الموجود في هذه الورقة في نصف كوب من الماء، وخلطته بملعقة صغيرة، وشربت الدواء دفعة واحدة، وتجدد وجهها. كان يمكن رؤية صفين من الأسنان الملتصقة ببعضها ببعض من الألم من شفيتها الملتفتين إلى الخارج، وكان وجهها عابسًا، وبدأ في عينيها ظل فكرة سيئة، فسألته مبرورة:

- هل الدواء مر جدًا يا بيلما؟

- أجل..

- إذا كنت متعبة، استريح قليلاً، يمكنك أن تكمل الحديث لاحقاً.

سحبت المريضة اللحاف قليلاً، لتغطي جسدها المنكمش وأكتافها التي لم تتوقف عن الارتعاش، متكئة بمرفقها على الوسادة ويدها على وجهها، قائلة: "لا، لست متعبة"، ثم أردفت:

- عندما عدنا إلى المنزل، عندما دخلت الغرفة، لم أستطع البقاء مستيقظة ثانية واحدة، فاستلقيت على وسادة قريبة من

عتبة الباب، وفقدت الوعي. ولما فتحت عيني وجدت نفسي في حضان بهيج، وهو يقول: "يلما.. يلما.. حبيتي.. أنا بجانبك.. لا تخافي.. لا يوجد شيء.. اطمئني، نحن نجونا.. نحن مرتاحون الآن.. لن نبقى عالقين في هذه القرية بعد الآن.. سنذهب إلى إسطنبول.. سنعيش أحرارًا.. اطمئني، لقد نجونا". وهو يمرر كفيه الباردتين حول رأسي، ويغمسهما في شعري، وقد سيطرت رعشة على جسدي، وكان كل جزء مني، من رأسي إلى كعبي، يرتعش بشدة، إلى درجة أنه كان من المستحيل السيطرة على نفسي. لو لم تكوني شعرت بهذه الرعشة العصبية فلن تدري كي ذلك. كيف أصفها لك؟ هل ترين كيف تهز عاصفة غصنًا رقيقًا؟ كان الأمر هكذا. كان كل جزء مني يرتعش وكأنه سينفصل عني ويتمزق. كما اهتزت ذراعا بهيج المحيطتان بي. ولم أستطع النظر إلى وجهه، فكنت أشعر أنني إذا رأيت عينيه سأفقد الوعي مرة أخرى. وقد أدرك كراهيتي هذه، وكان لطيفًا قدر استطاعته، ولم ينم حتى الصباح، وظل يواسيني "عزيزتي بيلى، يا طفلاتي، يا لك من طفلة، يا لك من مبتدئة.. لسنا وحدنا من يرتكب الذنوب والمعاصي التي حدثت الليلة، كثير من الناس في إسطنبول قاموا بهذا الأمر، لقد اضطروا إلى القيام بذلك. أنت تكبرين الموضوع، وغداً ستفكرين على نحو مختلف، مختلف تمامًا. دعينا نعد إلى شيشلي، إلى الحياة،

إلى الرفاهية، إلى الحشود، ونرى.. هل سيبقى شيء في ذاكرتك؟
 "اصمتي يا حبيبتى، لا تبكي.."، فحتى الكافر يعرف طرق
 المواساة. آه يا مبرورة، آه يا عزيزتي، لقد خدعني تلك الليلة،
 وأخبرني أن هذا الطفل لا يمكن علاجه بأي حال من الأحوال،
 وأنه محكوم عليه بكثير من الكوارث في المستقبل، وأنه سيعاني
 العار الكامل إذا عُرِفَ ماضيه، وكأنه يريد أن يجعل موته يبدو
 كما لو كان ميموناً. وبالطبع، كنت في أمس الحاجة إلى الخلاص،
 مهما حدث، من العذاب الذي كنت أعانيه منذ أشهر في منزل
 فانيكوي البري المهجور. وكلما تبادر إلى ذهني المنظر المهول
 للبلستان، فتحت عيني وحاولت إبعاد هذا المنظر عني. وفي
 تلك اللحظات، فهم بهيج جهودي، وساعدني، وحاول تشتيت
 انتباهي بالحديث عن أشياء أخرى.

وتابعت المريضة وهو تتلوى قليلاً تحت اللحاف:

- أخيراً، لقد حلَّ الخريف، وعدنا إلى شيشلي. ولم يعرف
 أحد أي شيئاً عن موضوع الطفل، وظنوا أنني مريضة بالمثانة،
 وكانوا يقولون "لقد خسرت كثيراً من وزنك". وبعد خمسة
 عشر يوماً، جاءت عائلتي أيضاً من الأناضول، ودعوتهم إلى
 هناك، كما طلبت من الأشخاص الموجودين في القصر عدم
 إبلاغ صالح بأنني كنت أعيش في فانيكوي. وكان كل شيء

طبيعياً، ولم يشك أحد في أي شيء. مع اقتراب فصل الشتاء، أصبحت حفلات استقبال نيفين في بداية الأسبوع أكثر سخونة، وبدأت الحياة في القصر، يمكنك تخمين ما هو أبعد من ذلك أيضاً. وكانت علاقتي جيدة بيهيج، وأصبحنا أنا ونيفين صديقتين جيدتين. كانت نيفين تجد لي عشاقاً يدفعون لي أموالاً سراً عن أخيها. كنا نستمتع معاً، وكانت حالة بيهيج المزاجية جيدة جداً، لقد ارتكب كثيراً من الأفعال الفاسقة أمام عيني، لكنه كان يهتم بي دائماً، ولم يهن احترامي لذاتي قط. وقد تلقيت أيضاً كثيراً من المساعدات المادية منه.

عبست بيلما وجهها مرة أخرى، بعنف أكبر، وعضت على شفيتها، وضغطت بيدها على بطنها. لقد كانت تتلوى أكثر بآلم لا يُخفى، وأردفت:

- الدواء يزعجني، إنه قاس جداً. دعيني أختصر الحديث. وهكذا مرت السنون. ولم نتذكر أنا وبهيج تلك الذكرى إلا قليلاً، وكان هناك طبيب يعالجنا معاً، لكنني لم أستطع مقاومة المرض جيداً، وتم تجديد دورات العلاج عدة مرات. وفي الآونة الأخيرة، بسبب الإهمال، اشتد المرض، وأهملت العلاج كثيراً، فبعد الانفصال عن بيهيج، لم أتمكن من العثور على المال، ولا توجد مساعدة من نيفين أيضاً. ومنذ أن أتيت إلى هذا المنزل، أمضيت أسوأ ليالي حياتي، وحالة صالِح معروفة.

في الأيام الأولى، أراد الانتقام من بهيج، وكان الرجل المسكين يتخيل أشياء غريبة، لم يستطع فعل أي منها، وأراد أن يستقر مع شخص مشاغب في حي جراح باشا، لكنه لم يستطع خداعه أيضًا. تخيل أنه لم يكن يعرف الأذى الكبير الذي تعرضتُ له على يد بهيج، فقد ظن أنه تركني فقط، وكنتُ اختبئ دائماً. ولكن في إحدى الليالي، اشتد بي الألم، وبدأت بالبكاء بسبب ألم حاد أصاب رأسي، فركض والدي وأمي وأخي لإحضار طبيب، لكنني لم أرغب في ذلك، وطلبتُ من والدي وأمي أن يناما، وبقيتُ وحدي مع صالح. كنت أشعر بالجنون بسبب الصداع، وكنت بحاجة إلى التعبير عن حزني، وأخبرت صالح بالأمر برمته كما كان. آه.. آه، يا مبرورة، ليتني لم أقل ذلك، ليت لساني عجز عن الكلام! فبعد أن استمع إلي، تغير فجأة؛ حيث أحكم قبضته، وبدأ يتذمر وقال "سأقتله"، ولم ينم حتى الصباح، ولم يغادر غرفتي، وكان يتجول بخطوات كبيرة، ويقول دائماً: "لا يمكن أن ينجو مني، لقد انتهى الأمر، سأقتله!". وفي اليوم التالي عاد إلى المنزل في حالة سكر، وانسحب إلى غرفته، ولم يتحدث مع أحد. وفي الأيام التالية كان يترك نومه في منتصف الليل ويتجول في أرجاء المنزل، ولم يكن واضحاً ما يفعله. هل كان يسير وهو نائم؟ أم أنه لا يستطيع البقاء في السرير بسبب حزنه؟ أم كانت له أغراض أخرى؟ لم يكن أي شيء واضحاً.

وثبت بيلما فجأة على سريرها وأطلقت صرخة صغيرة:

آه من الألم.. آه.. فجأة علق في معدتي مثل المشرط، آه.. قليلاً من الماء.
وعلى الفور ملأت مبرورة الكوب وأعطتها إياه، فشربت المريضة
الماء عن طريق ترطيب شفيتها الجافة والمتشققة وبلعه. وقالت
"مرة أخرى، قلبي يحترق"، وشربت مرة أخرى، وألقت اللحاف،
وجلست على السرير، وانحنت إلى نصفين، وضغطت بقبضتها على
بطنها، وتمايلت عدة مرات. كانت تعاني النشيج بشكل متكرر.

- آه.. مبرورة.. حلقي جاف.. لا يتل أبداً.. والألم
مرعب.. لكن.. اسمعي.. هل تسمعينني؟

- لا تتعبي نفسك يا عزيزتي بيلما.

- لا تنادني ببيلما بعد الآن.. أنا خديجة، خديجة.. أحب
هذا الاسم كثيراً؛ لأنه اسم فتاة تركية مسلمة، اسمعي يا
عزيزتي مبرورة.

كانت تضغط دائماً بقبضتها على بطنها وتهز الجزء العلوي
من جسدها وتقول:

- من الآن فصاعداً سيعلم الجميع بهذا الأمر، هناك رسالة
في خزانتي موجهة إلى الشرطة. لن يكون الأمر سراً على أحد بعد
الآن.. حتى الآن، بهيج وصالح ونادر وأنا فقط من نعلم بهذا.

مبرورة: نادر؟ هل قلت لنادر؟

بيلما: نعم.. قلت له فقط لأن نادر لديه قلب نقى جداً.
ها.. نعم. ماذا كنت أقول؟ أجل، فقد أخي صالح توازنه منذ
ذلك اليوم، وقد مرضتُ جداً أيضاً. وفي يوم من الأيام، ها،
في اليوم السابق - آه.. الألم رهيب يا مبرورة - في اليوم السابق..
قررت أنا وصالح الذهاب إلى القصر في المساء، لنرى بهيج
وحده، كنا سنحثة على أن يكون رحيماً وعادلاً، وإذا تشبث
برأيه مرة أخرى كنا سنقول له: "سنسلمك للشرطة، وسيعلم
الجميع مسألة فانيكوي". كانت هذه فكرة صالح، وقبلت
على حين غرة. وفي طقس ثلجي، في وقت متأخر من المساء؛
لأن هذا هو الوقت الذي يكون فيه بهيج في أغلب الأحيان في
القصر، وصلنا أمام القصر، وكانت هناك خرابة أمامه، فوقفنا
هناك ننظر إلى القصر؛ لسبب ما، كنا مترددين.

صاحت مبرورة:

- أي يوم؟ ليس أمس، هل كان أول أمس؟

- نعم، هذا ما سأقوله. بينما كنا ننتظر، خرجت أنت
وبهيج من القصر، في البداية رأيتنا، لكنك غالباً لم تتعرفي
علينا، فذهبنا إلى الخرابة حتى لا يتم التعرف علينا، ثم تركني
صالح وحدي، وركض خلفكم، وكنت أنا مثل المجنونة،

حيث خفتُ من أن يفعل شيئاً خطيراً، وانتظرته في المنزل حتى منتصف الليل، وجاء متخفياً يتصبب عرقاً دموياً، وشعره وقف مثل المسامير، وتورمت حدقتا عينيه، كان يتنفس على نحو سيئ، وأخبرني أنه علق في مؤخرة السيارة. وقد سمع ما قلتُموه وقال "غالباً مبرورة منخدعة أيضاً" ثم.. لا أعلم.. لقد أدرك أنه لا يستطيع فعل أي شيء. وأعتقد أنك رأيته أيضاً من خلال النافذة الصغيرة للسيارة، وتوقفت السيارة، وهرب هو بالكاد، وعند منتصف الليل، عاد إلى شيشلي وهو يتجول في مدينة كاغد هانة، ومن هناك إلى المنزل.

بدأت المريضة تعاني صعوبة بالغة في التحدث، كانت تتلوى دائماً، وتقول "معدتي.. معدتي.. آه.. إنها تتمزق.. لا أستطيع التنفس"، وكانت تتصبب عرقاً. وقفت مبرورة خائفة من تدهور حالة خديجة المفاجئ:

- ما الأمر يا خديجة؟ أخبريني ماذا يحدث؟ ماذا أفعل؟
هل يجب أن أتصل بالطبيب؟

- اجلسي.. اجلسي.. دقيقة أخرى.. دقيقة أخرى.. استمعي.. أنا.. أريد أن أخبرك.. أن بهيج.. خيف.. رجل خيف.. كذاب.. بلا قلب.. خائن.. يسعى إلى نفسه.. رجل.. رجل رديء.. مبرورة.. قولي.. للآخرين.. لأن الآخرين: نيفين

ونظمية.. مريضتان مثلي. كل الرجال السيئين، كل الأشخاص غير الأخلاقيين.. آه.. اصمتي، أنا أعرف أشياء كثيرة.. كثيرة.. لا أعرف أي شيء.. دعينا من هذا.. ها.. لا تنخدعي بهم، حتى.. تعهدي لي.. أنك لن تذهبي إلى القصر بعد الآن، تعهدي.. مبرورة، أقسم بالله.. أنا أفكر فيك دائماً.. دائماً.. وأفكر في كل الفتيات التركيات النظيفات، الشريفات، الطاهرات.. أنا أفكر فيهن جميعاً.. أوه، لو كان بإمكانني أن أخبرهن، لو كان بإمكانني أن أخبرهن..

وكانت أحياناً تتلوى، وتدفن وجهها في الوسادة، وتضرب ركبتيها على السرير، وأحياناً تستلقي على ظهرها، وتلكم صدرها وبطنها وتتلوى، وتتوجع، وتهز السرير وحتى الغرفة:

- عديني، عديني يا مبرورة..

تقف الفتاة الصغيرة في حيرة من أمرها بشأن ما يجب فعله، وتتكى على المريضة:

- وعد يا خديجة.. يا أختي.. والله وعد.. لكن.. ما المشكلة، قولي ماذا أفعل؟

لم تستطع خديجة الإجابة، وكانت تقفز بصراخ قصير وخشن وحاد وأزيز كما لو كانت تحتنق، وتتمتم وهي تتوجع:

- مبرورة.. لقد انتهيت.. لقد انتهى الأمر.. ما قمت به للتو.. ما أفرغته من تلك الورقة.. ما شربته.. كان سمًا، سمًا..

صرخت مبرورة بصوت عالٍ وهي تقول: "ماذا؟ ماذا؟ سم؟ سم؟"، وركضت إلى باب الغرفة، وسحبت المقبض كما كانت ستنتزعه، وفتحت الباب، وهرولت إلى الصالة، إلى أعلى الدرج، وصرخت بكل قوة صوتها الرقيق:

- سيد نادر.. يا سيد نادر.. سيد نادر..

كانت هناك حركة في الأسفل. انفتح الباب وجاء صوت نادر:

- مبرورة هانم؟ ماذا يوجد؟

- اركض، تعال بسرعة، اركض..

وبعد الخطى المتسارعة، ظهر نادر في زاوية الدرج، وبينما كان يقول "ماذا؟" كانت مبرورة تقول مرارًا وتكرارًا وتضرب الأرض بقدميها:

- اركض، بيلما سممت نفسها.

قفز نادر ثلاث درجات مرة واحدة وصعد، قائلاً:

- ماذا؟ سم؟

ودون انتظار إجابة، ركض إلى الغرفة، حيث سمع تهوع المريضة، وذهب على الفور إلى السرير وتوقف فترة من الوقت؛ فقد كانت خديجة معلقة رأسها فوق السرير، وتتقيأ على الأرض، ويتدفق من فمها ماء أصفر ودموي. ولو لم يمسك نادر بكتفيها، لفقدت المريضة توازنها وسقطت من السرير على الأرض، فقد كانت تتقيأ بشكل متواصل، وتتوجع وهي تصرخ، وتصرخ بمرارة أحياناً. وما إن أحس الشاب بنبض المريضة حتى التفت إلى مبرورة: هيا يا مبرورة هانم، وظيفتك الأخيرة، اركضي إلى الطبيب.. إلى الطبيب.. في الشارع.. على الزاوية.. في الصيدلية.. إذا لم يكن هناك طبيب، قولي لهم إن هناك شخصاً مسموماً. أسرعي..

فركضت مبرورة.

وخطر على بال نادر بعض المعلومات التي تلقاها خلال التعليم المدرسي، وهي أنه لا بد من حك لسان المسمومين قليلاً؛ فأمسك برأس المريضة وفتح فمها وأدخل أصابعه، لكنه لم يفلح، فقد كان يتدفق الدم والألياف المتجلطة من فم المسكينة. وتوقف هذا الغثيان الرهيب بعض الوقت، وضعفت قوة المريضة فجأة، وأصبحت نظراتها ضبابية. عندما وضعها نادر على ظهرها، سقط رأسها على السرير، كما لو كان قد انكسر وانفصل عن كتفيها.

وتذكر الشاب أن هناك كتاباً قديماً في غرفة صالح معنوناً بـ "طبيب المنزل"، وهذا الكتاب مكتوب فيه علاج سريع لجميع أنواع الأمراض، ومنها حالات التسمم، فركض ووجد الكتاب، وجاء إلى غرفة المريض وفتحه أمام النافذة. وكانت الجملة التالية إحدى الجمل الأولى في الصفحة التي كان يبحث عنها:

"إن السم اللازم للانتحار هو الأفيون ومكوناته". وفي السطور التالية وجد الفقرة التالية:

"في حين أن أنواع السم، كما يعتقد معظم المؤلفين، هي أربعة، وتتكون من المحرشات، والمخدرات المحركة، والأفيات^(١)، فإن الطبيب الكنسي الشهير في فرنسا، تارديو، يقسم السم إلى خمسة أجزاء...".

وقفزت المريضة على سريرها، وهي تصرخ بصوت أجش محتق، مثل شخص قطعت حنجرته، وقبل أن يتمكن نادر من مساعدتها، استلقت على الأرض مرة أخرى لا حول لها ولا قوة. فتحسس الشاب على الفور على نبض المريضة، وشعر بضربات غير منتظمة، فواصل قراءة الجزء الخاص بالسم من الكتاب ليعرف ما يمكنه فعله:

(١) أنواع السموم كما وردت بالرواية التركية.

- سموم المحرشي
- سموم منقصة القوة
- سموم مدهشة
- سموم محرضة
- سموم مهيجة الأعصاب.

وقلب الصفحة بغضب: "لعنة الله عليك.. ماذا عن العلاج؟"، وقرأ:

"إن حقيقة تسميم الإنسان فعلاً، ونوع السم المستعمل هو أمر لا يعرفه إلا ذوو الخبرة، وليس من الضروري ذكرها وتسجيلها هنا".

وكانت المريضة تقفز قليلاً وتئن، فغضب نادر بشدة، وقلب الصفحة، فقرأ التالي:

"ولكن بشكل عام، عندما يتعلق الأمر بإسعاف الشخص المسموم، فإن علاجه ينقسم إلى قسمين، اعتماداً على ما إذا كان يستخدم داخلياً أو خارجياً. عند استخدام السم داخلياً، يتم تقسيم الترتيب إلى أربع مراحل؛ المرحلة الأولى = دوران السم...".

وأطلقت المريضة صرخة حادة أخرى، فوضع نادر إصبعه على صفحة الكتاب ومال على خديجة وقال لها:

- انتظري، لا تقلقي، فهو قادم الآن.. سيأتي الطبيب..

كانت المريضة تتمم بشكل مؤلم، بكثير من الكلمات غير المفهومة والجميل الغامضة غير الكاملة:

- لا تدعه يأتي.. لا أريده.. أيضاً.. ليكن.. أنا.. قلت..
الآن.. الآن.. أنا مسلمة.. فتاة.. تركية.. الله..

- أختي بيلما

- أنا خديجة.. خديجة

- أختي خديجة، أنا بجانبك، أنا نادر.

تعبت المريضة مرة أخرى وصمتت.. صمتت المريضة مرة أخرى، وأمالت رأسها جانباً بفمها المعوج ووجهها الأكثر بياضاً من الوسادة.

ومن بين التفاصيل الكثيرة في الكتاب، لم يصادف نادر أي سطر من شأنه أن يفيد بالعلاج الفوري، لكنه أخيراً قرأ السطر التالي:

"وأخيراً، هناك نقيض لكل مادة وجوهر، سواء في الكلام، أو العلم، أو الفن، أي إنه مع أن الترياق معلوم فإنه لا يُعْهَد به إلا إلى الخبراء والمختصين، وبما أن ذكره والإعلان عنه في مثل هذا الكتاب العام، الذي سيكون بمنزلة الطبيب في كل منزل،

له منافع وفوائد ملحوظة فإن الأخطار والأضرار ستستمر؛
ولذلك نكتفي بهذا، ونترك الجزء السفلي للأطباء، الذين هم
خدم وطننا وإنسانيتنا، ولا بد من مراجعتهم" ..

وأغلق نادر الكتاب بحركة صاخبة وألقاه على الوسادة،
ولأول مرة في حياته أصبح شغوفاً بالفرق بين الكتب والحياة،
ووضع كفه على جبين المريضة الذي كان مبللاً بعرق بارد.
تأتي أصوات قدم من ناحية السلم، وسمع صوت مبرورة:
”من هنا.. يا دكتور“ ..

فُتِحَ الباب، ودخل الطبيب من الأمام، وفي يده زجاجات الدواء،
ومبرورة من الخلف. كان الطبيب رجلاً عجوزاً. وإذا حكمنا عليه
من خلال عيني مبرورة المتذمرت، يتضح أنها كانت تمر بكثير
من المتاعب لجعل هذا الرجل العجوز يقوم بواجبه بسرعة،
وأصبحت أكثر غضباً وهو يحاول فك سدادة زجاجة الدواء:
- آه يا دكتور، هل يمكن تضيق سدادة زجاجات الدواء
بهذه السرعة؟

وقد عمل ثلاثة أشخاص على هذا الأمر بضع دقائق.

وبينما كانت مبرورة تعد الدواء، تحسس الطبيب نبض
المريضة، وكشر عن وجهه، وسأل نادر:

- هل هي نائمة؟
- لا أعرف؟ لقد كانت تتقيأ كثيراً منذ قليل، ونامت الآن.
- هل تسممت؟

جاوبت مبرورة وهي تمد كوب الدواء للطبيب:

- نعم، هي قالت ذلك.

مال الطبيب عليها حتى يعرف اسم المريضة، وأراد أن يوقظها بصوت رقيق يشبه صوت سيدة في حي تنادي جارها:

خديجة هانم.. خديجة هانم. بنتي.. ابنتي.. خديجة هانم..

لم تجب خديجة، ولم تتحرك بجفونها نصف المغلقة التي يمكن من خلالها رؤية اللون الباهت لعينيها غير المضاءة، وجلد وجهها المشدود والشاحب، وذقنها المائل إلى جانبها.

ارتابت مبرورة من هذا الصمت، فمالت على المريضة حتى منتصف خصرها، وأمسكت يديها وصرخت:

- خديجة.. خديجة.. يا أختي.. افتحي عينيك قليلاً..

لم تتحرك خديجة.

هذه المرة اقترب نادر وانحنى، ولامس أصابعها، وهز ذقن المريضة، البارد، قليلاً، وباهتمام حاد يزداد في لحظات استثنائية، نظر إلى حركة بسيطة في عيني خديجة ونادى:

لم تتحرك خديجة.

- أرجوك يا دكتور، إنه وضع خطر.

ثم التفت إلى مبرورة:

- اركضي يا مبرورة هانم وبلغي الجيران، واطلبي منهم أن يتصلوا بوالدها حتى تأتي.. دكتور.. هذا ليس شرود الذهن يا دكتور.. هذا نوم سيئ..

وبينما كانت مبرورة تغادر الغرفة، وتسمع صوت أنفاسها المحزنة، كان الطبيب ممسكاً بيد المريضة، ولا يعرف ما الذي عليه فعله، كان ينظر حوله بعجلة ويتمتم:

- ماذا نفعل؟ كيف نعطيها الدواء؟

- أي دواء؟

- علاج القيء.

- سأساعدك.

أدخل نادر بلطف الطرف العكسي للمعلقة الدواء الصغيرة في فم المريضة من بين أسنانها المفتوحة نصف فتحة، واستخدم قوة رافعة بسيطة عن طريق وضع المعلقة على الأسنان السفلية، ونجح في فتح الفم قليلاً:

- دعنا نعطيها الدواء يا دكتور، أحضره..

اتسعت الفجوة في عيني المريضة أكثر قليلاً، وبدأت الأنفاس الكريهة تخرج من فمها. وفي صمت اللاوعي الغامض هذا، كانت العيون الزجاجية بلا حراك، بنظراتها الثابتة، بلا اتجاه، الغريبة والرهيبة التي لا يمكن إعطاؤها أي معنى. سكب الطبيب الدواء، وكان بعض الماء يتسرب من الخارج ويتراكم بين الشفاه واللثة، ويتجه نحو الذقن، وبقيت بضع رشقات في الداخل. سحب لسان المريضة قطرات هذا الدواء بحركة ضعيفة، وتحركت أجفانها قليلاً.

يئس الطبيب غير الحكيم على الفور من هذا المنظر، وقال لنادر بالفرنسية: "سيفيني.. انتهى الأمر". وبعد هذه الكلمات تحركت حدقة عين المريضة، التي لم تتحرك على الإطلاق، فجأة نحو نادر، وفتحت شفيتها برعشة بسيطة، وتحرك لسانها في الداخل، وضرب حنكها. هل كانت تريد قول شيء؟

وبينما كان الطبيب يضع يده على قدم المريض، كان نادر ينحني عليها ويقرب أذنه من فمها:

- هل ستقولين شيئاً؟ خديجة.. هاه؟ هل ستقولين شيئاً؟
تحركت جفون المريضة مرة أخرى.

- عَمَّن؟ لعائلتك؟

لا يوجد رد.

- هل يتعلق الأمر بمبرورة؟

لا يوجد رد.

- هل يتعلق الأمر بشخص آخر؟

تحركت جفونها.

- عن بهيج؟

تحركت جفونها. اتجهت عين المريضة قليلاً إلى الجانب
بجهد جعل حاجبيها مجعدين قليلاً، وظلت ثابتة على الخزانة
الموجودة على رأس السرير.

ارتجف نادر. في هذه الحدود الغامضة للحياة التي تنتقل إلى
الموت، فقد رأى مدى العذاب العميق الذي يتحمله الشخص
المحتضر من أجل التعبير عن أمنيته الأخيرة، وإرادته الأكثر
صدقاً ودقة، وشعر بالعذاب الرهيب للفناء:

- هل هناك شيء في الخزانة؟

تحركت جفونها بشدة.

- خطاب؟

لا يوجد رد.

أمسك الطبيب، الذي كانت خبرته أكثر من معلوماته،
بذراع نادر بلطف وسحبها إلى الخلف:

- يكفي.. انتهى الأمر.. انظر إلى الذقن..

كان الفك السفلي يتدلى، واهتز مرة أو مرتين، وانحرف نحو
اليسار، وظل بلا حراك.

كانت هناك صرخات في الأسفل، مشوشة، ويقترب من
السلم أصوات خطوات مشوشة وعالية، امرأة في القاعة، أم
المرحومة، كانت تصرخ بحدة ومرارة.

- آه.. آه.. آه.. يا بتي.. يا حبيتي.. آه.. آه..

انفتح الباب على مصراعيه، واصطدم بالخزانة التي خلفه
بصوت عال، ودخلت الغرفة امرأة قصيرة نحيفة، ترتدي
عباءة، سوداء شاحبة مفتوحة من الأمام، ليس لها رموش على
وجهها الصغير المتجعد، وعيناها الحمران متفتحتان، وأطراف
حاجبيها المقطبة مدببة، وهي تمد ذراعيها إلى أعلى، وتثني
وتفرد أصابع يديها الكبيرتين، وقد فقدت أملها الأخير عندما
رأت الطبيب ونادر عند أسفل السرير، ورأساهما منحنيان،
صامتين بلا حراك، ينظران إلى الأرض، فانهارت على السرير
وهي تصرخ صراخاً طويلاً حاداً أجش يشبه السعال الديكي:

- ابنتي.. حببتي.. خديجة.. خديجة.. حببتي.. ملاكي..
 خديجة.. خديجة.. خديجة.. وبعدما قالت "خديجة.. خديجة.."
 الأخيرة هذه التي خرجت منها بحدة وأكثر طولاً، رأت المرأة
 تكتلات قيء متخثر ودموي على الأرض، فسقطت إلى الخلف
 على حافة السرير، وفقدت الوعي.

ركض الطبيب ونادر ومبرورة واثنان من الجيران، كبيرين في
 السن ومتفاجئين، إلى الأم. كان بعضهم يمسك الكوب ويغسله
 على حافة النافذة ويملؤه بيلماء بناءً على ما قالت مبرورة،
 وبعضهم الآخر يفتح النوافذ، وكان الطبيب ونادر يساعدان
 ويحملان المرأة إلى أريكة قديمة أمام النافذة، فقالت مبرورة:

- سنأخذها إلى الغرفة الداخلية وإلا سيحدث شيء لها.

ولكن الأم التي عادت إلى وعيها قليلاً رفضت وسط أنينها
 المؤلم:

- مستحيل.. لن أذهب إلى مكان.. بنتي.. حببتي..

ووقفت بمساعدتهم على قدميها وهي تتمايل على قدميها
 الضعيفتين، وركضت إلى السرير، وبكت هذه المرة بصوت
 منهك، وأنفاس قصيرة متقطعة.

لم تكن النساء المجاورات ينظرن إلى وجه أحد، كن صامتات،

يغطين وجوههن حتى الذقن بملاءاتهن، التي يمسكنها بإحكام، وكان في عيونهن خوف ودهشة وضغينة أكثر من الشفقة.

ولم تتمكن إحداهن من تمالك نفسها، فانحنت على الجثة وصرخت بصوت أنثوي متقطع:

- خديجة.. خديجة.. يا بنت.. يا مسكينة.. قتلك التانجو.

ونظرت إلى الطبيب ونادر ومبرورة، وهزت رأسها، بأسنانها المُسوَّسة المتشابكة بين شفتيها المزمومتين، مرتين، وقالت مرارًا وتكرارًا: "التانجو.. التانجو.. التانجو..".

وفي هذا الصمت المؤلم، فكر نادر في معنى كلمة "التانجو"، فالتانجو هو الاسم الذي يطلق على النوع الجديد من النساء في الأحياء التركية الإسلامية المتدينة النقية. هذا الاسم الذي سُمِعَ منذ سنوات قليلة بسبب الموضة الهابطة، انتشر في كل مكان، حتى في الأحياء الأكثر تهذيبًا بالبلاد، وقد استُخدم لقبًا لعشرات العقليات المقززة جدًّا، ولم يُنسَ حتى اليوم. التانجو تعني أولئك اللاتي لا يخبين دينهن أو جنسيتهن؛ ومن يتمردن على الحي الذي عشن فيه، وعلى أسرهن؛ تعني المرأة الملعونة التي باعت عفتها وشرفها، وارتكبت كل خطيئة، فقتلها الله بآلاف الأمراض والآفات. كان التانجو سببًا لكل كارثة في هذا البلد، بما في ذلك وفيات الحرب والمجاعة؛

والحرائق، والكوليرا، والأمراض الإسبانية، وداء الكلب. وقد عَذَّبَ الله الكفار، وغضب على المسلمين بسبب هذا التانجو. والعذاب الذي تعرضوا له حتى الآن لم يكن شيئاً، فهناك ما هو أكثر من ذلك. من يدري؟ لعل السماء تسقط على رؤوس أمة التانجو مثل قطعة صلبة من النحاس الساخن، وسوف تحرقهم جميعهم، حتى الأبرياء منهم، وتكويهم، وتغليهم.

وبينما كانت والدتها تبكي، هزت إحدى الجارات كتفها، وقالت:

- انهضي يا امرأة، لا تبكي، لا تضيعي نفسك، انهضي، قضي الأمر، لا يتغير ما كتبه الله، انهضي، إنه عار عليك. فقد قالت لي زوجة الإمام عشر مرات إن خديجة سينتهي بها الأمر إلى هذا المطاف.

أطلقت الأم أنيناً مكتوماً، واحتضنت جسد ابنتها المتكتل تحت اللحاف، فتحرك فك خديجة المتدلي بهذه الصدمة.

وهنا لکمت الجارة الأخرى، التي لم تفتح فمها قط حتى ذلك الحين، الطيب في ذراعه:

- يا سيد إحسان، كم أنت مذهول! ألا تخاف الله؟ دعونا نربط فك المرحومة، وبحشوا ووجدوا القطن.

وقامت تلك المرأة بهذه المهمة بنفسها، فيبدو أنها اعتادت ذلك، وأنهت الأمر بسرعة.

في تلك الليلة، أضيئت جميع المصابيح في بهو القصر؛ والثريا الكبيرة، والمصابيح الملونة على الرفوف، وشموع البيانو، وجميع المصابيح الموجودة في القاعة الرئيسة، فقد كانت تلك الليلة واحدة من الحفلات التي تدعو إليها نيفين كلما أرادت ذلك. كان الضيوف ينهضون من على الطاولة، وهم في حالة نعاس عذب بسبب نبيذ بوردو اللذيذ الذي أُرسِلَ للتو من فرنسا إلى بهيج، ويسرعون إلى ذلك السم، واحداً تلو الآخر، ويذهبون إلى القاعة، وهم يضحكون ويقولون أفكاراً ناقصة، ونكات لم تكمل محادثة منتظمة، ولا تبدو كإجابة عن سؤال. وقد ابتهجوا جميعهم، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، بتحالف نادرًا ما يحدث. وعندما رأى نظام الدين بك أن غرفة الاحتفالات قد امتلأت بالكامل، أدار رأسه، الذي كان بلا حراك في ياقته العالية، مع كتفيه، مثل ضابط أجنبي في ملابس مدنية، وصرخ:

- "السيدات والسادة.. من فضلكم أود أن أطلب شيئاً"،
ثم توجه إلى الجمهور وأعرب عن رأيه:

- لقد تعلمت لعبة صالون جديدة، إنها شيء لذيذ جداً،
يرجى الحذر، ستسلينا كثيراً..

وبدأ يعرف اللعبة لهم، وأظهر الجميع اهتماماً بها. سيكون
هناك شخص معصوب العينين يجلس على كرسي في إحدى
الزوايا، في البداية، سيأتي شخص واحد أمامه، ويقول بضع
كلمات عن طريق إخفاء صوته قدر الإمكان، أي بصوت
منخفض جداً، فإذا اكتشف الشخص ذلك سينجح وسيأخذ
الشخص الآخر مكانه، وإذا لم يتمكن من اكتشاف ذلك،
فسيكون له صلاحية فحص جسد الشخص الذي يقف أمامه،
وبذلك سيتمكن كل شخص، معصوب العينين، من معرفة
الشخص الآخر، إما من صوته المنخفض، وإما من خلال
سمة من سمات جسده.

نالت اللعبة إعجابهم. وكانت جوزيده تصفق بيديها،
وتجري هنا وهناك في نعاس النبيذ الذي جعل رأسها الصغير
يغفو كثيراً، وكانت تسحب بهيج، الذي بدا عليه أنه كان
شارد الذهن في أمر ما، من ذراعه:

- هيا يا سيد بهيج، الدور عليك.

- اتركني يا جوزيده.. أنا مريض الليلة..

انتبه الجميع لإجابة بهيج. ووقفت ناجية هانم، التي كانت تثب كالطفلة، فجأة وسألت بصوت عالٍ:

- ما بك يا سيد بهيج؟

- لا شيء، صداع نصفي.

أولئك الذين حاولوا معرفة السبب الحقيقي لهذا الملل فهموا أن مبرورة لم تكن في هذا الجمع، وأن الفتاة التي غادرت في الصباح الباكر لم تصل بعد، ولم تصل حتى إلى نهاية الطعام؛ ولذلك، لم تُذكر هذه الدعوة لها إلا لفترة وجيزة.

كما اقتربت نظمية هانم ونيفين من بهيج:

- حقًا، حقًا... ما هذا؟

صرخت جوزيده:

- أنا فهمت.

وقد وافق بهيج، الذي لم يستطع تحمل الظهور بمظهر المفكر والضعيف وسط هذا الحشد المبهج الذي أحاط به فجأة، على اللعب، وبينما كان يجلس على المقعد سألت نظمية هانم ابتهاجًا:

- في رأيك يا نيفين، أين توجد في مبرورة؟

- لا أعلم يا أمي، لماذا لا يكون لها موعد مع فخري مرة أخرى؟

- أيعقل؟ ولو كان كذلك لما أخفت ذلك عنا.

ولكن الضحك الذي رن حول بهيج جرّ الأم وابنتها إلى هذا الاتجاه. مرر بهيج، وهو معصوب العينين، أصابعه على كتف ريفيا المنخفض، وقال دون أن يعرفها:

- جوزيدة، هذا أنت!

أضحك الجميع بشفتيه الملتويتين بعصية. كما قال على نيفين، التي جلست على ركبتيها ببطء، "لا بد أن هذه السيدة ريفيا"، وهذا أضحكهم أيضاً، وأعلنوا أن هذه الفتاة (مبرورة) لها تأثير مستمر عليه، ولم يستطع التخلص من هذا الدور، وأخيراً أمسك بنظام الدين بك، وأجلسه مكانه.

خلعت جوزيده حذاءها، ووضعت قدمها الصغيرة الرفيعة في كف نظام بك المتجعد، وسألت وهي تخفض صوتها:

- خنّ من أنا؟

تظاهر نظام بك، الذي داعب كعب جوزيدة بأصابعه التي عادت إلى الحياة فجأة، بعدم معرفتها وقال: "انتظري، دعيني أرّ، امنحيني بعض الوقت"، وهو يمد يده المتحمسة إلى أعلى، وواصل فحوصه المثير إلى درجة أن السيدة ناجية صاحت وقالت:

- سيرات، أيقظي هذا من نومه!

جوزيدة، التي ركضت عائدة بالقفز على ساق واحدة،
سندت على ذراع سيرات وهي ترتدي حذاءها، قائلة: "لم
يستطع معرفتي، لم يستطع معرفتي"، وضحكت ضحكة كاملة
جعلت خديها منتفخين.

لقد أحبوا اللعبة كثيراً، وعلى عكس كثير من الألعاب،
أراد الجميع أن يكون الدور عليهم، وارتكبوا أخطاء وهمية.
وبفرحة غير متوازنة كانت تظهر حتى على أكثر الناس جدية،
بدأ المجلس يتسامح مع التلميحات الواضحة، والنكات اللا
إنسانية، والحركات المندفعة.

لكن فجأة توجهت كل الكلمات إلى باب القاعة، فهناك
خطى عالية ومسرعة لعدة أشخاص في البهو. بعد هزتين، فُتِحَ
الباب ببطء: دخل نادر ومبرورة وفخري ببطء. وقَطَّبَ الثلاثة
حواجبهم، وعبسوا وجوههم كما لو كانوا يغلقون أعينهم من
شدة الإضاءة، وساروا إلى منتصف القاعة بجدية تشبه الإهانة،
دون أن يروا أن هناك حاجة إلى الابتسام في وجه كل هذا التجمع
المبهج. نشر نادر نظرتة الشجاعة والعميقة على وجوه الجميع،
ووضع كلتا يديه على الطاولة وخلع قفازاته. كانت مبرورة
تتطلع إلى الأمام، وحقق فخري في الفضاء، واستقبل الثلاثة
الجميع بإيماءة قصيرة برؤوسهم.

قال بهيج، وهو يتكىء على البيانو، الكلمة الأولى، ويدها في جيبي بنطاله، ورأسه منحني إلى صدره، وعيناه اللامعتان الفضوليتان تنظران من الأسفل إلى الأعلى:

- سيد نادر، من أين يأتي؟ أي رسمية هذه؟

لم يجب نادر عن هذا السؤال إجابة مباشرة، وأعطى مقعدين لكل من مبرورة وفخري المترددين، وظل واقفاً ونظر مرة أخرى إلى وجوه أولئك الذين كانوا ينتظرون التفسير بفضول مزعج بلا شك، وابتسم قليلاً، وبدأ بـ "ساحونا":

- ساحونا، علينا أن نذهب. فقد أتينا نحن الثلاثة إلى هنا لإخباركم أننا أردنا إبقاء مبرورة هانم في إسطنبول. بداية أود أن أعرفكم بالسيد فخري الذي لطالما تحدثت عنه.

نهض فخري وألقى تحية عامة وبسيطة للجميع، وجلس مكانه، بتواضع أولئك الذين يثقون أنهم غير محبوبين في مثل هذه المجالس، وبقي ساكناً، وشعر أن كل النظرات متجهة إليه، فاحمر خجلاً.

رأى نادر أن السيدة نظمية التي كانت تجلس أمامه مباشرة، كانت تنظر إليه على نحو مستقيم ومتشبت باستمرار، ويبدو أنها تطلب تفسيراً سريعاً، فأسرع:

- ربما سأكون شخصاً سخيّاً بما يكفي لإفساد هذه
الفرحة. مرة أخرى، ساحبوني. سأخبركم ببعض الأمور المثيرة.
أعتقد أننا مهتمون دائماً بهذه الأخبار.

بينما تغادر سيرات، التي لم تُزل بعد منديل اللعبة من حول
رقبتها، مقعد الزاوية وتسير نحو بهيج، أكمل نادر:

- لقد أصيب صالح بالجنون أمس، في الساعة الثالثة،
واليوم في الوقت نفسه انتحرت أخته بيلما.

فنهض كل من كان جالساً، وأدركت نظمية هانم وابنتها
على الفور أن نادر كان جاداً من ارتعاش صوته وصرخوا:

- هل توفيت؟

نظر نادر إلى بهيج الذي لم يغير وضعيته قط، وأجاب:

- توفيت، وستقام جنازتها غداً صباحاً.

فتدفقت عليه أسئلة كثير من حوله: "كيف؟ وبأي
طريقة؟"، "أي نوع من الانتحار؟"، وأحرقت العيون بفضول
شرس، واصطف الحشد بكامله حول الطاولة مثل الصحفيين
الذين يريدون سماع أهم خبر في اليوم من مسؤول كبير.

- كيف؟ احكِ يا سيد نادر، الأمر مهم..

لكن بهيج لم يتحرك من مكانه، وإذا لم يُنتَبِه للتجاعيد التي تجمعت تحت عينيه، فقد بدا هادئًا جدًا وغير مبالي. نظر نادر إلى بهيج بوضوح مرة أخرى، ثم أوضح:

كانت مريضة بشدة، وأرادت أن تلتقي بمبرورة هانم بمفردها، وساءت حالتها بسماع خبر جنون صالح أيضًا. أرسلت لي خبرًا هذا الصباح، وبمصادفة سعيدة وجدت مبرورة هانم في إدارة المهاجرين، وذهبنا معًا إلى حي جراح باشا. وقد أبعدت المريضة والدتها وشقيقها عن المنزل، وجلستُ أنا في غرفة الطعام بالطابق السفلي وتركت السيدة مبرورة وحدها معها، ثم...

شرح نادر طريقة الانتحار باختصار، فأمسكت نيفين بذراع الشاب، وأخذت تصرخ وهي ترتعش:

- الأمر مخيف.. مخيف.. مخيف جدًا!

حارت السيدة نظمية فيما عليها أن تقوله، وكانت تنظر إلى وجه نادر. أما سيرات فكانت بحاجة حقًا إلى معرفة رأي بهيج، وكانت تنظر إليه بتركيز، وتتبه إلى أقل حركة في وجهه. لقد أصبح هذا الفضول عامًا. ونظر الجميع إلى بهيج، الذي كان يقف ساكنًا وهادئًا أمام البيانو، واستمعوا إلى رأيه.

استقام بهيج، ورفع رأسه، وخطا خطوتين نحو نادر وهو يخرج يديه من جيبي بنطاله ويفركهما، وقال:

- إنها قضية شرطة بسيطة.

رد نادر على الفور:

- نعم، إنها قضية شرطة، لقد اكتشفتهاجيداً يا سيد بهيج؛ لأن بيلا لديها رسالة موجهة إلى الشرطة.

- كيف هذا؟

- الرسالة هي اعتراف بخطيئة عظيمة ارتكبت في منتصف الليل في بستان مهجور على مضيق البوسفور.

لم ينطق بهيج ببنت كلمة، وظهر على فمه عاطفة غريبة، وعلى ذقنه حركة عصبية قاسية. تحول وجهه على الفور إلى اللون الأحمر، وارتعشت جفونه، ولم يتمكن من النظر إلى نادر أو إلى الأشخاص من حوله، ولم يتمكن من النطق بالكلمات، وفقد قدرته على أقل حركة. وعندما حرك عينيه قليلاً إلى الجانب، رأى مبرورة تنظر إليه بحدة وشراسة واهتمام عنيد، فدهش تماماً. ورأى نادر أنه من غير الضروري البقاء فترة أطول، فأشار على الفور إلى مبرورة وفخري، وطلب الإذن من الموجودين، فانحنى تلك الرؤوس ذات الوجه الباهت بلطف بارد ومنحته

الإذن، وشعرت السيدة نظمية فجأة أنها لا بد أن تركض خلف نادر، وقالت له:

- لقد كنت مستعجلاً يا سيد نادر، ابقَ قليلاً..

فَسَمِعَ صوت بهيج وهو يقول:

دعيه يا أمي، هنا ليست محكمة جنابات، وليست هناك حاجة إلى حمام.

فأطلقت سيرات، التي أرادت مساعدة صديقها، ونيفين، التي كانت شديدة الانفعال، وجوزيدة، التي كانت تتصرف دائماً معه كما لو كان زوجها المستقبلي، ضحكات خلف أولئك الذين ذهبوا. وبعد أن أغلقت نظمية هانم باب غرفة المعيشة قالت بقلق عميق:

- لا تضحكوا، فقد أحزنني هذا الخبر، وشعرت بصدمة كبيرة، فضحك بهيج مرة أخرى، وقال:

- وهذا ما كان سيحدث لها على أي حال. كان أسلوب بيلما يخبرني أنها تريد أن تموت. رحمها الله، لم تكن فتاة سيئة، لكن ماذا كانت ستفعل بالعيش في حي جراح باشا؟ لقد كانت فتاة عاقلة، وأحسنَت صنْعاً، وأنا سعيد بذلك، واستدار إلى سيرات وقال لها:

- الدور عليك، اقتربي لأعصب لك عينيك، لا يمكنك أن تفلتي من اللعبة بسهولة.

لكنها أفلتت منها، فلم يعد أحد يريد اللعب. وبالطبع، بدأ حديث عن صالح ويلى، واستمر حتى منتصف الليل. حاول الجميع، باستثناء نظام الدين بيك وريفيا، إظهار أن هذا الانتحار بسيط، وغير مهم. وفي تلك الليلة، لم يستطع بهيج النوم حتى الصباح، واستهلك بضع علب سجائر بمفرده في غرفته، لكنه غفا قليلاً عند الفجر، ورأى في حلمه ممرات محكمة الجنايات المعتمدة.

استضاف نادر مبرورة وفخري في منزله تلك الليلة. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وصلوا إلى حي شاهزاده باش، جلس ثلاثتهم في غرفة نادر حتى الرابعة صباحاً. وسأل فخري، نادر:

- هل كانت تلك المرأة ذات الرداء الأسود التي تجلس على الأريكة الوسطى، السيدة نظمية؟
- أجل.

- والمرأة التي بجانبها؟

- ناجية، والددة جوزيدة.
- الفتاة الوضيعة؟ من كانت تمسكك من ذراعك؟
- نيفين.
- هذا ما ختمته. وكان بهيج متكئاً على البيانو، وسيرات بجانبه، أليس كذلك؟
- بلى.

كان فخري يفكر في أهل القصر، واحداً تلو الآخر، الذين سمع عنهم من نادر مرات كثيرة، وهو يعرض على شفته السفلية، ويهز رأسه، وينظر إلى مبرور بطرف عينه:

- هذه عائلة سيئة، سيئة، أيها الأصدقاء، إنها أسوأ مما توقعت، عائلة وضيعة جداً، بائسة جداً.. وخاصةً بهيج، وخاصةً بهيج؟ هو..

وتوقف للحظة للبحث عن كلمة مناسبة له:

- ماذا أقول؟ سفاح القاعة رجل مغرور، مدلل، دنيء، وقح.. آه، آه يا أستاذ نادر، عندما كنا مغادرين كانوا يضحكون خلفنا. ماذا يمكنني أن أقول! لا أستطيع أن أعبر عن غضبي وسخطي.. كنت أود أن ألتفت وأدخل القاعة، وأصرخ في وجه كل منهم، قائلاً: "أنتم لستم مني، أنتم لستم من المجتمع

التركي والمسلم، لقد دخلتم هذا البلد مثل الثعابين العمياء التي لا تظهر آثارها، أنتم لستم منا، أنتم لستم من أي أمة، لقد دمرتم الفتاة البريئة الموجودة وسطكم، جوزيدة، وقتلتم بيلما، ودفعتم صالح إلى الجنون، حتى صالح الذي اعتاد الخسة بما يكفي لتحمل كل شر صار عارًا عليكم، حتى ذلك الرجل الشرقي المتسكع المتدني أشرف منكم، لقد فقد عقله، لكنه لم يفقد كرامته الأخيرة.. أما أنتم..

والتفت إلى نادر بغضب:

- آه، سيد نادر، يمكنهم أن يتسموا حتى في جنازة المسكينة التي قتلوها، هذا الموت.. فهل هناك شيء أسوأ من هذا؟ بيلما ماتت اليوم يا أصدقاء! والآن، في جراح باشا، ترقد في تلك الغرفة ذات السقف المنخفض الملتوي، تحت الضوء الباهت لمصباح إداري. تخيلوا أن بيلما لن تستيقظ صباح الغد، ولن ترى الشمس، ولن تسمع صوت بائع الحليب أو الصحفي. سيد نادر، مبرورة هانم، فكّر في الأمر، هذه الفتاة فتحت عينيها هذا الصباح، استيقظت، تحركت، تحدثت إلى مَنْ حولها، عبرت عن أفكارها ورغباتها، كانت على قيد الحياة هذا الصباح، كانت تتنفس، تنظر، ترى، تسمع، تشعر وتفهم مثل كل الكائنات الحية. كانت تتحرك مثل كل الكائنات الحية.

أما الآن، بعد ساعات قليلة فقط، فهي متصلبة.. الآن لا ترى، لا تفهم، لا تنطق.. مسكينة.. ما هذا التناقض؟ يا سيد نادر، يا مبرورة هانم، قولاً رأيكما.

ولما رأى الآخرين صامتين، اشتعلت فيه النيران:

- هل نحن مخدوعون يا عزيزي؟ هل نحن أغبياء لتفكيرنا هكذا؟ هل الفضيلة حقاً شيء ميت لا حياة فيه؟ ما هذا يا سيد نادر، مبرورة هانم؟ القاتل الذي قتل طفلة وعشيقته، وما زال يلهو ويلعب، يضحك منا ويهيننا بمداهمة جنازة شابة؛ إنه يحتقرنا ويهيننا، إذ ينفخ في وجوهنا أنفاسه الزهرية التي تفوح منها رائحة الخمر، ثم يحظى بالاحترام في الدوائر العليا، ويمكنه خداع حتى النساء والفتيات الأكثر استنارة، ويلعب بكرامة إحداهن، ودماء الأخرى، وهو لا يزال تحت الأضواء، ولا يزال مبتسماً، ولا يزال سعيداً، ولا يزال...

نظر حوله، ونظر إلى نادر ليذكره بإحدى الكلمات الرائعة التي يمكن أن تعبر عن حماسته، وعندما رأى أن صديقه يستمع دائماً، لم يستطع الاستمرار، ارتجف كما لو كان مسدوداً، وصمت.

كان نادر هادئاً، وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة تحت عينيه. واستمع بهدوء رجل متمرس يعرف جيداً كل أسباب ونتائج

هذه الأحداث التي أثارها فخري، ولم يتحرك، وكان يريد أن يقول: "هذا يحدث، وسيحدث، ما دمنا على قيد الحياة" ..

لم تكن مبرورة بطبيعتها؛ فكل كلمة قالها فخري كانت تجعل الفتاة ترتعد، وتستعد لتمرّد رهيب على من قضوا على بيلما. كلاهما كان يفكر في الشيء نفسه. لقد أرادا الشيء نفسه، وإذا كانت لديهما قوة مشتركة فسيستخدماها بالطريقة نفسها. يا إلهي! ولكن ماذا يمكنهما أن يفعلا؟ نظر كلاهما إلى وجه نادر وانتظرا رأيه.

قال نادر: صدقت يا فخري، الأمر هكذا، وأنا أعرفه منذ زمن طويل. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ الكلام فقط! وعندما نقول ذلك، نتهم دائماً بأننا واعظون، ونعدّ متعجرفين، لكن الآن، الحقائق تتحدث وتقول إن انتحار بيلما خدّمنا جميعاً، خدم الأمة جميعها؛ لأنها أولاً عاقبت نفسها، ثم أعطت درساً لكل من يريد أن يعيش مثلها، فقد أظهرت أعظم سعادة يمكن أن تصل إليها الفتاة، وقالت لهن: ماذا تردن؟ ألم تكن هذه السعادة هي الموت مقارنة بأحزان الحياة بلا كرامة ولا رحمة؟ وأخيراً، كشفت لنا بهيج، وكان هذا هدفها الأكبر، فقد أرادت أن تفشي العار الذي تغطيه الأزياء الزائفة، وقد نجحت. من الآن فصاعداً، حتى أولئك الذين لديهم أدنى شك، سوف

يعرفون بهيج، وسيعرفونه أيضاً من خلال الصحف. عندما تقرأ الشرطة رسالة بيلما، ستتخذ الإجراءات اللازمة وتعتقل بهيج، وتجري تحقيقاً في فانيكوي. هناك شرح ممتاز في الرسالة، حتى أسماء وعناوين القابلة والطبيب مكتوبة، فهو قتل مباشر! سألت مبرورة:

- هل سيعتقلون بهيج؟

- هل هناك أي شك؟ هذا هو أول شيء يجب فعله. لقد التقيت بالمساعد في المديرية في وقت متأخر من اليوم. وكما قلت لكم، إنهم أعطوا أهمية كبيرة لهذا الأمر. وأنتم تعلمون أن الشرطة لا تعمل هذه الأيام، يبحثون عن أمر كبير، وغداً ستُعلن هذه الحادثة في الصحف، مع كثير من الإضافات والمبالغات التي حتى نحن لا نستطيع فهمها.

شردت مبرورة، وقفز فخري وصفق بيديه:

- آه، أود أن أرى هذا المنظر. أتخيل بهيج يمشي بين اثنين من رجال الدرك بالحرايب، ويجني رقبتة؛ قلبي يشتاق إلى العدالة، يا سيد نادر.

- لا داعي لهذا المستوى من الكراهية، لقد انتهت كل شيء. واجبنا الآن هو أن نفكر في هذه الأحداث بهدوء. غداً،

بعد أن نوصل بيلما إلى الشقة ذات الأرضية المغطاة بالباركيه في حي أدرنة قاي نفكر في هذا الأمر بهدوء. وإذا قُبِضَ على بهيج، فسيكون رجلاً أنهى تاريخ حياته، ولا يستحق إعطاء أهمية لهذا.

- وماذا عن عائلته؟ السيدة نظمية، ونيفين؟

بعد هذا العار سيفقدون كل نفوذهم، ولن يتمكنوا من العيش في البيئة. أود أن أوصيهم باستئجار منزل في جراح باشا. ضحكوا.

كانت مبرورة شاردة الذهن، وكان رأسها مائلاً نحو صدرها، وتتنفس بشكل متواصل، ويمكن سماع خفقان قلبها. انتبه الرجلان للفتاة وتبادلا النظرات، فانتفضت مبرورة وعادت إلى رشدها. قالت إنها كانت تفكر في بيلما. منذ تلك الساعة الرهيبة، لم تستطع إنقاذ نفسها من شرود الذهن، ومن وقت إلى آخر، تنسى كل ما يحيط بها، وتفكر دائماً في تلك الغرفة في جراح باشا وتتخيل جميع حركات المريضة وكلماتها وتشنجاتها، ولن تنسى هذا أبداً طول حياتها.

وعندما ذكر اسم إسطنبول، كانت تتذكر الفرق بين المنزل في شيشلي والمنزل في جراح باشا، والتأثير المشؤوم لواحد منهما

على الآخر. كانت الفتاة تصف بيلما، في أجزاء كثيرة، بجمل مؤثرة متقطعة، غير مترابطة، ومدهشة، لكنها لم تفقد قوتها قط:

- كانت تقفز على السرير وتبكي بشكل متشنج.. وتحكي عما حدث في ليلة فانيكوي وهي تفتح عينيها الحماوين، وترفع حاجبيها، وتحلل علاقتها بيهيج وخطاياها معه، كان عليكم أن تروا ذلك. أنتم لا تعرفون ما الذي مررت به حتى أتوقف عن البكاء، لكنها شعرت بمعاناتي جيداً، ثم سكبت السُّم في الكأس، وشربته بشهوة ولذة مثل الجرعة. أوه.. هل كنت أعلم، هل كنت أعلم، هل كنت أعلم أنها ستفعل هذا الشيء الفظيع أمام عيني؟ وإلا لقتلني الندم أيضاً.

ثم أضافت كأنها تقول شيئاً خاصاً:

- أعترف أن تلك الفتاة، تلك الفتاة المسكينة، بيلما، أنقذتني، وإلا فقد كنت سأخدع لا محالة عن عمد، ففي القصر، صُور قرار زواجي بيهيج على أنه أمر واقع. لو مرت بضعة أيام أخرى، بضعة أيام أخرى، لأصبحت فتاة منتهية.

- آه، يا مبرورة هانم، أنذكر اليوم الذي تركتني فيه وحدي في غرفتي وخرجت.

- اصمت! أرجو منك أن تسامحني، لقد كنت قاسية عليك في ذلك اليوم، أعلم، أعلم، أن لديك الحق.

- لا، بالعكس، كنت لطيفة جدًا كالعادة، لكنك كنت مخدوعة، ولم يمكنك التنبؤ بالكارثة التي ستعرضين لها، وقد فكرت في الأمر كثيرًا ذلك اليوم، ووجدت نفسي مستعدًا للتضحية، مثل بيلما، لأقول لك الحقيقة، لكنني لم أكن ناجحًا مثلها.

- لا تقل ذلك، فأنا لم أشعر بأي شيء تجاه من في القصر، وإذا اضطررت إلى ذلك، فقد كان بسبب والدي فقط؛ فقد كنت مضطرة إلى ذلك كي أذهب إلى الأناضول فحسب، لكن لم تكن لدي أي رغبة في بهيج.

صمتت مبرورة، فقد غيرت الحقيقة قليلاً دون أن تدرك ذلك، فقد كانت بحاجة إلى التصريح بأنها ليست ضعيفة أمام بهيج. وبدافع من هذه الحاجة، تذكرت قصة بيلما المخيفة، وتحدثت ضد بهيج، موضحة أنها وجدت صعوبة في قبول الصداقة البسيطة لهذا الرجل، الذي لم تحبه قط منذ اليوم الذي رآته فيه لأول مرة، وأنها لم تجد حيلة غير هذه للإقامة في هذا القصر. وقالت إنها إذا اضطرت إلى الزواج ببهيج، فإنها ستعتبر ذلك "أعظم تضحية على الإطلاق من أجل العيش"، فقال نادر:

- تضحية كلمة خفيفة.

فأضاف فخري:

- قولي بلاء، مبرورة هانم، بلاء.

- قد تكون تضحية، وقد يكون بلاء، وربما يكون موتاً،
أيّ ما كان، الحمد لله أنني ابتعدت عن ذلك الخطر اليوم. لكنني
لست في وضع يسمح لي بالتفكير في نفسي، ماذا سأفعل؟ إذا لم
أذهب إلى القصر بعد الآن، أين يمكنني الاحتماء؟ فهل تؤويني
إدارة المهاجرين؟ كيف يمكن أن تؤويني من بين مئات وآلاف
البائسين؟

وأجاب نادر على الفور كما لو كانت هذه الأسئلة قد
طرحت عليه:

- لا، لا تفكري في الأمر بعد الآن، لديك مكانة كبيرة أكثر
من الأخت، هنا في منزلي، لأنه لو كان لديّ أخت، لم أكن آمل
أن تكون لها مكانة عندي مثلك. والدتي توافقني أيضاً في ذلك.
التضحية الوحيدة عليك، وهي أن تقبلي العيش في هذا المنزل
المتدهور مؤقتاً، وأن تتحملي مرافقتنا التي لا معنى لها، والباقي
سيكون سهلاً، والوقت مبدع، وستأتي أخبار من والدك، أو
سنجد لك وظيفة مدرسة، أو... فنظر إلى فخري وقال:

- "أو أن دخل هذا الشاب سيزيد"، وقد أحسوا بالمعنى الخفي لكلمة "أو"، واحمر وجه فخري خجلاً.

فشكرته مبرورة وقالت:

- أعرف مدى جودكم، ولكن العيش في إسطنبول يعذبني، وسأذهب إلى الأناضول في جميع الأحوال، فقد تحسنت الإدارة في مانيسا، وربما سأحصل على حقوقي الضائعة.

-

- لا أمل ذلك. فلا تنسوا الإدارة اليونانية، هم لن يفعلوا شيئاً سوى الضغط عليكم أكثر قليلاً.

لم ترد مبرورة.

لقد تأخر الوقت، وأخذ نادر الفتاة إلى غرفة والدتها، وأراها سريرها المجهز، وسينام نادر وفخري في غرفة واحدة، وحمل الرجال أسرة من غرف أخرى، وهو عمل يتم القيام به بكل سرور في ليالي الصحبة الصادقة، وهو أقل تعباً لشاب في هذا العمر. وعندما ذهب فخري إلى السرير، قال "آه..":

- سيد نادر، ماذا سنفعل يا عزيزي؟ هذه الفتاة بدأت تستقر بداخلي. ما زلت أشعر بصوتها في أذني، أقسم أن هذا الصوت لا يفارقني، حتى لو كان همساً، ولا أستطيع أن أنسى عينيها بشكل

خاص، فأنا أعجب بكثير من النساء في الطريق لأنهن يشبهننا؛ فمن يشبهها يصبح أقرب إلى الفضيلة والجمال والأنوثة نفسها. هذا شعور ثابت لا يتغير، ويزداد يوماً بعد يوم، هذا الشعور الذي معه أفهم كل الحياة والكتب، وأشعر أنني أشبه معظم أبطال الروايات. ما رأيك سيد نادر؟ هذا هو الحب، أليس كذلك؟ فضحك نادر وقال:

- يقول لاروشفوكو: "لا يوجد إلا نوع واحد من الحب، لكن توجد منه ألف نسخة مختلفة"، وأتساءل أي واحد منها لديك؟
- إنه.. لا شك أنه الأول.

- كن حذرًا، لاروشفوكو هو أفضل رجل يعرف الفرق بين الأوهام والحقائق، فمعظم حالات الحب تختفي وتزول أسرع من الوهم الناتج بالقوة.

فكر فخري ودافع عن نفسه حتى لا يُدان بإحدى فلسفات نادر الساخرة:

- أعرف الفرق بين الحب الحقيقي والزائف بقدر ما يعرفه لاروشفوكو يا سيد نادر! لأن الفرق بيننا ثلاثة قرون، وقد عرف كل شاب هذا. لكن هل تعرف ما الذي أخشاه؟ الشعور بالغيرة دون الرغبة في ذلك على الإطلاق.

فضحك نادر مرة ثانية وقال:

- إذا كنت تريد ضماناً مني فكن مطمئناً! أعدك أنني لن أكون مثل بهيج، ولن تبقى مبرورة في هذا المنزل فترة طويلة على أي حال، هذا ما أشعر به.

- لقد أدركت ظنونك السيئة يا سيد نادر. دعنا لا نتحدث بهذه الطريقة يا عزيزي، لأنني لا أريد أن أقول هذا، فقد كان هدفي مختلفاً، هدفي هو..

توقف مؤقتاً، ولم يتبادر إلى ذهنه أي من الأهداف. وعندما أدرك نادر ذلك، ضحك مرة أخرى وقال:

- الآن، أدركت أنك وقعت في الحب الحقيقي، وليس الحب الذي هو واحد من آلاف النسخ، وأذن لك بالحب بقدر ما تريد، أحب في كل الأحوال، وسنجد حلاً له.

وبدأ يضحك بصوت عالٍ، مستنزفاً كل العصبية التي تراكمت عليه في ذلك اليوم، وأطفأ المصباح الموجود عند طرف السرير، وسحب اللحاف فوق رأسه، وما زال يضحك ويفكر: "كم يمر كل شيء بسرعة! أصبحت بيلما الآن شيئاً من الماضي، انتهت حياة روح في جراح باشا. وهنا في بيتي تبدأ حياة أشخاص آخرين؛ مبرورة وفخري.. مبرورة وفخري، دعونا

نحذف حرف الـ "و"، مبرورة فخري! هذا ختم، أو بطاقة، أو توقيع. مبرورة فخري، مسألة تستحق النظر...".

استيقظت مبرورة في وقت متأخر من الصباح، وخيرية هانم تقف بجانب سريرها، وتقول لها:

- أنت متعبة، نامي أكثر يا بنتي وارتاحي.

فقفزت الفتاة عندما علمت أن الوقت قد اقترب من الظهر.

- هل غادر السيد نادر وفخري؟

- بالفعل يا فتاة، لقد غادرا في الصباح الباكر.

ارتعش صوتها قليلاً.

- ذهباً إلى حي جراح باشا؛ لصلاة الجنازة كما تعلمين.

- حقاً.. نعم..

عندما وصلا إلى غرفة المعيشة، نظرت السيدة خيرية في عيني الفتاة الصغيرة وأرادت أن تعرف بفضول حزين ما حدث.

- ماذا حدث أمس يا عزيزتي، ما الأشياء المروعة التي

حدثت؟ لقد نمت مبكراً أمس، ولم أتمكن من رؤيتك، وقد صُدمت مما حدث، مسكينة خديجة.. مسكينة خديجة..

غادرت عيناها عيني مبرورة وحدثت في الشواية وإبريق الشاي على جانبها، وظلت عيناها عليهما:

- فتاة مسكينة. وقلت لنادر هذه الفتاة فتاة تركية، تبدو وكأنها شابة طيبة القلب، وأنا دهشة كيف يمكنها أن تصبح صديقة للأشخاص الموجودين في القصر. خديجة المسكينة، ما الذي حدث للفتاة؟ آه، كم من أشياء تحدث في العالم! لكن مستحيل ألا نفاجأ. غريب، غريب جداً، أعتقد أن خديجة مخطئة، ولكن بهيج، أليس بهيج مذنباً؟ يجب القبض عليه ومعاقبته! خديجة قتلت نفسها، نعم، لكنها اتخذت موقفاً، اتخذت موقفاً كبيراً وكشفت حقيقة بهيج.

كانت مبرورة شاردة الذهن، وصوت ييلما يرن في أذنها دائماً، وتتذكر صراخها، ثم فكرت في صالح:

- ماذا يفعل صالح؟

هزت السيدة خيرية ذقن مبرورة بيدها مرتين وحركت رأسها:

- اصمتي، يا بنتي، اصمتي، سيصاب بالجنون التام إذا وصل إليه الخبر، ليت لا يعلم. اصمتي، أنا أحزن لسباع ذلك. وبعد التوقف فترة من الوقت، قالت:

- لقد أخطأ هو أيضاً، لقد أخطأ هو أيضاً. لا أدري ماذا حدث لشباب هذا الزمان. إنه جنون، جنون، رعونة، أنا

مندهشة؛ هم لا يحبون أحياءهم، ولا بيوتهم، ويريدون تغيير حياتهم. انظري، حتى خديجة بنت الأستاذ مصطفى أفندي أرادت أن تصبح ممثلة. أنا لست امرأة متعصبة، ولا أعترض على أن تصبح الفتيات الصغيرات موظفات حكوميات، أو معلمات، أو بائعات في المتاجر، ولا أغضب من ذهابهن إلى المسرح، أو إلى المقاهي الموسيقية، لكنني لا أستطيع أن أتخيل أن يصبحن ممثلات، لا أعتقد أنها تناسب فتاة مسلمة، ليس عيباً ما أقوله، فالممثلون أناس خسيسون مهما قال أحد. فهل رأيت من قبل شاباً نبيلاً من الطبقة العليا يصبح ممثلاً؟ مستحيل، ليس هناك نموذج على ذلك. قلت لخديجة هذه الأشياء، لكنها لم تسمع لي. ونادر كان يعرف كيف يتعامل مع خديجة أكثر من صالح، ويجعلها تفعل ما يقوله، لكنها مع ذلك لم تستمع إليه.

وظلت خيرية هانم تقول:

- خديجة المسكينة، مهما كان الأمر، أشعر بالأسف عليها. لم تكن حتى في الخامسة والعشرين من عمرها، كانت جميلة نضرة. لو لم ترسم وجهها بهذه الغرابة لظلت جميلة نضرة، يا له من أمر مؤسف، آه.. آه، يا له من أمر مؤسف.

ثم عادت إلى مبرورة:

- ما أخبار إدارة المهاجرين يا بنيتي؟

- لم أتلّق أي خبر بعد يا سيدي. سأذهب وأسأل اليوم.
ليس هناك وقت، أريد أن أذهب فوراً.

بعدها تناولت مبرورة الإفطار ارتدت ملابسها وخرجت
من المنزل.

- ها.. ها.. لقد أتيت في الوقت المناسب يا هانم، لقد صعد للتو، اركضي والحقي به قبل أن يدخل مكتبه، هوفي البهو الآن.

ركضت مبرورة، وعندما وصلت إلى مكتب المدير العام،
رأت أحد موظفي المكتب عند الباب وتعرفت إليه، وأبدى
الموظف اهتمامًا حيويًا فور أن رأى الفتاة الصغيرة:

- أوو! هل أنتِ يا سيدي، أنا سعيد لأنك أتيت. السيد المدير بالداخل.

- أدخل؟

- سنعطيه خبراً أولاً.

دخل الموظف، وخرج:

- انتظري قليلاً.

دخلت الفتاة مع الموظف غرفة الانتظار وجلست على أحد المقاعد.

فنظر الموظفون بعضهم إلى بعض، وأخذوا يشيرون إلى مبرورة ويتحدثون بصوت خافت، وسأل أحدهم الفتاة:

- هل ستلتقين بالسيد المدير؟

- نعم.

- السيد المدير بالداخل، تفضلي..

- طلب أن أنتظر قليلاً. أنتم لا تعلمون شيئاً عن والدي

حتى الآن؟

ضحك الموظفون مجدداً وتبادلوا النظرات، وفي أعينهم سخرية؛ فارتعشت الفتاة، ورد أحدهم:

- علمنا.

فأطلقت مبرورة صرخة خفيفة وقالت:

- ماذا؟
- لا يمكنني قول ماذا حدث، سيشرح لك السيد المدير كل شيء.
- هل هناك مانع من قول أي شيء؟
- غالبًا هناك مانع. لكن المدير العام يتابع هذه المسألة بنفسه، ولا يريد تدخلنا في الأمر.
- لماذا لا يريد ذلك؟ هل يمكن أن تكون المعاملات الرسمية سرية؟
- لا، هذا ليس سرًا، الأمر بسيط جدًا. سنخبرك أيضًا، لكنك ستعرفين كل شيء من المدير نفسه خلال دقيقة واحدة.
- هل تعرفون كم هي الدقيقة الواحدة طويلة؟
- دخل العامل:
- من مبرورة هانم؟ السيد المدير يريدك.
- قالت مبرورة: "هاه"، ونهضت ومشت خلف العامل، وانتظرت في الدهليز بعض الوقت.
- كان قلبها ينبض بشدة، وشعرت أن سقف هذا الممر سينهار على رأسها، أو أنها ستفقد الوعي من شدة الفرح، وشعرت

بإثارة شديدة مثل التي يشعر بها أخطر السجناء قبل دقائق قليلة من سماع قرار المحكمة، أو الخوف الذي يشعر به من يشتهه في مرض خطير قبل تسلّم تقرير فحص الدم، أو ارتباك طفل المدرسة الكسول، في نهاية العام الدراسي، قبل دقائق قليلة من تسلّم كشف الدرجات، أو التوتر الذي يشعر به الأشخاص المتقدمون للقرعة في باحة الثكنات في أثناء إعلان أسمائهم. وأخيراً، إثارة العاشق الذي يرى العبّارة تقترب من رصيف الميناء في أثناء انتظاره الحبيب الذي من المتوقع أن يأتي من مكان بعيد. ثلاث أو أربع دقائق فقط، لكنها يمكن أن تسبب في إصابة الشخص بمرض القلب.

قُرْعُ الجرس.

دخلت مبرورة الغرفة الكبيرة شبه المظلمة من الباب الذي فتحه العامل بإدارة المقبض، وفجأة فقدت القدرة على الرؤية، وبدأ الأثاث والمقاعد ومكتب المدير تتضح أمامها ببطء، وأصابته وجهها حرارة داكنة من الموقد الكبير.

كان المدير العام واقفاً بجسده المنتصب، وظله الأسود ظاهر أمام النافذة، وكان ينتبه لحركات الفتاة الصغيرة، وأشار إلى أحد المقاعد، وقال بجديّة شديدة:

"اجلسي يا مبرورة هانم".

شحب وجهها وهي تجلس على المقعد، فلم تعجبها جدية المدير؛ حيث ظهر عليه تردد وحذر أولئك الذين يريدون نقل أخبار سيئة.

خفض المدير العام صوته ليبدو عطوفاً وصادقاً، ونظر إلى وجه مبرورة:

- هناك سبب وراء رغبتني في رؤيتك على انفراد. قبل أن أطلعك على أخبار والدك، لدي بعض الأشياء لأخبرك بها.

رفعت الفتاة عينيها وهي ترتجف، فقد أثارت نظرات الشخص الآخر التي بدت فيها الشفقة والصدق والمواساة، وهذه الكلمات الأولى، شكاً رهيباً لديها، واستمعت إليه دون القدرة على التقاط أنفاسها.

- مبرورة هانم، كل المهاجرين ودائع عندنا، وإنه لمن دواعي سرورنا وواجبنا أن نعتبر أنفسنا حماة لكم جميعاً. ولا يمكننا استبعادك من هذا الاعتبار، ونعتبر أيضاً حماتك هنا، ولا أعلم إذا كنت تقبلين وجهة نظرنا هذه أم لا؟

أجابت الفتاة بصوت متلعثم، وقد أصبح صوتها أرق من الإثارة:

- أنت تخيفني يا سيدي، هل هناك خبر جلل؟

- لا. انظري.. فيمَ كنت تفكرين؟! لا لا، دعينا نخبرك بالخبر السار أولاً: والدك حي، وتحدثنا إليه.

قفزت مبرورة من المقعد، ومدت ذراعيها إلى الأمام، وخطت خطوة نحو المدير العام، وقبضت على يديه، ورفعت كتفيها، وفتحت عينيها وصرخت:

- حقاً؟ هل حقاً ما تقوله؟

دهش المدير العام وتراجع قليلاً إلى الوراء، وهز ساعته وضحك:

- ما هذه الدهشة؟ ألم تعلمي؟

- لا!

- ألم يخبرك الموظفون؟

- لا، لقد أخبروني أنني بحاجة إلى مقابلتك، وأنهم لا يملكون صلاحية نقل هذا الخبر بأنفسهم.

ضحك المدير العام مرة أخرى:

- إنه شيء غريب. هذه عقلية الموظف الحكومي، لقد قلت: "لدي شيء خاص لأقوله لمبرورة هانم، دعوها تأتي إلي"، ولم أمنعهم من إخبارك بهذه البشري.

تقف الفتاة الصغيرة، مذهولة، بلا حراك، مثل أولئك الذين لا يؤمنون بكل سعادة عظيمة، وذراعاها لا تزالان متدليتين في الفراغ، وقبضتاها محكمتان، وكتفها مرفوعتان، وعيناها مفتوحتان وفمها كذلك. وتقول "شيء غريب" وهي تنظر حولها كأنها تبحث عن رفيق لفرحتها، وكانت تقول بصوت عالٍ لم تقدر على فهمه:

- يا إلهي! والدي حي، هل يمكن أن يُخفى هذا الخبر السار؟ آه، كم فاجأني.

وناشدت المدير العام المبتسم بشدة:

- عزيزي، أخبرني أين هو الآن، سأجن، يمكن أن يحدث لي شيء سيئ، أخبرني..

وبدأت تهتز وترتعش مكانها، وشحب وجهها الذي احمر عندما سمعت الخبر، فأجلسها المدير العام على المقعد بيدها، وخوفًا من احتمال أي رد فعل لها قال:

- لا، لا داعي لكل هذه الفرحة. انتظري لحظة، هل انتهيت مما قلته! اصبري قليلاً..

لم تكن مبرورة تستمع، وضمت ركبتيها معًا وقالت بعينين حالمتين:

- الحمد لله هذا الخبر يكفي؛ فلم يكن مريضاً أو سجيناً.

- لم يكن كذلك.

- هذا يكفي. هل يمكنني رؤيته مرة أخرى؟

- سترينه بلا شك، ولكن..

- متى؟ متى؟ قريباً؟ أخبرني يا عزيزي.

جلس المدير العام إلى مكتبه، وأزاح أكماله البيضاء ذات الأطراف القطنية، وأسند مرفقيه إلى الطاولة، وأحنى رأسه للفتاة الصغيرة:

- اسمعي، ليس هناك عجلة من أمرك، والدك على قيد الحياة، وهو في أماسيا الآن.. لقد جاء من إزمير إلى بورصة، وعلم هناك أنك ذهبت إلى إسطنبول، ولديك قريب هنا في تقسيم، وأرسل الأخبار إلى هناك، ولكنه لم يتلقَ جواباً.

لم تفهم الفتاة، وقالت:

- هل لدينا أقارب في تقسيم؟

- أجل. لقد نسيت مبرورة أن نظمية هانم كانت تعيش في

تقسيم قبل شيشلي، وأنها بحثت عن منزل نافع بك في تقسيم في الليلة التي جاءت فيها لأول مرة من بانديرما، وتذكرت:

- عفواً، فهمت، نعم..

- عندما لم يتمكن من الحصول على إجابة، أراد التحقيق عن طريق أنقرة، فذهب إلى أنقرة، ولم يكن هناك سوى خط تلغراف إزميت، ولم يتمكن من التواصل بسبب سد ثغرة. أخيراً، وقع الإعلان الذي نشرناه في الصحف في يده، وأرسل وصياً هنا خصيصاً لك، ومعه رسالة لي أيضاً. ويقول: "ابنتي أمانة عندك، وأرجو منك إرسالها إلى هنا سالمة".

وجد المدير العام الرسالة في مكتبه دون كثير من البحث، وكشفها للفتاة:

- هذا ما كتبه لي، انظري، هذه الرسالة لك أيضاً.

أمسكت الفتاة بالرسالة، وقرأتها بإثارة عميقة جعلت عينيها تدمعان، وتتنفس بشكل متكرر، ثم قرأتها مرة أخرى، وقربتها من عينيها، وتهجّت كل كلمة على حدة. لم تكن الرسالة طويلة، وكانت مكتوبة بلغة تجارية إلى حد ما:

"ابنتي العزيزة،

"قرأت في الصحف أنك في إسطنبول. لقد جنت من الفرح. هناك أشياء كثيرة مررت بها. سأخبرك عندما تصلين إلى هنا، لأنني اليوم الحمد لله نجوت من الملعونين. الآن سأذهب

إلى أماسيا، سأفتح متجرًا صغيرًا هناك أولاً. تعالي إلى هناك مباشرة وأبلغيني بتحركاتك قبل مجيئك عن طريق البرقية. لقد أرسلت إليك ثلاثمائة ليرة مع الوصي، وهناك إحدى عشرة قطعة ذهبية في النقود. الليرة ستصل إلى ستمئة وثمانين في إسطنبول، ولدينا إحدى عشرة عملة ذهبية تساوي سبعة آلاف وأربعمئة قرش. والباقي نقود ورقية. لا تتفاجئي، لا تتعجلي معرفة متى ستصل العبارة؛ يمكنك البقاء في إسطنبول لمدة خمسة عشر أو عشرين يومًا أخرى؛ فلا أستطيع الوصول إلى أماسيا قبل ذلك الوقت. أبلغني سلامي لمن يعلم بالأمر. لا تقلقي بشأنني، أنا بخير. أقبل عينيك ابنتي العزيزة، مع الدعاء لله عز وجل أن تكوني دائماً في صحة جيدة".

لوم تخجل مبرورة لوضعت الرسالة على شفيتها وقبلتها بقبلات متواصلة، وشعر المدير العام بذلك:

- كما رأيت، الأخبار السارة عظيمة..

- لن أتمكن أبداً من موافاتك حقك يا سيدي.

- وهذا ممكن إلى حد ما. كما ترين، أنا ملزم أخلاقياً ومهنيًا بإبعادك عن هنا بأمان، هذا ما أردت قوله أولاً، تعالي إليّ عندما يتحدد موعد مغادرتك، وسأرسل معك أحد الموظفين الأمناء ليرافقك في أثناء ذهابك إلى الأناضول.

كانت الفتاة تفكر، وأكد المدير العام:

- نحن في فصل الشتاء، وليس من السهل الذهاب إلى أماسيا من هنا، فأنت لا تعرفين الطرق.
- أنت على حق، وفي غاية الكرم، ولكنني أفكر في شيء آخر.

وكان المدير العام يحاول معرفة هذه الفكرة، وينظر بدقة في عيني الفتاة الصغيرة، وقد خمن شيئاً ما، لكنه كان خائفاً من الإحراج الناتج عن الخطأ الذي قد يقع فيه، فسأل بتلميح ضعيف:

- أم أنك لن تذهبي وحدك إلى الأناضول؟ وربما سيرافقك شخص تعرفينه أو أحد أقاربك؟
- ضحكت الفتاة وأحنت رأسها، لكنها لم تجب.

وقف المدير العام وقال:

- حسناً، فكري في الأمر، سألتقي بالسيد نادر، سيأتي الوصي إلى هنا خلال نصف ساعة، انتظري لتحصلي على طردك منه، يمكنك أن تنتظري هنا أو في مكتب الانتظار حسب رغبتك. سأخرج الآن؛ لأن لديّ عملاً يجب القيام به. والآن، أستودعك الله.

حارت الفتاة فيما تفعله لتشكره عما فعله معها، فقالت كلمات الشكر دون تمييز، لكنه أكد لها عند خروجه من المكتب أنه لم يفعل سوى الواجب.

وفجأة تغير كل شيء في عينيها. كان الهواء البارد الذي يضرب وجهها عند خروجها إلى الشارع لطيفًا. أصبحت ترى كل الأشخاص الذين تمر بهم في الطريق طيبين ومحبوبين ومبتسمين. أصبحت جاغال أوغلو المنطقة الأكثر أناقة وبهجة في إسطنبول، وأرادت أن تحتضن القطعة الصفراء التي خرجت من متجر الكولا. وفي طريقها إلى القبر، أعطت كل ما تمتلكه من ثروة، باستثناء أموال والدها، لمتسول عجوز، منحنيًا إلى نصفين على عكازين، ذي وجه أحمر، ولحية بيضاء، وعينين بهما رمص. وعندما ركبت الترام، تذكرت أن الصدقة التي أخرجتها ليست منها، وإنما أخذتها من نيفين. ولكن ماذا يهم؟ فهي لم تعد في وضع يسمح لها بسداد هذا الدين. وقد فكرت في شيء آخر؛ فلم يكن لديها فكرة ثابتة. لقد شعرت بالاندفاع، والتهور، وبسيطرة كثير من الأفكار على ذهنها، وأدركت حينئذ معنى الألم الناتج عن السعادة الغامرة. وكانت تجلس بجانبها امرأة عجوز تنظر إليها بتركيز، وودت لو قالت لها: "ما الأمر

يا فتاة؟ هل فقدت عقلك؟"، أو أن مبرورة شعرت بذلك، وأجابت في ذهنها الجواب التالي: "يا سيدتي، أنا أفقد عقلي؛ لأنني أسعد شخص في العالم، هل تفهمين؟ أسعد شخص"، لكنها لم تنطق بكلمة. وعادت مبرورة إلى رشدتها عندما جاء جامع التذاكر. كيف ستعطي المال الآن؟ لا يوجد لديها فكة، فقد أعطت أموالها للرجل الفقير؛ لذلك عليها أن تفتح الطرد الذي أرسله والده، وهذا أمر يأخذ وقتًا طويلاً، كما أنه أمر خطير. ولكن هناك حل آخر، فقالت لجامع التذاكر:

- فرد واحد متوجه إلى شاهزاده باشي

- ولكن هذا الترام سيذهب إلى أكسراء.

- وماذا أفعل؟

- انزلي.

رن جامع التذكرة الجرس، ونزلت الفتاة، فهذا ما أرادته. من الأفضل أن تمشي، فإسطنبول جميلة جداً في هذه الساعة؛ الشوارع تعج بالعاملين في الشقق والمدارس التي أصبحت شاغرة فجأة، وتظهر على وجوه الجميع فرحة أولئك الذين أخذوا استراحة من العمل، والمحال التجارية مزدحمة، وهناك تجمعات، على عجلة من أمرها، في مناطق انتظار الترام، وتسير

حشود متسارعة من الناس وطلاب المدارس، جنبًا إلى جنب،
 يمزحون بصوت عالٍ، مستمتعين بحرية عصر يتم فيه إهمال
 الضروريات الاجتماعية والكياسة. وأكثر ما يحدث الضجيج هو
 الترام أولاً، ثم بائعو الصحف المسائيون؛ حيث لديهم طريقة
 حادة في تهجئة اسم الصحيفة التي يبيعونها، مما يجعل الفارغين
 يقفزون من أماكنهم. ولكن هل يشتري أحد الصحيفة؟ لا،
 فالموزع لا يتوقف أبدًا ويركض، فلو لم يقف لأحد فمن يشتري
 صحيفته إذن؟! وللصحف خدمات كثيرة، فلو لم يظهر هذا
 الإعلان في الصحيفة لما علم والدها أنها تعيش في إسطنبول.
 وهنا أرجع أربعة أشخاص الموزع، فهذه هي الطريقة التي
 يجب أن يُمسك بها، شيء غريب. يا للهول! مرت سيارة بللت
 مبرورة، والسائق يضحك. صحيح، لا ينبغي أن تشتت انتباهك
 في المدينة. وتذكرت جولتها مع بهيج بالسيارة. آه، لا بد من
 شراء صحيفة الآن، فربما كتبت الصحف عن انتحار بيلما؟
 وربما لا، بالتأكيد.

ركضت مبرورة، لكنها لم تتمكن من اللحاق بالموزع.
 وسارت حتى الصَّيَارْفَةِ، لكن حتى محال التبغ لم تكن قد تلقت
 أي صحف بعد. يا له من أمر مؤسف! لم تتمكن من العثور
 على أي صحيفة في أي مكان حتى وصلت إلى المنزل. كانت ترى

الناس الجالسين خلف نوافذ المقاهي وهم يتصفحون صحف المساء بعناية، وبلغ فضولها إلى درجة أنها كانت لديها رغبة غريبة في الدخول وقراءتها، ثم تذكرت؛ حتى لو وجدت الموزع، فماذا عن المئة قرش؟ ما هذه المفاجأة؟ كانت تسمع أن الأشخاص الذين يربحون الجوائز الكبرى يصابون بالجنون، هذه ليس كذبة، عقلها مشوش، هذا أمر حقيقي. وفكرت في صالح وكانت تقول: مسكين! مسكين! إنه مسكين!

كانت الخادمة الصغيرة هي التي فتحت باب منزل نادر، وقالت:

- السيدة تنتظر ك على العشاء.

- حتى هذا الوقت؟ يا له أمر محرج.. محرج!

ركضت إلى الداخل، وكانت السيدة خيرية تتجول حول الطاولة، وسعدت برؤية مبرورة، وقالت:

- هل أتيت؟

- ما المشكلة، هل انتظرتني؟ آه، أنا محرجة جداً.

- لا توجد مشكلة يا بنيتي، أعرف أنك مشغولة، أكيد أنت جائعة.

- بالعكس أنا شبعي من الفرح، من الفرح. لا تعلمون مدى سعادتي، واصلتني أخبار من والدي، فهو على قيد الحياة.

كان ذاهبًا إلى أماسيا، وسيفتح متجرًا هناك، أرسل لي خطابًا ومالًا، سأذهب قريبًا، إلى والدي، إلى الأناضول، سأكون في سلام، انظري إلى الرسالة، هنا، خذها، اقرئها، اقرئها..

فتحت مبرورة حقيبتها وهي ترتجف، فوجدت الرسالة، وأعطتها للسيدة خيرية التي كانت في حيرة من أمرها ماذا تقول، وقالت: "اقرئها". السيدة خيرية: "أنا لا أستطيع القراءة، يمكنك أن تقرئها يا بنتي، أنا متفاجئة من هذا، سأجن من الفرح!"

قرأت الفتاة الرسالة.

كانت خيرية هانم واقفة تنظر إلى مبرورة، وفمها مفتوح بابتسامة صغيرة، ولا تزال لا تعرف ماذا تقول:

- والآن أنا أيضًا شبع، انظري، والدك على قيد الحياة، ألم أقل لك يا بنتي، عليك أن تصدقي الأصوات القادمة من قلبك؟

وسحبت أحد الكراسي للفتاة الصغيرة وأضافت:

- لا أنخدع، لا أنخدع بهذا الشعور، اجلسي يا فتاة، حاولي أن تأكلي، اجلسي يا مبرورة الإلهية، لقد وصلت إلى والدك أخيرًا، أنا سعيدة جدًا بهذا.

كانت الخادمة الصغيرة تنظر إلى مبرورة بابتسامة، ويبدو أنها تريد أن تقول شيئاً كان على طرف لسانها. لقد فهمت خيرية هانم هذا:

- ما تلك الفتاة؟ ممّ تضحك؟

خجلت بسملة، وضحكت وغطت وجهها بيديها الصغيرتين وتوقفت قليلاً:

- أنا أيضاً لدي أب في الأناضول.

نظرت مبرورة إلى بسملة بدهشة وقالت بصدق أخت:

- هل هذا صحيح يا عزيزتي؟

- نعم، هو أيضاً في زونجولداك، في منجم للفحم.

وأكدت خيرية هانم:

- حقاً.. حقاً.. والد ابنتنا موجود أيضاً في الأناضول.

وهي أيضاً ليس لديها أحد هنا، أنا أمها هنا.

لم تستطع مبرورة التحمل، وقفت وضممت خدي الفتاة الصغيرة وداعبت شعرها الأشقر الناعم: "أحسن، أنت جميلة جداً!"

وعندما جلست مرة أخرى، أخبرت خيرية هانم، من البداية إلى النهاية، كيف كان شعورها في أثناء انتظار مدير إدارة

المهاجرين، وما الذي تحدثت معه فيه، وكيف شعرت بالقلق من سوء فهمها في البداية:

- لو تعلمين ما أنا عليه الآن. أنا شبه مجنونة. لا أستطيع احتواء هذه السعادة في ذهني، تبدو لي كذبة؛ كأن يكون البعض أشفق عليّ وذهبوا إلى المدير العام ورتبوا معه هذه الخطة، وكتبوا هذه الرسالة بتقليد خط والدي، وضحى أحد الأثرياء بهذا المال، و.. و.. لو كان هناك سعادة أكبر، لأصبحت مجنونة. ليس هناك سعادة أكبر، أليس كذلك؟

- بلى يا بنيتي، هذه أعظم سعادة؛ الصحة أولاً، والأب والأم ثانيًا. آه لو أن أطفالنا يعرفون قيمتنا قبل أن يفقدونا! أنا على يقين أنه حتى الأبناء الأكثر شرًا وسوءًا يعرفون قيمه آبائهم عندما يفقدونهم. ولكن ما الفائدة؟ فالأهل حينئذ لا يعرفون ذلك.

- كنت أحب والدي دائمًا، لكنني لم أكن أعلم أنني أحبه إلى هذا الحد. في الواقع، الناس يدركون قيمة أحبائهم عند فقدانهم.

- انظري يا بنيتي، والدي كان رجلًا دقيقًا وبغيضًا، وكان يضربني كثيرًا، وأحببت والدي أكثر منه؛ فهي كانت عكسه، حيث كانت تدللني كثيرًا، ربما كان والدي يضربني كثيرًا لأنها

كانت تدللني كثيراً، وربما كانت والدي تدللني لأن والدي كان يضربني كثيراً، لا أعلم ذلك، لكنني كنت أخاف من والدي، وبصراحة، كرهته. وعندما توفي والدي، وغادرت جثته منزلنا، بكيت وصرخت كثيراً إلى درجة أنني مرضت أربعة أيام.

ارتعشت مبرورة من كلمات "الموت والمرض"، ونظرت إلى الجو من النافذة. أمس، في هذا الوقت بالتحديد، كانت خديجة تحكي لها عن مغامراتها المذهلة، في هذا الوقت بالتحديد، كانت تبكي بصوت عالٍ، في هذا الوقت، سكبت السم في الكأس وشربته. وربما اليوم في هذا الوقت هي تحت الأرض، وربما ضربت آخر مجرفة عليها، ولم يُترك ثقب واحد في الأرض يمكن من خلاله للضوء أن يمر إلى جسدها. وفكرت في الناس حول مقبرتها: من يدري كيف بكى مصطفى أفندي المسكين بصوت أجش، كما فعل في اليوم السابق؟ من يدري؟ فقد يكون فخري ونادر تعذبا كثيراً حتى يواسيهم في آلامهم، وفي الحقيقة، هم في حاجة إلى المواساة مثل مصطفى أفندي بعد رؤية هذا المنظر. آه.. بيلما، بيلما، خديجة، خديجة المسكينة!

في المساء، انتظرت مبرورة وخيرية هانم كلا من نادر وفخري في غرفة المشربية في الشارع، وكان الظلام قد حل، تم اختفى شعاع الشمس الأصفر الذي تسرب من خلال فتحة شبكية

مكسورة. وفي الشارع، أصبحت خطوات المسافرين أقل تواتراً. بدأ مؤذنو مسجد شهرزاد تواشيحهم الدينية، وابتعدت الكلمات التي يرددها بائع الحلوى، الذي استدار عند الزاوية، بصوت هادئ، وهناك قطعة مرجانية لحمية طويلة الشعر تغط في النوم على الوسادة.

صمت المؤذنون، وتوقفت الخطى، واختفى بائع الحلوى، ولم يبقَ في الغرفة صوت سوى غطيطة القطعة المرجانية ودقات الساعة. ولم تكن لدى كل من مبرورة وخيرية هانم طاقة للتحديث، وكانت مبرورة تستمع إلى غرابة أمسيات إسطنبول. الباب يقرع.

ربما نادر وفخري. هما! أصواتهما تأتي من القبو الخشبي، وسألاً بسملة عن أمر بسيط.

انفتح باب الغرفة.. دخل نادر وفخري، وكلاهما متعب، ورأساهما منحنيان، يتمايلان قليلاً. ترك نادر الصحيفة التي بيده على الطاولة وجلس على الوسادة متكئاً على الوسادة، وسُمع صوت منسحق ومتعب:

- انتهى الأمر، دفناها.

جلس فخري أيضاً، وصمتوا.

لم يكن لدى أحد الشجاعة لقول أي شيء. لقد أرهقت المهمة الأخيرة كلا الرجلين مادياً ومعنوياً، وكانا يميلان إلى الخلف ولا يتحركان، ولكن صوت أنفاسهم الشديدة مسموع. في الغرفة، أربعة أشخاص فكروا في شيء واحد: موت خديجة. استمر الصمت طويلاً:

وقف نادر ببطء وقال: "أمي.. المصباح!".

سارت خيرية هانم نحو الباب، ونادت بسلمة، وترددت كلمة "مصباح" طويلاً في القبو الكبير. وقف فخري أيضاً، ونظر إلى الفتاة الصغيرة بعينيها اللامعتين في الظلام، وخرج صوته المتعب العالق في حلقة ببطء:

- سيدة مبرورة، لقد قمنا بعمل صعب اليوم، وتعبنا جداً. نحن منهكون الآن. خطر على بالي هذا: كان ينبغي لخديجة المسكينة أن تأذن بأن تكتب الجملة التالية، المكتوبة على قبر شاعر عربي، على قبرها أيضاً، وتوجهها إلى كل الفتيات المزعومات: "بالأمس كنت مثلك، وغداً تكونين مثلي!"

أحضرت بسلمة المصباح.

أضاء كل شيء في الغرفة فجأة. استيقظ القط المرجان، وهز نفسه، وفتح عينيه، وقفز على الأرض. في المنزل المقابل، بدأ العود في عزف ألحان "فرحفا" مرة أخرى.

مبرورة: آه، أليست هذه زوجة الشهداء الثلاثة؟

وقف نادر وهمس "نعم"، وأخذ الصحيفة من على الطاولة:

- دعونا نرى هل كُتِبَ عن خديجة أم لا.

الجميع ملتف حول الطاولة. فُتحت الصفحة الأولى. ليس في الثانية أيضاً. ولم يظهر في الثالث أيضاً. مدّ فخري إصبعه وأشار إلى العمود الأخير فامتدت الرؤوس، وقرأ نادر العنوان الكبير: "اللغز الذي كشفه انتحار امرأة"، ويعقبه: "بهيج وعشيقته قتلا طفلتهما ودفناه سرّاً منذ أربع سنوات. وكُشف الحادث أمس بعد انتحار المرأة. والشرطة تحقق في الأمر"، والخبر بعد الورقة الثانية: "بعد ظهر أمس، نحو الساعة الرابعة عصرًا، انتحرت شابة تدعى خديجة، ومعروفة بالاسم المستعار بيلما في حي جراح باشا، عن طريق شرب السم. وعُلمَ سبب هذا الانتحار من الرسالة التي تركتها المرأة موجهة إلى الشرطة. الرسالة هي:

(أنا أنتحر. والسبب هو الندم، وإنقاذ بعض الفتيات الصغيرات من أيدي القاتل. وذلك القاتل هو بهيج، ابن المرحوم نافع بك، أحد وكلاء سفارة فيينا السابقين. لقد كانت جريمتي دفن طفلي حيًّا في بستان في فانيكوي، قبل أربع سنوات. لم أستطع منعه؛ لذلك أخفيت هذا السر. كان الطفل

مريضاً، ووالده لم يرد له الحياة، مع أن المرض انتقل إليه من والده. وأنا أعلن لكم هذه الحقيقة اليوم. أجروا تحقيقات؛ فقد أضفت رسماً صغيراً للبستان إلى هذه الرسالة. اخذشوا المنطقة التي رُسمت علامة النرد عليها. ابحثوا عن هيكل عظمي لطفل. اليوم، اقبضوا على القابلة قدرية هانم في نيشان تاشي، والدكتور شمس الدين بك، الذي لديه عيادة في سيركجي. وهم يعرفون هذا الطفل. "ليس هناك سبب لانتحاري سوى بهيج".

تم اعتقال بهيج، موضوع هذه الرسالة، في شيشلي هذا الصباح، وألقي القبض على القابلة قدرية هانم، وبعد قليل من الضغط، قالت إن المتحيرة أنجبت طفلاً مريضاً في فاني كوي، وهذا الطفل ابن بهيج، وإنها لا تعرف أي شيء آخر. هذا وقد أجرت النيابة العامة، هذا الصباح، أعمال تنقيب في فانيكوي، في الموقع المحدد، وعُثِرَ على جمجمة جنينية، و"التحقيق مستمر". وبعد قراءة الصحيفة، ألقاها نادر على الوسادة.

- هذه المسألة أصبحت ماضياً، ولا تستحق التفكير فيها..

تمت مبرورة شاردة:

- قُبِضَ على بهيج، هاه.. هذا الصباح.. في القصر..

سار فخري، وهو يفرك يديه، وأمسك نادر من ذراعه.

- لكن يا سيد نادر، بهيج يستحق هذا العار، وهذا الإعلان، شكرًا خديجة.

قالت خيرية هانم: "أمر غريب، أمر غريب". صمت الناس في الغرفة مرة أخرى. كان الجميع يفكرون مرة ثانية، ثم التفتت خيرية هانم إلى ابنها:

- آه يا نادر! هل لديك علم؟ تلقت مبرورة هانم رسالة من والدها.

استيقظ نادر وفخري فجأة من أفكارهما، وقفزا وسألا:

- متى؟ كيف؟ من أين؟

نظرا إلى الفتاة الصغيرة دون تصديق، معتقدين أنهما يتحدثان عن شيء خطأ.

وعندما رأت مبرور أن كل العيون تنظر إليها، صرخت بفرح متزايد:

- نعم. والدي على قيد الحياة، وهناك رسالة منه، انظروا!

وفي أثناء إخراج الرسالة من جيبتها، شرحت، بكل مشاعرها، ما حدث في إدارة المهاجرين.

كان نادر وفخري واقفين، يتكئ كل منهما على الآخر، يستمعان إلى مبرورة، متعبان جداً، إلى درجة أنهما لا يستطيعان فهم أهمية هذا الخبر. وفي مرحلة ما من القصة، قاطع نادر مبرورة وسألها:

- عزيزتي مبرورة هانم، ماذا أراد المدير العام أن يخبرك بالتحديد؟

- إنه تلقى رسالة من والدي، وقال "أنا ملزم أخلاقياً ومهنيًا بإرسالك إلى الأناضول سالمة"، وإنه سيرسل أحد الموظفين معي ليرافقني في السفر.

تبادل نادر وفخري النظرات، وعرض فخري على شفتيه، فسأل نادر الفتاة:

- وماذا قلت؟

- قلت إنني لم أقبل هذه الحماية، وإنني أفكر في شيء آخر.

- وما رأيك؟

لم ترد مبرورة مباشرة على نادر، ونظرت إلى فخري، الذي تحول لونه إلى اللون الوردي قليلاً من الإثارة، وأوضحت:

- أراد المدير العام أن يعرف ما كنت أفكر فيه، وسألني: "أو هل لديك صديق لتذهبي معه إلى الأناضول؟".

نظرت مبرورة إلى فخري فترة طويلة بنظرة أكثر ثباتاً،
وسأل نادر مرة أخرى:

- وبماذا أجبت؟

- أحنيت رأسي والتزمت الصمت، وأكدت كلام المدير العام.

- من صديقك هذا؟

كان فخري يرتجف. من هذا الصديق؟ من سيرا فم مبرورة
ليس فقط في هذه الرحلة؛ بل طوال رحلة حياتها؟ هل هناك
شخص آخر لا يعرفه؟ منافس آخر، ساحر آخر، شاب أكثر
مهاره من بهيج وأكثر حباً منه؟ شاب؟ من هذا؟ ولكي
يعرف ذلك كان مستعداً على الفور لتقديم أعظم التضحيات.
كان نادر ينظر إلى الفتاة. وبعد أن اقتنع أنها لم ترتكب أي
خطأ، قال بحزم شديد:

- أعرف هذا الصديق يا مبرورة هانم.

وعندما رأى الفتاة ترفع عينيها نحوه، أشار نادر إلى فخري:

- مبرورة هانم، هل تسمحين لنا بتهنئة هذا الصديق الشاب؟

لم تعترض الفتاة، وابتسمت. ومن المؤكد أن هذه الالبتسامة
تناسبها جداً.

التعريف بالمؤلف

بيامي صفا

بيامي صفا: (١٨٩٩ - ١٥ يونيو ١٩٦١) ولد في إسطنبول. والده الشاعر الكبير إسماعيل صفا. لم يتلقَ تعليمًا منتظمًا. اعتمد على نفسه. زج به في الحياة في عمر الثالثة عشرة، فعمل في المديرية العامة للبريد والبرق، وعمل بالتدريس بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، وبالصحافة بين عامي ١٩١٨ و١٩٦١. كسب قوت يومه من كتاباته، وتوفي في إسطنبول، وأصدر مع أخيه إلهامي صحيفة مسائية تُدعى "القرن العشرون". نشر أول قصصه في هذه الصحيفة دون توقيع، عام ١٩١٩، وأصدر مجلتي إحداهما تُدعى "أسبوع الثقافة" والأخرى مجلة "فكر الأتراك". وعندما مات كان محررًا للصحيفة "الأخبار العاجلة". كان بيامي صفا ينشر الروايات التي لا تقدم قيمة أدبية للناس بتوقيع سرور بديع. وهذه الأعمال التي تبلغ ثمانين عملاً، من أشهرها رواية "من سامبا إلى رومبا"، وسلسلة من القصص البوليسية "جينكوز رجائي"، وبالإضافة إلى ذلك كتب كتبًا تعليمية. ويظهر في نكات بيامي صفا ومقالاته حبكة

المنطق السليم والإقناع. أولى أهمية في رواياته للتحليل أكثر من الحدث، وعبر عن الانهيار الأخلاقي في مجتمعنا، والتشتت الذي خلقتة الحضارة والصراع بين الأجيال والبيئة الاجتماعية، وتناول بمهارة مفاهيم التناقض والتعارض بين الشعور والفكر. رواياته: برق (١٩٢٣)، أشباه فتيات (١٩٢٣)، المحشر (١٩٢٤)، كان مساءً (١٩٢٤)، في ظل حربة (١٩٢٤)، ذنب في قلب فتاة (١٩٢٥)، جانان (١٩٢٥)، جناح قسم الجراحة التاسع (١٩٣٠)، فاتح حربية (١٩٣١)، آتيل (١٩٣١)، تردد (١٩٣٣)، مدام نورالية (١٩٤٩)، وحيدون (١٩٥١) نحن بشر (١٩٥٩). قصصه: جمعت في قصص خليل أشيككوز (١٩٨٠). مسرحيته: يشرق الصبح (١٩٣٢). مقالاته: نظرات على الانقلاب التركي (١٩٣٨)، الاستفتاء الأوروبي الكبير (١٩٣٨)، أزمة فلسفية (١٩٣٩)، المجتمع والفرد (١٩٤٣)، معهودات (١٩٥٩)، التصوف (١٩٦١)، القومية (١٩٦١)، الاشتراكية (١٩٦١)، بين الشرق والغرب (١٩٦٣)، الفن والأدب والنقد (١٩٧٠)، اللغة العثمانية والتركية والمزج بينهما (١٩٧٠)، الاشتراكية والماركسية والشيوعية (١٩٧١)، الدين والانقلاب والرجعية (١٩٧١)، المرأة والحب والأسرة (١٩٧٣)، الكتاب والفنانون والمشاهير (١٩٧٦)، التعليم والشباب والجامعة (١٩٧٦)، القرن العشرون وأوروبا ونحن (١٩٧٦). كتبه التعليمية: حروف الأمة في مدارس

الجمهورية (١٩٢٩)، الحروف في مدارس الجمهورية (١٩٢٩) قراءات في مدارس الجمهورية (١٩٢٩)، مذكرات طالب جديد (١٩٣٠)، نماذج لرسالة كبيرة (١٩٣٢)، قواعد التركية (١٩٤١)، قواعد اللغة (١٩٤٢)، القواعد الفرنسية (١٩٤٢)، قواعد الفرنسية باللغة التركية (١٩٤٨).

